دكتور عبد المعطي سويد

هياكل التنوير والحداثة المبتورة
في
العالم العربي





مؤسسة الانتشار العالمي
للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
ت: ٠١٠٢٧٧٢١٢١٣
E.mail: Alentshar48@hotmail.com

الكتاب:هياكل التنوير والحداثة المبتورة في العالم العربي

الكاتب: الدكتور عبد المعطي سويد (سوريا)

الناشر: مؤسسة الانتشار العالمي

الطبعة العربية الأولى : القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/٢٢٣٠٩م

تصميم الغلاف: المهندس خالد نور الدين

الجمع والإخراج:وحدة الكمبيوتر بالمؤسسة

إن الحروب والثورات قد تغيّر الخرائط، وتزيل البنى السياسية، وتُطيح بالأنظمة، وتُحاكم الطغاة، ولكنها لا تغيّر العقول لأن ما يغيّر العقل هو العقل نفسه.

المؤلف / من مقال لم ينشر، بعنوان (الحرب وتحديث العقل)
نوفمبر ٢٠٠٢م

"يبدو أن من يكافح في سبيل سيادة العقل في المجتمعات العربية، يكافح في سبيل قضية خاسرة"

"إن عالمنا المعاصر، عالم تفريخ، وتكاثر، وتضخم المعلومات، والمعرفة، ولكن ذلك لا يعني نمو العقل البشري، واتجاهه نحو تحقيق سعادة البشر"

المؤلف

استهلال

"إن سؤالي الجوهري في هذا الكتاب، والمتعلق بالتنوير والحداثة هو: لماذا لم يأخذ العرب، أخذ عزيز مقتدر ومتعمّد بالمرجعية العقلانيـــة، ولم يعملوا على تحييد ثقافة النص[1]، ولا أعني بالمرجعية العقلانيـــة تلك الصادرة عن التراث الغربي، بل أيّة مرجعية عقلانية (التفكـــير العلمي، الفلسفة كنشاط عقلي حرّ، ومستقل، والمناهج العلمية للعلـــوم الإنسانية) سواء كانت متجسّدة في الغرب الأوروبي-الأمريكي، أم في أية قارّة أخرى يتجسد العقل المستقل في تراثها؟

هذه الأوراق هي محاولة للإجابة عن الســـؤال المطـــروح، ولا يزعم صاحبها أنها الإجابة الكاملة، أو النهائية".

المؤلف

---

[1] المقصود بالنص وثقافته: النص الديني، أو أي نص مقدس، وما ينتج عنـــه من ثقافة، انظر كتابنا(العقل العربي-معالم في طريـــق التحريـــر-) الشـــارقة - (الإمارات-١٩٩٩).

المقدمة

في الأدبيات العربية عندما يتحدث المؤلفون، والكتاب، والمثقفون في الكتب والمؤتمرات أو الندوات، ويذكرون مصطلح التنويـــــر، أو يتكلمون عن حاجة المجتمعات العربية إلى التنوير، فهم يحملون فـــي باطن فكرهم خلفية مصطلح التنوير، والتي تعود إلى الثقافة الأوربيـــة حصراً. ذلك أن ما يسمى بقرن التنوير أو عصر التنوير الذي شـــاع في الثقافة العربية إنما هو ترجمة للكلمات الأجنبية الفرنســـية:-Le siécle des lumiéres، والإنجليزية Enlightment والألمانيـــة Aufk Lärung، ومن أمثلة الأدبيات العربية: تكريـــس مجلـــة (الوحـــدة) العدد(٨١) لمحور: العرب والأنوار[1] وكذلك بعض الكتيّات الحديثـــة من قبيل: (مدخل إلى التنوير)[2]،و(الدين والفلسفة والتنوير)[3]وأخـــيراً (التنوير في الأدب)[4].

---

(1) مجلة الوحدة (المغرب العربي) العدد ١٩٩١/٨١ .

(2) د. مراد وهبة (مدخل إلى التنوير) منشورات دار العالم الثالث، ودار النهج الحرير- مصر، الكويت ١٩٩٤.

(3) د. محمد حمدي زقزوق (الدين والفلسفة والتنوير) سلسلة اقرأ- دار المعارف بمصر، رقم (٦١٠) .

(4) د. منى أبو سنه (التنوير في الأدب) منشورات دار العالم الثالث- النهج الحرير- الكتاب الثاني ١٩٩٥- القاهرة.

ومن الأدبيات المهمّة في موضوع فلسفة الأنوار كتاب ارنست كاسيرو :
E . Cassirer ; laphilosophie des lumiéres (1432)

وعندما تتحدث كتب التاريخ العام أو تاريخ الأدب، أو تاريخ الفكر، أو تاريخ الفلسفة عن التنوير تقف طويلاً عند القرن الثامن عشر الأوربي، وتعرّج في حديثها على هذا القرن فتدعوه بقرن (الأنوار) حيث أشّع هذا القرن بأنواره، أو استنارت جميع طبقات المجتمع في أوربا بنور العقل، وتجاوزت في تفكيرها العصور القديمة والوسطى، والكلاسيكية، وأخيراً، عَمِل العقل منذ ذلك القرن على صياغة حياة الفرد والمجتمع في الاقتصاد والسياسة، (الاقتصاد الحرّ والديمقراطية..).

أما الحداثة[1]، فهي أيضاً واردة لنا من الثقافة الأوروبية، وهي ترجمة لكلمة Modernité الفرنسية و Modernity الإنجليزية، وهي في مضمونها امتداد لعصر التنوير، وخاصة في تركيزها على التقدم معيار التقدم الإنساني وفي العلوم والفكر والآداب، وانطلاقها من العقل ذاته، لتنمية الحياة في مختلف جوانبها، وتحديث طرق العيش، وآليات التفكير في الحياة، وتحييدها لعالم الغيب، والأطروحات الدينية، لتجعلها من خيارات الفرد الشخصية، وبكلمة مختصرة، إن الحداثة في الفكر، والوجود هي: الحداثة العقلية، والمادية.

سنرى في الفصول التالية كيف أن مسيرة التنوير وانتصار الحداثة في المجتمعات الغربية، لم تترك مع احتكاكنا الطويل بالحضارة الغربية، الآثار الإيجابية في حياة وفكر المجتمعات العربية، وأعني بالآثار الإيجابية: تطور العقل العربي، ليكون موازياً للتطور المادي الذي تم بناؤه في الوطن العربي، ولقد ظلت وحتى يومنا، المجتمعات العربية تعيش حياة حديثة، وتعيش فكراً تقليدياً،

---

[1] من أدبيات الحداثة مثلاً (الإسلام والحداثة- (ندوه) ط. دار الساقي- لندن ١٩٩٠.

قديماً وحاولت دائماً التوفيق والتلفيق، والترقيع بين البنية التحتية التي بنتها متأثرة بشكل مباشر بالحضارة الغربية وبنيـــة عقلـــها القديمـــة التقليدية، وظلت هذه المجتمعات تعيش ضمن أنساق معرفية تقليديـــة (ثنائيات جامدة)[1] ولم تنتج (معرفة) أو تخلق طرقاً أو مناهج حديثـة في التفكير، ولم تُعد صياغة ما يسمى بـ (العقل الاجتماعي)، ليكـون عقلاً حديثاً أو عصرياً يتجاوز مستوى (مدن الملح) التي قام ببنائها.

---

[1] من قبيل : القديم والحديث ، والأصالة والمعاصرة ، العقل والنقل ، العلم والإيمان ، العروبة والإسلام ، التراث والتجديد ، الخ . . .

القسم الأول

الفصل الأول

النهضة الأوروبية/ مقدّمات عصر التنوير

يرى أحد الباحثين الفرنسيين أنه من المفارقة بمكان أن تكـــون كلمة نهضة Renaissance، ذات أصل ديني مسيحي، علماً أن هـــذه النهضة قامت أساساً على أسس (لا دينية)، أي أنها أعقبت ما يســمى بالإصلاح الديني Réforme ، على يد الكاهن كالفن (١٥٠٩)، لتشكل هذه النهضة دعوة إلى إحياء كل ما هو وثني، ولتكون ردة فعل قويــة إزاء العصور الوسطى الدينية، ولقد شكلت النهضة، مطلبــاً فكريــاً، ومجتمعياً بالعودة إلى أسس الحضارتين اليونانية والرومانية-[١]، ولقد ارتبطت هذه النهضة في بدايتها بوقائع تاريخية مهمة:

(١) السيطرة العثمانية بقيــادة محمــد الثــاني علــى القســطنطينية (اسطنبول).
(٢) نهضة آل الميدتيشي في فلورنسا (إيطاليا).
(٣) اكتشاف أمريكا أو العالم الجديد (١٤٩٢م)[٢]

هذه هي الأسباب الموضوعية، إذا صح التعبير، أمــا الأســباب الذاتية، فكما قلنا منذ لحظة، شكلت النهضة ظاهرة جديدة في الحيــاة الأوروبية تقوم على بعث "الجانب الإنساني" مقابل الجانب الديني فــي الحضارة، لقد بدأت المظاهر الفكرية والفنيــة والأدبيــة، والفلســفية

---

[١] Paul- Faur, la Renaissance, Coll, que- sais N 354 . P 5-6 .

[٢] bid P. 7-8

تصعد على سلم الحياة الأوروبية، وكان لهذا الصعـــود الحضـــاري أسبابه وتتلخص في:

(١) العوامل الاقتصادية

(٢) العوامل الاجتماعية

(٣) التقدم التكنولوجي

(٤) نهضة الفنون، وخاصة في (إيطاليا).

(٥) إعادة النظر في القيم الروحية التي كانت سائدة فـــي العصـــور الوسطى[١].

---

(١) bid P 11. 30. 48. 65. 81. 101

عصر التنوير في جوهره، وتجلّياته

التنوير، أو الأنوار، أو الاستنارة[1]، كلمات أو مصطلحات اختلف حولها بعض الباحثين ومنهم من فضّل استخدام الكلمة الأولى ومنهم من فضّل الثانية وثالث قال بالكلمة الأخيرة، ومن جهتنا، سوف لن نقف عند الفروق الاصطلاحية ولا اللغوية بين الكلمات الثلاث ونعتقد بأن القاسم المشترك بينها، هو: الانتقال المجتمعي في القارة الأوروبية في القرن الثامن عشر من حال ظلمات التفكير القديم والتقليدي، والذي كان أسير التفكير الديني المسيحي، وغيبيّاته، وتجاوز مقولات الكتاب المقدس وسلطة النص الديني، إلى تفكير من نمط جديد، يسوده التفكير العقلي المستقل.

١) – لذلك فإن السمة الأولى للتنوير كانت الابتعاد عن التفسيرات الغيبيّة (الميتافيزيقية) المسيحية للكون، والحياة، والوجود، مع عدم المسّاس بحرية الأفراد الدينية واعتقاداتهم الشخصية الإيمانية، أو خياراتهم العقائدية، وإنما الدعوة إلى إزاحة السلطة الدينية من واقع الحياة العامة[2].

---

[1] بعض المشتغلين في الدراسات الفلسفية يرى أن السفسطائيين (أو المغالطين) كما يسّمونهم العرب، كانوا في تاريخ الفكر اليوناني القديم أول المستنيرين، أو أصحاب التنوير وذلك في مقولتهم الشهيرة "إن الإنسان مقياس الأشياء" ، في مقابل أن الآلهة أو الله ، مقياس الأشياء .

[2] Yvon Belaval, lesciecle des lumieres in Histoire de la philasophie, Tome (2) coll. Pléiade, P604.

وبتعبير آخر يتفق مفكرو هذا العصر، وعلماؤه، على الدعوة إلى تحييد التفكير الديني المسيحي، بعد أن كان مهيمنا على مختلف مناحي الحياة طوال العصور الوسطى الأوروبية وحتى القرن السابع عشر، والذي برزت فيه الدعوة إلى التركيز على العقل، حيث بلغت هذه الدعوة أوج ذروتها في قرننا المذكور.

٢) - السمة الثانية لعصر التنوير هي الانطلاق لفهم الواقع، من التجربة والشك وهذان هما قطبا التفكير العلمي، وهو ما سيؤكده العالم" اسحق نيوتن"[١] فالشك يعني في هذا المجال ألا نقبل الأفكار الواردة لنا ولا ننظر إلى الواقع إلا بعد أن نتخلى عن الوثوقية المطلقة (الدوغمائية) Dogmatisme التي ورثناها عن تفكير قديم لم يمر عبر مرحلة التجربة أو الشك.

٣)-الدعوة إلى تغيير النظرة إلى الإنسان، أو صورة الإنسان التي بناها التفكير الديني، ومسلماته، وتركيزه على الأفكار الفطرية التي فطر الله عليها الإنسان والقول بإعادة النظر في هذه الأفكار المتلقاة عن سلطة الكلمات المقدسة.

٤)- التركيز على الدعوة إلى هجره التقاليد الاجتماعية، والأعراف المتوارثة والقول بمجتمع جديد، مجتمع مدني، والمواطن، ومؤسسة المجتمع المدني، والحريات السياسية.

٥) - اعتماد المنهج التحليلي التاريخي، وإنشاء ما يسمى بفلسفة التاريخ، وفلسفة الحق، والسياسة والتربية، والتركيز أيضا على فكرة التقدم[٢].

---

(١) المصدر السابق Ibid, P. 604, 605 .

(٢) l bid, P. 606- 607 .

٦) – انتشار المعرفة العلمية، فعلى حين كان الناس فـــي المـــاضي يسلمون بأمور كثيرة ارتكاناً إلى سلطة (أرسطو)، والكنيسة، أصبـــح الاتجاه الجديد هو الاقتداء بآراء العلماء، وكما أن البروتســـتانتيَّه قـــد طرحت في الميدان الديني، الفكرة القائلة إن كل شـــخص ينبغـــي أن يتصرف حسب تقديره هو، فكذلك أصبح من واجب الناس الآن فـــي الميدان العلمي أن يفهموا الطبيعة بأنفسهم، بدلاً من أن يضعوا ثقتـــهم العمياء في أقوال أولئك الذين كانوا يدافعون عن النظريات الباليـــــة، وهكذا بدأت كشوف العلم تغير وجه الحياة في أوروبا الغربية.

٧) – بعد حروب دينية طاحنة في العصور التي سبقت هذا القـــرن، نشأت في هذا القرن، نتيجة المعاناة من الصراعات، الدعـــوة إلـــى التسامح وأصبح مبدأ التسامح مستحباً عند مفكري هذا العصر[١].

والخلاصة كان عصر التنوير في جوهره عودة إلـــى تقديـــر النشاط العقلي المستقل[٢]. وكان حرص المفكرين جميعاً في عصرنـــا التنويري على التأكيد على أولوية العقل، ولقد فكر فلاسفة التنوير بأن طريق العلم، والعقل يمكن أن يؤدي إلى إقامة شـــكل مـــن أشـــكال الفردوس على الأرض.

---

[١] برتراندرسل، (حكمة الغرب) ترجمة د. فؤاد زكريا سلسلة عالم المعرفة رقـم (٧٢) الكويت ١٩٨٣، الجزء الثاني. ص ١٤٣، ١٤٥.

[٢] م.س.ص ١٤٥ لا يخفى أن الشطحات الفكرية التي ظهرت في هذا العصـــر، من قبيل المبالغة في تقديس العقل، قد خلقت رد فعل في المقابل، وقد انعكس فـــي الاتجاهات الرومانسية وقوتها العاتية، وتركيزها على الحياة العاطفية (الوجدانيـة) في مقابل التركيز على العقلانية .

في مقال لكبير فلاسفة العقل الألمان، وهو "كـانت Kant 1804- 1724" بعنوان ما التنوير عام (١٧٨٤) يعرّف الفيلسوف " التنويـــر "بأنه هجرة الإنسان من اللارشد"، والإنسان هو علة هـــذه الــهجرة، واللارشد هو عجز الإنسان عن الإفادة من عقله من غــــير معونـــة الآخرين، وهذا اللارشد هو من صنع الإنسان عندما لا تكون علتـــه مردودة إلى نقص في الفهم، وإنما إلى نقص في العزيمة والجرأة فـــي إعمال العقل من غير معونة من الآخرين.

كن جريئاً في إعمال عقلك، هذا هو شعار "التنوير"، ومن هذه الزاوية يقال عن العقل إنه مستقل.

إن التنوير ليس في حاجة إلا إلى الحرية، وأفضل الحريات خلواً من الضرر هي تلك التي تسمح بالاستخدام العام لعقل الإنســـان فـــي جميع القضايا.

تجليات التنوير في أقوال فلاسفته

رأى بعض الباحثين أن القرن السادس عشر والقرن السابع عشر الأوروبيين يشكلان الإرهاصات الفكرية لعصر التنوير، وقد تأثر فلاسفة التنوير بمفكرين عظيمين هما: "جون لوك" (١٦٣٢-١٧٠٤) والعالم "نيوتن" (١٦٤٣-١٧٢٧)، وقد عارض هذان المفكران المقولات الديكارتية (نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) بدعوى أن فكرة الوجود الإلهي كانت في قلب فلسفته، وأن فلسفته تتعارض مع الرؤية العلمية لكل من "لوك" و"نيوتن"[١].

بحث "جون لوك" في أصل الأفكار في العقل الإنساني في كتابه (محاولة في الفهم الإنساني) فردَّها إلى معطيات التجربة الحسّية، فالعقل هو لوح مصقول لم ينقش فيه شيء والتجربة هي التي تنقش فيه المعاني والمبادئ والأفكار جميعاً، فلا يوجد في العقل شيء إلا وقد سبق وجوده في الحس[٢].

أما "نيوتن"، فقد كان لمنهجه العلمي، ولمكتشفاته أثر في فلاسفة التنوير حيث جاء اكتشافه للجاذبية مؤيداً للمذهب الآلي، وموطداً الثقة في المنهج الرياضي وهو يتفق مع "لوك" في دور التجربة الحسية.[٣]

لقد أفضى التقدم العلمي في القرن السابع عشر، إلى الثقة في الطبيعة وإلى إمكان التقدم المستمر في القرن الثامن عشر، وتقدمت

---

[١] م.س . ص ١٨-١٩.

[٢] م.س. ص. ١٩-٢٠.

[٣] م.س ص٢٠-٢١ .

العلوم الفيزيقية والرياضية بفضل منجزات "نيوتن" وجاء كتاب "لابلاس" (نسق العالم) متوجاً للبعد الكوني لمبادئ "نيوتن" ومرت الكيمياء على يد "لافوازييه" (١٧٤٣-١٧٩٤) بفترة إبداعية، وكذلك ازدهرت علوم النبات والحيوان، ووظائف الأعضاء، ومهد "مونتسكيو" لعلم الاجتماع وحثت تجريبية "هيوم" على الاهتمام بعلم النفس وقد امتد استخدام مبدأ السببية (العلّية) إلى جميع مجالات الخبرة الإنسانية[١] ويرى مؤرخو الفلسفة أن القرن السابع عشر هو عصر العقل بامتياز، حيث برزت فيه أسماء "سبينسوزا" و"لاينبتز".

كانت الثقافة الإنجليزية مصدراً أساسياً في تغيير أسلوب التفكير في أوروبا فقد زار انجلترا كل من "فولتير"و"مونتسيكو" وأذاعا فكرهما الفلسفي، والديني والسياسي، وكان كتاب "فولتير" (رسائل فلسفية) (١٧٣٤) رؤية شاملة للثقافة الإنجليزية وكتاب"مونتسيكو" (روح القوانين) (١٨٤٨) عرضاً مفصلاً للدستور الإنجليزي، وكتاب"بريفوست" (مع وضد) (١٧٣٣-١٧٤٠) إعلاماً عن الروايات الإنجليزية، وذاع صيت "شكسبير"في فرنسا[٢] ولقد أفضى اهتمام فلاسفة التنوير بقضايا العالم الراهن وليس العالم الآخر إلى أسبقية مشكلة السعادة على أية مشكلة أخرى، فاتضّح لهم أن الطبيعة قد زوّدت الإنسان ليس فقط بالعقل، وإنما أيضاً بالعواطف، والشهوات.[٣] وتم ربط السعادة بالبحث عن اللذة، وتحقيق السعادة الدنيوية.

لقد تميّز القرن الثامن عشر بسيادة الفكر الليبرالي والإيمان المطلق بقضية الحرية، واعتبارها قضية فلسفية، وخلقية، وسياسية.

---

(١) م.س. ص٢١.

(٢) م.س.ص٢٤

(٣) م.س.ص٢٥

لقد واكب هذه الرؤى الجديدة بزوغ الطبقة البرجوازية، والمتمثلة في الممولين، الأثرياء، والتجار، والمحامين والأطباء، والحرفيين، والأدباء.

وزبدة القول إن مهّمة التنوير كانت حول الإنسان والطبيعة، وتغيير المجتمع، وتحقيق سعادة الفرد، والمجتمع، والحرية، وكل ذلك على أسس عقلانية، مادية، ولكن انقسمت رؤى فلاسفة التنوير حول هذه القضايا ولا بأس أن نسجّل بعض الآراء المهّمة لأساطين التنوير في هذا القرن:

١-**مونتسيكو** (١٦٨٩-١٧٥٥)

من أسرة أرستقراطية، أمضى ثلاث سنوات في إنجلترا. وتأثر بالدستور الإنجليزي نشر (رسائل فارسية) ينتقد فيها المجتمع الفرنسي، ثم نشر كتاب (اعتبارات في أسباب عظمة الرومان، وانحطاطهم ١٧٣٤)، وفي عام (١٧٤٣) انتهى من وضع كتاب روح القوانين، تحدث فيه عن القوانين، والديمقراطية، ويراها أنها في صميمها تفترض تحولاً جذرياً من الإنسان الفرد إلى الإنسان العام، وتفترض أن الشرور الفردية هي جرائم عامة، ومن هنا فإن مبدأ الديمقراطية السياسية هو: الفضيلة أي إيثار المنفعة العامة على المنفعة الخاصة... يقول إن طبيعة الطغيان انه حكم الفرد، ولا يعبأ: بهيئات (مؤسسات) رأي، إنه حكم بلا قانون، أو حكم بلا بناء تشريعي، أو سياسي، أو اجتماعي، ومن ثم فهو حكم يستند إلى الهوى، أو هو حكم يحيل السياسة إلى هوى أو (مزاج شخصي).

الطاغية يصدر قراراته بطريقة عفوية، أو آنيّة، أي بلا تبرير، أو حجة ذات وزن، والهدف المنشود عند"مونتسكيو" هو أن تكفل

الحكومات الحرية، وخير ما يكفل هذه الحريـــة اســتقلال الســلطات الثلاث: التشريعية، التنفيذية والقضائية.[1]

٢- فولتير (١٦٩٤- ١٧٧٨)

ممثل لامع للتنوير كانت غايته تنوير مواطنيه بمنجزات الفلسفة، والعلم والأدب ولفت نظرهـم إلـى الثقافـة الأوروبيـة، وخاصـة الإنجليزية، وحثّ مواطنيه على نقد الواقع الاجتماعي السائد، تـأثر بالثقافة الإنجليزية وخاصة بما يتعلق بالتسامح إزاء المعتقدات الدينية، وبالروح الليبرالية، لفت نظر الفرنسيين إلى ضرورة تغيير أسـلوب حياتهم، لما ينطوي عليه من تزمّت، وتعصّب.

في عام (١٧٣٠) ألف كتاباً في (الميتافيزيقا) ينتقد فيه الميتافيزيقا التقليدية وينتقد أسلوب الكهنة المسيحيين في الأسـلوب، والتفكـير، والممارسة، ويقول في هذا الصدد أن المعتقـد dogma مـن صنـع الكهنـة، وليـس لـدى هـؤلاء سـوى الانقسـامات اللاهوتيـة، والاضطهادات، وقتل الملحدين، والهراطقة ولـهذا فليـس بمقـدور المعتقدات أن تكون عالمية universals ، في حين أن القيم الأخلاقيـة تتصف بالعالمية، ويدلل " فولتير" على عالميتها ، بالعقل والتجربـة، يقول كيف يمكن للشعوب أن تكون لديها نفـس المبـادئ الأساسـية للعدالة، والظلم إن لم يكن قد وهبها الله : العقل؟.[2]

---

(١)م.س . ؟٣٣ – ٣٦ .

(٢) م.س ص ٣٦ ، ٤٠

٣- جان جاك روسّو (١٧١٢- ١٧٧٨)

من أسرة فرنسية الأصل، بروتستانتية المذهب، في الثالثة والثلاثين، أخذ يتردد على حلقات الفلاسفة، وبخاصة "ديدرو" وفي عام (١٧٤٩) عرضت أكاديمية (ديجون) المسابقة في هذه المسألة: (هل ساعدت الفنون والعلوم على تصفية الأخلاق) فقدم للأكاديمية جوابه و نال الجائزة.

ذهب روسّو إلى وضع أسس مدنية للمجمع بدلاً من الأسس الدينية، التي كان يرّوج لها فلاسفة العصر الوسيط، وفي مقدمتهم القدّيس "توما الأكويني".

ووضع "روسّو" كتابه المهّم (العقد الاجتماعي) (١٧٦٢)، حيث يقور فيه أن الإنسان كان يحيا في براءة أولى أفسدها الاجتماع، ويمكن إصلاحها بالعقد الاجتماعي، إذ لا مفر من الاجتماع، ولا عودة إلى حال الطبيعة فيبقى إصلاح مفاسد الاجتماع وهذه هي قضية كتابه (العقد الاجتماعي) وبذلك يتنازل الفرد عن حقوقه، وأنانيته للمجتمع بأكمله، فيصبح الكل متساويين في ظل القانون . والقانون، هو إرادة الكل (أو الأغلبية في الأنظمة الديمقراطية). وتحدث "روسو" في التربية والتي ينبغي أن توجّه إلى الإنسان لتجعل منه مواطناً صالحاً، في كتابه (إميل) أو في التربية[1] إن "إميل" ليس من صنع إنسان وإنما هو من صنع الطبيعة، ولكن ليس معنى ذلك أن يصبح الإنسان متوحشاً وإنما معناه ألا يقيّد بأي سلطات إلا بسلطان العقل[2].

---

(١) د.واد وهبة، مصدر سابق . ص ٤٠ ، ٤٣، ٤٤.

(٢) م.س . ص ٤٣،٤٤.

٤- ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤)

صاحب الانسيكلوبيديا (دائرة المعارف) له مؤلفات فلسـفية ذات طابع لا ديني تقوم أفكاره على المادية، ويرفض البحث في الغيبيّات، ويأخذ بالعقلانية، والمنـهج العلمـي ينقـد الأفكـار التقليديـة فـي الانسكلوبيديا، ويبحث عن الحقيقة خارج نطاق الاعتقـاد والسياسـة السائدة.

وفي عام (١٧٦٩) ألف "ديدرو" كتاباً بعنوان (حلـم دالامبـير) وهو عبارة عن حوار بينه، وبين ((دالامبيرا))، يطالب فيه، أي في الكتاب ، برؤية جديدة إلى الأشياء... [١]

٥- دي لامتري (١٧٠٩-١٧٥١)

نشر أصول مذهبه في كتابه (التاريخ الطبيعي للنفس - ١٧٤٥)، وتوسع في شرح هذه الأصول في كتابه (الإنسان آلة ١٧٤٨). يُعتـبر مادّياً، جذرياً، يؤثر المادية على الروحية اسـتناداً إلـى الملاحظـة والتجربة. يعقد صلة بين الأخلاق والبحث عـن السـعادة،ويقصـد السعادة الدنيوية.

٦- هلفسيوس (١٧١٥-١٧٧١)

داعية من دعاة المادية، تأثر في شبابه بـ "لوك" حيث قال عنـه إنه أحدث ثورة في الأفكار، تولد عنها إنسان جديد ينشر الحقيقة.

---

[١] م.س.ص٤٧،٤٩.

يرى هلفسيوس أن الإنسان ليس طيباً بالفطرة، كما كان يرى "روسّو"ويقول: إن الأهواء كلها مثل الطموح، والكبرياء، والصداقة، والبخل، ليست إلا تنويعات للحساسية الفيزيقية (الطبيعية)، ومعنى ذلك أن الإنسان عادة ينشد اللذة، ويهرب من الألم.

كان "لوك" يضيف إلى التجربة الحسّية، التجربة الباطنة، بينما يرد"هلفسيوس" الذات برّمتها إلى البيئة الخارجية، يقول: "نحن من صنع الموضوعات المحيطة بنا، ليس إلاّ" ويقول "إنه فن تشكيل البشر وثيق الصلة بشكل الحكم إلى الحدّ الذي لا يمكن فيه إحداث تغيير في تربية الشعب من غير إحداث تغيير في دستور الدول"...[1]

٧- دولباكَ (١٧٢٢-١٧٨٩)

كيميائي فرنسي، وفيلسوف من أصل ألماني، أقام في باريس، وهاجم المسيحية في كتابين: (مذهب الطبيعة ١٧٧٠) و (الحسّ المشترك١٧٧٢) يرى أن الفكر وظيفة الدماغ، والشعور الديني مزيج من الخوف، والرغبة في تغيير ظروف مؤلمة، وهذا السبب الذي دفع الإنسان إلى الاعتقاد في المعجزات.[2]

٨-كوندورسيه (١٧٤٣-١٧٩٤)

أصبح واحداً من فلاسفة التنوير، وجاء في كتابه (صورة تاريخية عن العقل الإنساني) تعبيراً عن روح التنوير يوجزها في ثلاث كلمات: العقل، والتسامح، والإنسانية، وفي هذا الكتاب يقسم

---

[1] المصر المذكورص٥٤،٥٥،.

[2] المصدر السابق.ص٥٦

"كوندورسيه" التقدم التاريخي للبشرية إلي تسع مراحل مضيفاً إليـــها مرحلة عاشرة تصوّر آماله المستقبلية.

وثمة مسلّمات تستند اليها هذه القسمة يطرحها في مفتتح كتابـــه، حيث يصمم بأن الإنسان مزّود ، منذ ولادته بـــالقدرة علـــى تقبـــل الاحساسات، يدركها، ويميزّ بينها، ويؤلفها، ويقارن بينها، ويكشـــف عن السمة المشتركة، ثم يحيلها إلى رموز فيسهل معرفتها، وتكويـــن تأليفات جديدة، ويتولد عن الإحساس الألم، واللذة، كما يتولـــد عنـــد علاقة بين الإنسان، وأخيه الإنسان تستند إلى المنفعة والواجب وهكذا يتطور العقل الإنساني في الأفراد، وفي المجتمعات، وأن تطوره بـــلا حدود بيد أن تطوره لم يكن بلا عوائق، وكان النظام الإقطاعي هـــو أهم العوائق، ولكنه لم يدم طويلاً، إذ ثارت أوربا ضده، ولكـــن فـــي مقدمة هؤلاء الثائرين ثلاثة فلاسفة عظام : "بيكون" (١٥٦١-١٦٢٦) و"جاليليو-١٥٦٤-١٦٤٢) وديكارت ١٥٩٦-١٦٥٠.[١]

٩- الإيديولوجيون

كان "كوندورسيه" ينتمي إلى جماعة من الفلاسفة أطلقت علـــى نفسها "الإيديولوجيون" ويتقدم هؤلاء "دستودي تراسي ١٧٥٤-١٨٣٦" و "كابانيس١٧٥٧-١٨٠٨"، ويقال إن الإيديولوجييـــن هـــم النتيجـــة الحتمية لفيلسوف وعالم نفس اسمه: "كوندياك" ١٧١٥-١٧٨٠".

---

(١) انظر بالتفصيل أراء " كوندورسيه " حول هؤلاء الثلاثة في المصدر المذكـور صفحات:٥٨،٥٩،٦٠،٦١، وكذلك يعرض بعضاً من أفكار الثلاثة في المصـــدر المذكور.

ظل "دي تراسي مخلصا للمبادئ الفلسفية للقرن الثـــامن عشـــر على الرغم من أنه كان من ضحايا الثورة الفرنســـية (١٧٨٩)، فقــد دعا إلى حرية البحث الفلسفي وإلى حرية البحث الأخلاقي، فهو يرى في هذا الصدد بأنه ليس ثمة معان أخلاقية فطرية، بل ليس ثمة أصل فائق للطبيعية لهذه المعاني، فالأخلاق من صنعنا، ومن ثمرة خبراتنا.

أما " كابانيس " فهو يتفق مع " دي تراسي " في أن العلل الأولى فوق دائرة بحثنا وفوق متناول عقلنا. ثم إنه قــــد أصطنـــع المنـــهج المادي، فرد كل فعل من أفعال الإنسان إلى عضو فيـــــه فقـــال: "إن الدماغ يفرز الفكر ،كما تفرز الكبد الصفراء . . . ويقول : إن العـــالم الخارجي لا ينفرد بتشكيل أفكارنا، ورغباتنا. بل إن الذات المــــزودة بالغرائز، والميول هي التي تشكل رؤيتنا للعالم الخارجي مستندة إلـــى ذلك إلى عناصر الواقع التي تستهويها.."[1]

١٠- كانت (١٧٢٤-١٨٠٤)

فيلسوف ألماني كبير وقمة عصر التنوير بلا منازع، قـــرأ فـــي عهد الطلب مؤلفات العالم "نيوتن"فتأثر بها، وكتب كتابا في التـــاريخ العام للطبيعة ونظرية السماء لم يذكر اسمه على الكتاب.

فطن "كانت" إلى أن العلم قائم على الضرورة، وأن قيام العلـــم أمـــر واقع فيجب أن يكون مبدأ العلية، وهذا مبدأ قبلي في العقل، ويجـــــب بعد ذلك الفحص عن سائر المبادئ المطوية فـــــي العقـــل، وتعييـــن

---

[1] المصدر السابق ص٦٣،٦٥،

وظائفها في المعرفة العلمية وتلك هي الفلسفة النقدية والتي عرضـــها في مؤلفات ثلاثة وهي:

(١) نقد العقل المحض (الخالص) أو النظري (١٧٨١).
(٢) نقد العقل العملي (١٧٨٨).
(٣) نقد الحكم (القيم) (١٧٩٠).

ينتهي في الكتاب الأول إلى نظرية في المعرفة، وفـــي الثـــاني إلـــى نظرية في الأخلاق، وفي الثالث إلى نظرية في الحكم الجمالي.

يقول كانت "إن الأشياء تدور حول العقل لكي تصير موضـــوع إدراك وعلم ولا يدور هو حولها كما كان المعتقد من قبل. وهذه هـــي الثورة التي أحدثها "كانت" في عالم الفلسفة ، وقـــد شـــبهها مؤرخـــو الفلسفة بالثورة التي أحدثها العالم "كوبيرنيكوس"في الفلك.

نشر "كانت" مقالاً عام (١٧٨٤) بعنوان: جواب عن سؤال:ما التنوير؟
فأجاب : " التنوير هجرة الإنسان من اللارشد، والإنســـان علّـــة الهجرة، واللارشد هو عجز الإنسان عن الإفادة من عقله مـــن غـــير معونة من الآخرين كما أن اللارشد سببه الإنسان ذاته عندما لا تكون علّته مردودة إلى نقص في العلم، وإنما نقص في العزيمة والجـــرأة على إعمال العقل من غير معونة من الآخرين كن جريئاً في إعمـــال عقلك، هذا هو معيار التنوير.

إن الكسل والجبن هما السببان في بقاء معظم البشر فـــي حالـــة اللارشد طوال حياتهم، مع أن الطبيعة قد حررتهم من الاعتماد علـــى الآخرين.بل هما السببان في تسهيل الأمر للآخرين، إنه يطيب لنـــا أن يكون الكتاب بديلاً عن عقلي، والكاهن بديلاً عن وعيـــي، والطبيـــب

رشداً لما ينبغي تناوله من طعام. وليس ثمة مبرر للتفكير، إذا كان في مقدوري شراؤه، فالآخر كفيل بتوفير جهدي. إن الغالبية العظمى من البشر، ومن بينهم (الجنس اللطيف بأكمله) تدرك أن الطريق إلى الرشد، ليس فقط وعراً، بل محفوفاً بالمخاطر . . .

إن استنارة الأمة عملية بطيئة، إن الثورة قد تسقط طاغية، ولكنها لا تستطيع أن تغير من أسلوب التفكير، بل على الضد من ذلك فإن الثورة قد تؤكد سوء طوية تكمل الدهاء.

والخلاصة : إن التنوير ليس في حاجة إلا إلى الحرّية، وأفضل الحريات خلو من الضرر هي تلك التي تسمح بالاستخدام العام لعقل الإنسان في جميع القضايا .. وهي الحرية هي التي تنير البشر..[1]

السلفيوّن، أو نقّاد التنوير

هم الفلاسفة المعارضون لعصر التنوير والسمة المشتركة بينهم رفض السلطان المطلق للعقل، فالحقيقة عندهم كامنة في السلفية (العقيدة الدينية) التي نجد فيها الحقائق النهائية، والمطلقة، والغير قابلة للجدل.

لقد حاول السلفيون مقارنة الحجج التنويرية بحجج فلسفية مضادة لبيان تهافت العقل البشري الذي يريد أن يعمل مستقلاً. وفي مقدمة السلفيين: "لويس دي بونالد ١٧٥٤- ١٨٤٠" و "جوزيف دي مسنتر ١٧٥٣-١٨٢١".

---

[1] م.س.ص٦٧،٦٩.

و"دي بونالد" ناقم على التنوير، وعلى الثورة الفرنسية، وليدة هذه الفلسفة، هاجمها في كتاب له نشر عام (١٧٩٦) بعنـــوان (نظريـــة السلطة السياسية والدينية).

يقول دي بونالد إذا قال فلاسفة التنوير أن "الطبيعة" هي الأصـــل كان ردّنا أن (الله) هو الأصل، والطبيعة عندنا معلولة، وليست علّة.

أما المفكر الثاني"دي مستر" يرى أن القرن الثامن عشر عـــورة في تاريخ البشرية، وفلسفته منحلّة، إلحادية، ومن صنع الشيطان.. لقد انشغل فلاسفة هذا القرن بالأفكار المجردة دون الإهابـــة بالتجربـــة، واتخذوا من العقل السلطان المطلق في التمييز بين الصدق والكـــذب، في حين أن العقل لا يصيب في الحكم على جميع الأشـــياء، ولـــهذا فالخير كل الخير في التعويل على السلطة، يقول "أنا لا أقصد التحقير من شأن العقل، فأنا أكنّ له كل تقدير وتوقير على الرغم من أخطائه، ولكن حين يتعارض العقل مع الحسّ المشترك، أو الفهم العام، فإننـــا يجب أن نتجنّبه كما نتجنّب السّم.. إن مشاعر البشر هي بمثابة نســق من الحقائق الحَدْسية لا تقوى عليها سلطة العقل، أمـــا العلـــم، فـــي نظر"دي مستر" فهو مصدر التطرّف والخطر والهرطقة، ولكن ليـــس معنى ذلك إن العلم شر في ذاته، وإنما هو كذلك إذا لم يســـتند إلـــى العقيدة[1].

---

[1] المصدر السابق ص٧٠،٧٢.وسيواجه عصر التنوير نقداً فلسفياً، ودينياً عنيفـاً من قبل مدرسة (فرانكفورت) الفلسفية في النصف الأول من القرن العشـــرين . ودينياً جاء من قبل الأصوليين عبر مفهوم الحداثة التي اعتبروهـــا مـــن ثمـــار التنوير. انظر المصدر السابق ص٧٩،٨٠.

ومهما يكن من أمر، إن التهّجم على عصر التنويـــــر لا ينفـــي أهميته، وكونه رمزاً لتقدم العقل، والتقدم الإنساني عمومــــاً، وكونـــه ممهداً للثورة العلمية والتكنولوجية التي ستشهدها القرون التالية.

الفصل الثاني

إيقاعات التنوير في العالم العربي

قرأنا في الفصل السابق أن "العقـــل" كـــان الركـــيزة الأولــــى، والأخيرة التي استند إليها المتنورون في أوربا القرن الثامن عشر، مع تفاصيل ذكرناها في هذا الفصل بالإضافة إلى التركيز علــــى تنويـــر العقل، كانت (أي التفاصيل) قد عملت على نقل المجتمعات الأوربية من ظلمات التفكير في العصر الوسيط إلى عصر النهضة كالاهتمــــام بالدراسات الإنسانية (بعث التراثين اليوناني والروماني–وقرن العقــل في القرن السابع عشر[1] والتي شكلت الإرهاصات لقرننا التنويـــري الذي نتحدث عنه).

لم يكن القرن الثامن عشر العربي–الإسلامي كمثيله في الجـــزء الآخر من البحر المتوسط بل على عكس ذلـــك، بـــدأت إرهاصـــات التأخر الحضاري في العالمين العربي والإسلامي تحفر آثارها، فـــي باطن الحراك الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي في العـــالم العربي خاصة وهو محور اهتمامنا في هذا المجال. ولعـــل الســـؤال الجوهري الذي سنطرحه في هذا الفصل، وهو: لِمَ لم يـــأخذ عالمنـــا العربي في ذلك القرن، رغم اتصاله ربما المحدود، بأوربـــا بحركـــة

[1] لم يتصل العرب بالغرب إبّان عصرّي النهضة الأوربية، أعني القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، إذ كان هؤلاء في هذين القرنين خـــاضعين للهيمنـــة العثمانية، ولم يستطيعوا النفاذ إلى الأخذ بأسباب النهضة الأوربيـــة ولا متابعـــة نهضتهم لمرحلة القرون الهجرية الأربعة الأولى. ولم ينتفضوا ضـــد الحصـــار العثماني، ولا ضد ضعفهم آنذاك.

التنوير، أو لم يتأثر بها تأثراً إيجابيــاً باعتبــار أن أقطـــاب الفكــر التنويري، كانت أصواتهم أو أفكارهم تخرج خارج الحدود، والأسوار الأوروبية، وعلى اعتبار أن رياح التغيير في العوالم الأخرى غـــير العربية، وغير الأوربية، قد بدأت تساير رياح التغيير في الغرب فــي تلك المرحلة؟

الواقع التاريخي: القرون١٦ ،١٧، ١٨ (ومـا وصفــه بعــض المؤرخين بالانحطاط):

المحافظة وانقطاع عن حركة التقدم العربــي الإســلامي للحضـــارة العربية الإسلامية.

أولاً: المحافظة– عدم الاتصال بحركة التقدّم الأوربـــي وعصــر الأنوار خاصة.

يقول محمد اركون" في كتابه (الفكر العربي) في معــــرض تقديمـــه التاريخي للواقع العربي والإسلامي في مرحلة ما بعد سقوط بغداد في أيدي المغول (١٢٥٨)م ما يلي:

"جائز اعتبار أن المكان العقلي للفكر المدرسي (الكلاسيكي) قد تـــألف كله في القرن الثالث عشر، وأن سنة (١٢٥٨) تؤلـــف صـــورة ذات دلالة كبيرة من وجهة نظر التاريخ الإسلامي والاجتماعي، وبدون أن تمثل انقطاعاً مطلقاً.

ففي تلك السنة استولى المغول على بغداد، وقضوا علـــى وهـــم الخلافة العباسية وقد أدى واقع تمايز قد بدأ من زمـــن طويـــل إلـــى انفصال بين إسلام إيراني–وإسلام عربي: الإسلام الشيعي انتصر في

إيران، والإسلام العربي أقرَّ في مصر، وسورية أسرة حاكمة من العبيد المتحررين: المماليك (١٢٥٠-١٥١٧) وفي الغرب لجأ الإسلام الأندلسي إلى المملكة الناصرية في غرناطة (١٢٣٠-١٤٩٢) بينما كان المرينيون في مراكش (١١٩٦-١٤٦٥)، والحفصيون في إفريقيا (١٢٢٨-١٥٧٤)، قد حافظوا جهد المستطاع على إسلام مالكيّ متشدّد ومطرّد البعد عن الفكر المدرسي (الكلاسيكي)، وقد جاء الأتراك العثمانيون بين القرن السادس عشر، والقرن التاسع عشر من الناحية السياسية ليأخذوا بالإسلام العربي، في حوض البحر الأبيض المتوسط.

وقد اعتاد الباحثون وصم هذه الفترة بكلمة انحطاط. والواقع أنه ليس من المشروع أن نتحدث عن انحطاط إلا إذا حصرنا الاهتمام بالافتقار إلى كبار" النوابغ" و "المبدعين". وعدم ظهور الآثار" الأصيلة " في هذه المرحلة.

من جهتنا نتّبنى اصطلاح (انحطاط) في الشكل والمضمون التي أخذ بها بعض مؤرخي التاريخ العربي الإسلامي العام، والتاريخ الفكري، ولكننا سنعطي تأويلاً آخر مختلفاً لاصطلاح الانحطاط، ونعني به انحطاط نمط التفكير العقلي الفردي (عدم ظهور أقطاب فكر تنويري، أو انحطاط العقل الاجتماعي الذي لم يشكل مطلباً يدفع بعض النوابغ إلى الظهور، والمناداة بالتقدم الحضاري (الثقافي- العقلي- والاجتماعي والسياسي والاقتصادي) كما حصل في بقاع أخرى من العالم المعاصر لتلك المرحلة، رغم وجود كابوس الدولة العثمانية، وأخذها بالقناع الإسلامي، إن كبوة الحصان، الذي كان يجب أن ينهض من كبوته، ويأخذ بتجارب، وخبرات شعوب عملت في تلك الفترة على تحريك ذاتها. والتقدم، خروجاً من العصور الوسطى. (وسنرى لاحقاً أن كبوة الحصان العربي هذا والحصان قد

نهض من كبوته)، كان نهوضاً متأخراً بالقياس الزمني وبطيئاً، وكان لا يماثل تجارب، وخبرات التقدم العقلي، والحضاري لدى الشـــعوب الأخرى.

بعض تبريرات الثبات في الموقع،وعـــدم الانطـــلاق نحـــو التقدم:

١- المحافظة على القيم :

يقول "أركون"[1] أيضاً في محاولة تفهّم أو" فهم" ما حصل مـــن تأخر في القرن المقابل لقرن التنوير في الغرب بأنّ "نشاط الفكر فـــي الحفاظ على استمرار بعض أشكال الحياة الفكرية يقع على مســـتويات ثلاثة تقابل جماعات اجتماعية مختلفة:

(١)- ظلت أقلية من الكتّاب الذيـــن لا غنـــى عنـــهم فـــي الإدارة المركزية، ومن الأدباء الذين يحرصون على سلامة الدولة التـــي تتوقف عليها حياتهم الأدبية بأكثر من حرصهم علـــى الحقيقـــة، ظلوّا يعنون بالأدب، وقد وجدوا في موسوعات كبرى المعلومات الضرورية لممارسة مهمتهم، ولمطالب حياة البلاط، وكانت هـذه الموسوعات تجمع النصوص المختارة من المؤلفات المدرســـية الكبرى، وترتبها، وتصنّفها، وتبسّطها، وكانوا يستشهدون بـــهذه النصوص أو يعيدون استخدامها في شكل منتخبات (أوخلاصات، أو نصوص مختارة..) وتلكم كانت حالة كتب (النويري) توفـــي (١٣٣٢)، و "ابـــن فضـــل الله العمـــــري" (توفـــي ١٣٤٨)

---

[1] محمد أركون، الفكر العربي La Pensee arabe ، ترجمة الدكتور عادل العـوا سلسلة زدني علماً- منشورات عويدات، بيروت ١٩٨٢ . ص١٢١- ١٢٢.

و(القلقشندي) توفي (١٤١٨)، ونحن لا نجد فيها علم كـــلام ولا فلسفة (نشاط عقلي)، ولا حتى مذهباً أخلاقياً منهجياً إلى حدّ مـــا ولكن ثمة، كما هي حال منتخبات الفـــترة المدرسـية، نظامـاً ضمنياً، دقيقاً يوجه مسيرة الفكر في اختباره، ما يختـــار مثلمـــا يوجه شكل المقالات المختارة أو التي اعيدت كتابتها، وعلى هـذا النحو نستطيع أن نثّبت بفضل هذه الموسوعات مضمون نزعـــة إنسانية عربية-إسلامية- حضرية مثقفة بعد القرن الثالث عشـو، ولكن ما هو البون الذي تتجلى بـــه هـذه النزعـــة الإنســـانية، بالإضافة إلى النزعة الإنسانية لدى النخبات المماثلة في الفـــترة المدرسية (الكلاسيكية)، أتراها تشجّع الموقف العقلي كما حـــدث في القرن الثالث والرابع الهجريين، أم أنها تلتقي بتقديم منظومـة أمنيات بسيطة للمجتمعات المفصولة عن التيـــارات الخارجيـــة، والمنطوية على ذاتها إلى حد كبير أو صغير[1].

إن السؤال في الأسطر الأخيرة من الفقرة، مشروع، ونضيـــف عليه، سؤالاً آخر، وفحواه: لماذا استمرت الأشكال الفكرية المحافظة، والتقليدية في هذه الفترة والتي ستليها على حالها، ولـــم تتطـــوّر، أو تبحث عن وسائل تستند إليها لتقوم بعملية تطوير هذا النشاط الفكري؟ ألم يكن في العالم المحيط ما يفيد تلك المرحلة التاريخيـــة، ويجعلـــها "تعيد النظر" في نمط الحياة، والفكر؟

(٢)- النقطة الثانية من النشاط الفكري لهذه المرحلة التاريخية فـــهو "مستوى العلماء المدرسّون" الذي يمكـــن أن يمارســوا وظيفـــة رسمية، ولا سيما وظيفة القاضي وهذا الخط يتميز بأدب كتابـــة الكتب التعليمية، والشروح (شروح موجهة للطـــلاب وهـــؤلاء

---

[1] المصدر السابق ص١٢٢-١٢٣، (أنظر حاشية ص ٢٤ ، (الفصل الثاني)

الطلاب يزداد عددهم نسبياً نظــــراً لكــثرة مؤسســـات التعليــم (المدرسة–الخانقاه في مصر، الزاوية في المغرب لتيسير انتشار المذهب السنّي....[1]

لقد استمرت على هذا النحو ثقافة مدرسية (كلاسيكية، تقليديــــة) في الجوامع والحلقات والزوايا من طراز (الأزهـــر) و(الزيتونيــة) و(القيراون)، وكل ما تحتوي هذه الثقافة من وثوقية (دوغمائيـــة) لا تمت إلي العقل أو النشاط العقلي المستقل بصلة،...

((لقد بقيت بعض المقدمات الفلسفية المتصلة بالمنطق، وبالطبيعة وبالانتولوجيا (وهذه عادة أدخلها الجوينـــي للــرد علـــى الفلاســفة، والمعتزلة، وقد استمرت الآن بنتيجة التقليد)، كمـــا بقيــت الحلــول الأشعرية في الالهيات بقاء للأفكار التقليديــــة))، [2] ومـــن الممكــن التحقق من ذلك في مؤلفات(الايجي توفي عام ١٣٥٥) (والتفتـــازاني المتوفي ١٣٩٠) و (السنوسي المتوفـــي ١٤٩٠)، إذا عمــد هــؤلاء وغيرهم على القيام بملخصّات شديدة التكثيف تستخدم شروطاً كثيرة، وقد استمرت هذه الطرائق المعرفية والتعليمية حتى النصف الأول من القرن العشرين.

(٣)– أما الطريق التالية في مواجهة النهضة الأوربية فهي الطـــرق الصوفية، التي "تحتوي الجماهير الشــعبية، وتوجـــه أفكارهـــا، ومسائلها في العمل والعبادة" فالرئيس المؤســـس لكـــل طريقـــة يفرض ذاته بمعرفته الدينية، وبحسه السياسي ولكن أكـــثر مـــا يفرض ذاته بالمواهب الروحية. التي تعترف لـــــه بـــها بيســـر

---

[1] م.س.ص١٢٤–١٢٥

[2] المصدر السابق.ص ١٢٤

الجماهير الساذجة المحرومة والخاضعة لتقلبات الطقس، والأوبئة، والحرب...

لقد كثرت أسر المرابطين الجماعات الصوفية-الذين منحوا تقديساً إسلاميا للاعتقادات، والمؤسسات، والعادات التعبدّية، والثقافة الشديدة التنوع، وهذا الرئيس الموهوب روحياً يغذي أمل الجميع، إذ يتقدم لهم على أنه الشفيع المقرّب بين الله ورسوله، أو على أنه وسيط مسموع الكلمة لدى الأحزاب المختصمين... وبالمقابل أدى دعم الوثبات الانفصالية بالشعائر والحفلات ولقد أدى ممارسة اللامعقول والمتخَيل ، والإنجذاب العاطفي لكل ماهو في عالم الغيب ، كل ذلك أدى إلى مقاومة لا تقهر تقف ضد تدخلّ العقل الوضعي، ولما ينقطع تأثير النتائج الضارة لهذه الظاهرة الرئيسة في العالم العربي الإسلامي المعاصر[1]) ومن بين الطرق الكثيرة، نذكر، كما يقول "أركون" طريقة (القادرية) المنسوبة إلى (عبد القادر الجيلاني المتوفى ١١٦٦) و(الشاذلية) التي أسسها (أبو الحسن الشاذلي) توفي (١٢٥٨) و (البدوية) التي أسسها (أحمد البدوي- توفي ١٢٧٦) و(العيسوية) التي أسسها (محمد بن عيسى الفهري المتوفى ١٥٢٤) و(السنوسية) وقد أسسها محمد السنوسي- المتوفى ١٥٥٩)[2].

(٤)- أخيراً يمكن ذكر بعض الأسماء اللامعة على صعيد الثقافة الإسلامية في تلك المرحلة من قبيل : (ابن خلدون - المتوفي ١٤٠٦) الذي تحدث عن فلسفة التاريخ، وعلم العمران البشري، حيث يستخدم في (مقدمته) مصادرات ابستمولوجية لإسلام سني بمذهب مالكي بالدرجة الأولى-، وكان صاحب مشروع فكري

---

[1] المصدر السابق ص١٢٦.

[2] المصدر المذكور ص١٢٧.

أعيد إليه الاعتبار في العالم العربي حديثاً ، ثم (ابن تيمية المتوفي ١٣٢٨) وهو مفكر حنبلي يمثل الإسلام السنّي المتزّمت[1] ، ومناضل، في سبيل الإسلام يعيش في مجتمع يتهدده الفناء.

ثانياً — الانقطاع:

أ- عن التقدم الحضاري العربي الذي تمثل في القرون الهجرية الأربعة الأولى، وعدم الاستمرارية في التقدم العربي الإسلامي.
ب- الانقطاع عن العالم المحيط، المعاصر لتلك المرحلة -الأنوار الأوروبية- وعدم الأخذ بأسباب التنوير في دقتها.

أ- لقد "حصل انقطاع من القرن الثالث عشر حتى القرن التاسع عشر، حول الماضي العربي الإسلامي الذي كان متقدماً حضارياً، وحصل كذلك انقطاع بالنسبة للعالم المحيط ... وتفصيل ذلك ما يلي: (أركون):

١-الانقطاع السياسي : بسقوط الخلافة، ظهر عجز الحكام (في خلق تغيير اجتماعي)، وأخذ هؤلاء يصطنعون لأنفسهم ألقاباً شريفة، ويزعمون الاتصال بالنبي وآلي النبي، ويصطنعون كذلك انتماءهم إلى (أهل البيت) تارة أخرى كل ذلك لتبرير وجودهم من الناحية الدينية.

---

[1] م.س. ص١٢٨.

٢-الانقطاع الاجتماعي: "إن انفصال الإسلام الإيراني عن الإسلام العربي خلق تصدّعاً في قلب العالم الإسلامي، وقاد إلى تبدّل في الجوّ الاجتماعي في حياة المدن، ولم تخل ضروب التوتّر بين الشيعة، والسنة في بغداد، والإمكانات المفتوحة، أمام الأقليات بأن تعرب عن نفسها في أطر الثقافة العربية ولم تتجدد النخب الفكرية، بعد وفاة (ابن تيمية، أو ابن خلدون)"[١].

٣-الانقطاع الاقتصادي: "إنه بلا ريب الشكل الحاسم بالدرجة الأولى لتقلص آفاق الفكر العربي. ولا بد هنا من الإشارة إلى المصير العام لعالم البحر الأبيض المتوسط انطلاقاً من الحروب الصليبية فقد ران تأخر عظيم يؤكد انحطاط المجتمعات الإسلامية، وبالمقابل حصل ازدهار في التجارة والاقتصاد الأوروبيين..."[٢]

٤- الانقطاع اللغوي : يرتبط هذا الانقطاع بالانقطاعات السابقة، وقد أخذ الفرس، بعد أن نهضوا بدور من الطراز الأول في إنضاج الفكر العربي الإسلامي الكلاسيكي (القرون الهجرية الأولى) أخذوا يعزفون شيئاً، فشيئاً عن الكتابة باللغة العربية، وعمد المغول، والأتراك إلى نشر لغات آسيوية ووضع يهودي متنصر هو: (بارهيروس توفي ١٢٨٦) مؤلفاً غزيراً باللغة السريانية...وعادت اللهجات العربية، وغير العربية إلى الازدهار في كل مكان بقدر تراجع الثقافة العلمية..؟؟[٣]

---

[١] محمد أركون الفكر العربي، م.م. ص١٣٠-١٣١.

[٢] المصدر المذكور . ص١٣١ .

[٣] م.س ص١٣١- ١٣٢ .

(٥)- الانقطاع النفسي : لقد حلّ العجيب، والوهمي (وأمور) ما فوق الطبيعة (الغيبة) والهيجانات المتقدة، فردية، وجمعية، والقلق، وانتظار المهدي. والرؤى الأخروية.. وحلّت محل النزعة العقلية الانتقادية ومحل المسعى التجريبي، والفضول العلمي، والجرأة الفلسفية، وإرادة التأثير في المصير (انظر أعمال التوحيدي)(وكذلك أعمال العقليين الذي استقلوا إلى حدّ ما عن النص الديني..)[١] مما كان يميز الحياة الفكرية العربية الإسلامية.

وظهرت كذلك مجتمعات تأخذ بالعصبية، واللهجات العامة .. الخ وفي هذه الشروط، يتضح أن الفلسفة، وبوجه أعم، جميع المقالات المخالفة، أصبحت غير ذات اعتبار في المدنية العربية - الإسلامية)[٢].

في حديث (محمد أركون) حول موضوع الانقطاعات بالنسبة للعالم المحيط يقول: " إن الطريقة السلبية في تاريخ الفكر تقوم على التساؤل عن ما لم يتناوله الفكر في نطاق فكر ما".

إذا اعترفنا بأن طريقتنا في التساؤل عن عدم الأخذ بأسباب التنوير الغربي في تلك المرحلة، أنها طريقة سلبية، ولكنها مشروعة، ونحن نسأل، وربما نطرح مساءلة التي تخفي في باطنها، بعض الاستهجان والاستغراب، عن تقاعس أهل تلك المرحلة إزاء ما كان يجري في العالم المحيط من حركية ثقافية- واجتماعية (وحضارية) وتخفي مساءلتنا كذلك عدم فهم ما جرى في مرحلتنا العربية- الإسلامية تاريخياً حيث أنه لم يحصل أن هبّت مجموعات من

---

[١] إضافة من عندنا .

[٢] م.س. ص١٣٣ .

المثقفين والمفكرين، أو النخب لتحمل لـــواء التغيـــير الاجتمـــاعي- والثقافي، وبناء على الأخذ بجوهر عصر التنويـــر أقصـــد: النشـــاط العقلي الحر، والمبتعد عن: مســـلمات الوحـــي مثـــلاً . إن الخيـــال التاريخي يبيح لنا أن نسأل أو نطرح مسألة لا تخفي نوعاً من الإدانـــة لهذه المرحلة التاريخية، أو تلك ، خاصة إذا نتـــج عـــن أهـــل هـــذه المرحلة، أو تلك نتيجة اعتقاد عام أو "قرار"[1] عام له مضاعفاته التي لا تحصى، وخاصة إذا كانت النتائج سلبية تعود على مـــن ســـيأتي بأسوأ النتائج وأخطرها، من حيث التخلف، والتراجع والهزائم، وهـــذا لا يبعد – طبعاً – من سيأتي فيما بعد عن مســـؤوليته الذاتيـــة، فـــي "الانتشال" من وهدة التراجع، أو التخلف أو التأخر الحضاري.

ب- عدم الاتصال بعالم النهضة والأنوار الأوروبية :

لقد نسي الذكاء العربي- الإسلامي فتوحاته الفكريـــة الخاصـــة، والمستوى الذي بلغه من التقدم الحضاري، وإضافة لهذا، فـــهو لـــم يتناول ما قد "تراكم من جراء التقدم الموصول للفكر الغربي، ولقـــد كانت الفتوحات الفكرية العربية -الإسلامية لو تم الأخذ بها من قبـــل أهل هذه القرون المتراجعة- كانت تتيح الوصول إلى معرفة الحوادث الفكرية المرتبطة بحركات الإصلاح والانبعاث، وفلســـفة الأنـــوار، ولكن المقال العربي لم يعد يعرف أن ينمى سوى نتفة أفكار تتصـــل

---

[1] القرار الجمعي، أو الشعبي هو القناعة العامة، وما ينتج عنها من حكم عـــام كالقول بأن الفرنجة "كفار" وما نتج عن هذا الاعتقاد العام (انظر الصفحة التاليـة: عدم التمييز بين الغرب الثقافي، والغرب السياسي، وحصول القطيعة مع العـــالم المحيط) .

بتأسيسه الذاتي واستراتيجيته، رفض كل مالا يندمج في جملة - اجتماعية- ثقافية- حكم بأنها مثالية، ولا يمكن التنازل عنها.

لقد بعد بنا المطاف عن الاستقبال المتحمس الذي كان قد لقيه التراث الإغريقي في القرون الهجرية الأولى- وكيف استفاد مسلمو تلك المرحلة من فكر وعلوم الأوائل، - أما إزاء النهضة والأنوار ف"الفرنجة" قد ظهروا ظهور منافسين، وأعداء، ولم يظهروا ظهور ذوي نزعة إنسانية، ولذا سنجدهم مرفوضين بوصفهم "كفار" وغرباء عن حقيقة الإسلام السامية، ولا بدّ من القول أيضاً أن الدولة العثمانية وقفت حائلاً بين المجتمعات العربية، والأمم الأوروبية فهي إذ أنها مارست منذ القرن السادس عشر السيادة الداخلية والخارجية باسم الإسلام. وليس من اليسير تقدير النتائج الفكرية الناجمة عن هذا المعطى على العالم العربي.. ومهما يكن من أمر، فقد انقلبت الأوضاع بين العالم العربي والغرب على التدريج، وبعد أن كان العالم العربي رائد الثقافة والحضارة أصبح (شرقاً) غامضاً ومنحطاً وفريسة القوى السحرية، واللاعقلية و(الرجل المريض) الذي سيتعجل الغرب موته بهذه المناسبة ليستولي على مواقع استراتيجية ذات أهمية قصوى[1].

إن أقطاب الفكر التنويري لم يظهروا كفرنجة يسعون إلى مواقع استراتيجية ولم يظهروا كأعداء للشعوب وأديانهم، وكما رأينا في الصفحات السابقة لقد ظهر هؤلاء كروّاد أرادوا بعث عصر جديد أوروبي يقوده الفكر العلمي، والعقل الناقد ويبتعد عن العصور الوسطى، ورأينا كيف ورث هذا القرن، القرن السابع عشر -عصر الفلاسفة- أو عصر العقل، وكيف أكد هذا القرن التنويري على أهمية

---

[1] م.س . س ١٣٤- ١٣٥ .

العقل في عملية التقدم الإنساني ولكن ما حصل، في وعي الجماهير- العربية المسلمة، هو التصميم والحكم المطلق على الفرنجة باعتبارهم كفار، وهو تقييم ديني- ومُسبق، إذ يــرى المســلمون الأمــم غــير الإسلامية كافرة- (دار حرب) هذه، نقطة، والنقطة الثانية، هي عــدم التمييز في أذهان الشعوب ووعيها بين: الغرب السياســي والغــرب الثقافي، وهذه مشكلة سنرثها من هذه العصور، تباعاً وحتــى يومنــا هذا، أي الخلط بين التقدم الفكري - أو الغرب الثقافي الذي كنــا، ولا نزال نحتاج الأخذ بكثير من جوانبه من أجل تقدمنا العلمي والفكــوي، وبين الغرب السياسي الذي تقوده مجموعات، وأحزاب، وقطاعــات سياسية ليس لها من الغرب الثقافي شيء، ولا يحكــم عقلــها غربــاً ثقافياً، بقدر ما يحكم نظامها الفكري السياسي- المصالح الاقتصاديــة، والسياسية.

ظهرت في القرن الخامس عشر القوة العثمانية علــى الســاحة الدولية، وأحاطت بقواها العسكرية حوض البحر الأبيض المتوســط، بالإضافة إلى بعض الأصقاع الأوروبية كدول البلقان، والعثمــانيون ينحدرون من الأتراك، وهؤلاء بدورهم يرتدون إلى قبيلــة "أوغــوز Oghouz" التي وطنها السلجوقيون على أطراف بيزنطــة الرومانيــة وذلك حوالي (١٢٩٠- ١٣٢٠) ، ثم أخذت هذه القبيلة تمتد بتأثيرهــا في عهد "مراد الأول" الذي بدأ يغزو أوروبا تحت شــعار الجــهاد، ويصل إلى بعض دول البلقان، ثم استمرت غزوات العثمــانيين فــي عهد "مراد الثاني" و"محمد الثاني" الذي استولى على "القسطنطينة" قبل أن تصبح "اسطنبول" وامتدت القــوى العســكرية العثمانيــة لتغــزو (فارس) في عــــهد "ســليم الأول" (١٥١٢- ١٥٢٠) ثــم اقــتربت الإمبراطورية الناشئة والقوية لتشمل "الرافدين وســورية، ومصــر، (١٥١٧) - وقد تلقت الإمبراطورية تأييداً من شــريف مكــة علــى اعتبار أنها قدمت حاملة لواء الإسلام السنّي ، والحامية له ضد الكفار

من أيّة جهة يظهرون وقد تولّى الإمبراطور أو السلطان العثماني الخلافة التركية أو العثمانية الإسلامية باسم "سليمان القانوني" ، وفي تلك المرحلة الزمنية خضع العالم العربي لهيمنة الخلافة العثمانية وتوالى السلاطين واحداً بعد الآخر وذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.(١)

كانت الإمبراطورية العثمانية في جوهرها "إمبراطورية عسكرية، أو أنها في بنيتها الكاملة ظهرت كقوة عسكرية، سيطرت على عوالم الدنيا القديمة والسلطان العثماني، هو الأب الروحي، وأمير المؤمنين، والسلطان أو الحاكم المدني، والعسكري، وله سلطة ما يسمى بالباب العالي، وله السلطة المطلقة، وهو الآمر، والناهي في ربوع الإمبراطورية المترامية الأطراف، والتي شملت (بعض الأصقاع الأوربية البلقانية، وآسيا الصغرى -سورية- العراق، مصر وشمال أفريقيا- أي حوالي ٨ مليون كم٢) ، وكان السلاطين يعيشون في رغد من العيش، ووسط مختلف كمالياته في ذلك العصر، يملكون ما يشاؤون من القصور، والإماء، والعبيد، والخدم.

وكانت الإدارة في الإمبراطورية ذات طابع عسكري، حيث بلغت التنظيمات الإدارية مداها الأقصى في القرن السادس عشر.

إذن كانت الإمبراطورية العثمانية "دولة عسكرية" ولكنها كانت تعاني من اقتصاد ضعيف، إذ أن ريعها يعتمد الدرجة الأولى على الزراعة، وحتى أن مستوى الحياة الزراعية كان ضعيفاً، غير مكوّن من الوسائل والتقنيات الحديثة.(٢)

---

(١) J.Burlot , la Civilisation Islamique
Hachette. 1482- Paris. P 183- 184 .

(٢) Ibid, P188 .

لقد ظهرت بوادر حياة حضارية في تلك الإمبراطورية في عهد "سليمان" ، حيث برزت حياة أدبية- وكذلك ظهر الاهتمام ببناء المساجد الإسلامية وتحويل الكنائس، والكاتدرئيات المسيحية إلى مساجد، وخاصة في ""اسطنبول" العاصمة. أو ما يسمى بالآستانة حيث تركيز فيها السلطان رمز (الباب العالي).

لم تسجل هذه المرحلة العثمانية المديدة نهضة فكرية خصبة، أو نهضة علمية رائدة، بحيث استطاع العالم العربي الاستفادة منها، أو المساهمة فيها ولكن بالمقابل، شهد العالم العربي في تلك المرحلة - شيئاً من "الحداثة" المادية، وذلك منذ دخول الجيوش التركية. وتأسيس الإمبراطورية العثمانية فلقد شهد العالم العربي عبر دخول الجيوش العثمانية الأسلحة العسكرية المتطورة، وكذلك اضطرت السلطات العثمانية المتتابعة الشروع ببناء بعض مرافق الحياة، أو ما يسمى بالبنَى التحتية، أي تعبيد الطرق، ومد الطرق الحديدية، وبناء الجسور، والسدود لحفظ المياه وإقامة الثكنات العسكرية، ومما يجدر ذكره في هذه النقطة أن السلطات العثمانية المتتابعة أخذت تقيم بعض مرافق الحياة، والبنى التحتية تحت تأثير، أو حركية التطوّر الأوروبي، في تلك المرحلة.

كذلك شهد العالم العربي سكة قطار الشرق السريع، وبدايات نشر التعليم من إنشاء المدارس، والجامعات، وخاصة في الآستانة العاصمة حيث خرج من هذه المدارس، والجامعات الأفواج الأولى من المتعلمين في العلوم العصرية، كالطب، والمحاماة، والمهندسين، والكتبة، والقضاة والأئمة.

هذا التطور المادي "الذي حصل في العالم العربي إبّان الحكم العثماني لم يساعد العالم العربي على النهوض "الفكري" بل بالعكس؟ فلقد عملت الحكومات العثمانية على سد الطرق أمام العرب للتواصل مع تراثهم الفكري، وسد السبل أمام حركة التقدم الأوروبي، وبداية النهضة الأوروبية التي أخذت بوادرها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وهي المرحلة الأولى لبدايات السيطرة العثمانية على العالم العربي وهذه الأسباب الموضوعية.

أما الأسباب الذاتية الخاصة بالعرب أنفسهم، فهم بدورهم لم يعملوا على"فك الحصار" المفروض عليهم، وقصارى ما تفتقت عبقريتهم، ومواهبهم آنذاك أن عكفوا على حلقات الصوفية، وجماعاتها، وزواياها، وانصرفوا عن الحياة الدنيا، بعيدين على النشاط السياسي، والفكري والاجتماعي، والاقتصادي والثقافي.

ومن ناحية الحياة الروحية، فقد غضت السلطات العثمانية المتتابعة الطرْف عن وجود الحركات الصوفية، وانتشارها في الأحياء، والقرى، والمدن، وقد ظهرت بوادر حركات شعرية تعبر عن وجدان الشعراء ولكن الشعر في أغلبه كان يعير عن وجدان سطحي، ووصف لحالات نفسية بسيطة، أو وصف لحياة الناس العامة، وصفاً لا يخلو من تفاهة، وسطحية ، وكان الشعراء يعزفون عن الأمور الجوهرية.

كذلك تفتقت مواهب عرب تلك المرحلة، بدلاً من "فك الحصار العثماني" إزاء تطور الأفكار في العالم المعاصر لتلك المرحلة، عن

ولادة "الحركة الوهابية"[1] في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وهي حركة إسلامية متزمتة تميل إلى التشدد في تطبيق الشريعة الإسلامية، حرفياً، وقد أصبحت هذه الحركة (الأم) بالنسبة لجميع الحركات والأحزاب الإسلامية الأصولية، والمتطرفة والمعتدلة التي ظهرت في العالم العربي فيما بعد، وحاصل القول:

لم يتولد في تلك المرحلة وعن عربها حركات تقدم عقلي- اجتماعي، أو نهضة عقلية شاملة ولم يكن مطلب التقدم الحضاري، أسوة بالتقدم الحضاري العربي الإسلامي الكلاسيكي أو أسوة بالتقدم الحضاري الأوروبي مطلباً اجتماعياً، ولا وطنياً ولا قومياً، سيما إذا أدركنا أن مفهوم الوطنية والقومية والتقدم الاجتماعي هي مفاهيم حديثة، تخرج عن دائرة الفهم الإسلامي المحض. في تلك الحقبة الزمنية.

---

[1] أسس هذه الحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٥- ١٧٩٢) المولود في العيينة (نجد) ، وكان لهذه الحركة منذ نشوئها أهداف دينية (إصلاح) وأهداف سياسية. تعود في أفكارها إلى الإمام أحمد ابن حنبل (القرن الثالث الهجري) والشيخ "ابن تيمية" (القرن الثامن الهجري).

الفصل الثالث

الحداثة في العالم العربي

١- الحداثة في الغرب.
٢- العالم العربي: حياة حديثة، وفكر قديم.
٣- عرب القرن التاسع عشر، والعشرين.
٤- النهضة - الإقبال النهم على الحداثة في شكلها المادي أو (الهيكلي).

١- **الحداثة** : سجل العقل أولى انتصاراته في المجتمعات الغربية، منذ بداية عصر النهضة، وقد شكل العقل الأرضية، أو الإطار العام، أو الناظم لحركة المجتمعات، وكذلك كوّن هذا العقل نمط التفكير العلمي والسلوك الإنساني القائم على الحرية في الاعتقاد، والإيمان، واختبار سُبُل الحياة، وكان العقل هو الأداة التي عملت على تطوير مختلف أنواع العلوم، ونتاجاتها التكنولوجية، وقد أقام العقل دولة الحق، والقانون للأفراد والمجتمعات.

أصبح العقل أداة نقد صارم لبنية المجتمعات العقائدية، والفكرية، وأداة نقد للسلطة السياسية، والتقاليد الاجتماعية، وحتى مسائل الأفراد، وبنية الأسرة، والخلاصة قاد العقل الثورات في مختلف المجتمعات الغربية.

بهذا الشكل تأسست الحداثة، ويمكن القول بأن العقل الذي قاد الثورات الاجتماعية، وانتهى إلى إقامة بنية التفكير العلمي والفلسفي

والأدبي، فهو لم ينف وجود القديم، ولم يلغ تراث الشعوب الغربيـــة، بل لقد تعايش القديم والحديث، دون أن يهيمن طرف علـــى طـرف آخر، ودون أن يؤدي هذا الوضع إلى الهيمنة، والتطـرّف، ذلـك أن العقل في آليته الأساسية، عمل على التركيز على حقوق الإنسان فـي القول، والعمل، والنظر، والاعتقاد. لا بد وأن يقبـل التجـاور مـع الآخر، المختلف صاحب التراث أو الفكر التقليدي لقد أراد العقل فـي المجتمعات الغربية التي أقبلت على الحداثة أن تكـون لـه السـلطة العادلة.

ولقد قامت الحداثة منذ البداية على إزاحة، بل وتدمـير النظـام الفكري القديم، لقد هدمت الجسور مـع العقليـة التقليديـة القديمـة، فالحداثة تعني، القطيعة مع أنظمة المعرفة القديمة، وخاصة في أطرها الدوغمائية دون إلغائها وقد سجلت الحداثة انتصارها، والتي ما زالـت تسجل هذا الانتصار عبر تطوّر الحداثة إلى ما بعدها[١].

تجسد معنى الحداثة في اتجاهين مترابطين: الاتجاه العقلانـي، والاتجاه العلماني أي عقلنه الحضارة، وعلمنة المجتمع، وتعني بشكل أعمق، أن التجربة الغربية في مرحلتها الأولى تقوم علـى موقفيـن: الموقف اتجاه الماضي، ومحاولة استرجاعه بالعودة إلـى النمـوذج الإغريقي- الروماني، والموقف اتجاه المستقبل، والقائم على العلـوم، والتخطيط، والتنبؤ.

فالحداثة مشروع إنساني[٢] ، ومعنى ذلك استبعاد كل التصورات الماورائية (الغيبية) في مسيرة العقل الفردي أو العقـل الاجتمـاعي، وعدم ربط الإنسان بغائية- سوى تقدمه اللانهائي.

---

[١] Alain Touraine , Critique dela Modernite, Coll. Livvre depoche. Fayard-Paris- 1992. (introduction).

[٢] أي أنها ليست مشروعاً دينياً

الحداثة إذن موقف عقلي إزاء الوجود، والحياة، ولكن العقل ليس غاية بحد ذاته كما فهم الكثيرون، إنما هو أداة لتقدم الإنسان.

إنها وضع وجودي مختلف في الفكر والممارسة عن جميع أنماط التفكير الموروث أو التقليدي أو القديم، وخاصة الموروث عن أنماط تفكير العصور الوسطى الأوروبية.

يرى أحد المؤلفين المعاصرين أن تطور الحداثة يرتبط بتطور النظام الرأسمالي ((إذ أن المجتمع الرأسمالي مجتمع يؤمن بالتعددية من الناحية الفكرية، والعقائدية على عكس مجتمعات العصور الوسطى ذات الطابع الأحادي فكرياً ووجودياً ويؤمن مجتمع الحداثة بتلاقح التيارات، وحواراتها، وصراعاتها، كما أنه ينزع هالة الأسطورة عن الأشياء، ويبلور التفسير العلمي، لاالغيبي للظواهر الطبيعية، وكل هذه الأمور قد ظهرت في الغرب منذ عصر النهضة، ويرى مفكرنا أن التعددية بالمعنى الحديث للكلمة لم يحصل إلا في أوربا بعد عصر التنوير.

الحداثة، طبقاً لما يراه هذا المؤلف هي ضد التقليد، وقد تزامن ظهورها مع ظهور الرأسمالية و(التطور الصناعي))، وكانت الرأسمالية تعني ازدياد العقلانية[1] وانتشار الروح العلمية، والفلسفية مقابل نمو الأصولية في العصور الوسطى الأوربية.

لقد ربط "ماكس فيبر" بين عقلنة شتى مجالات المجتمع، وبين الحداثة، وحتى العلاقات الاجتماعية فقد أصابها التحديث.

---

[1] يمكن للرأسمالية ،التي يتولد عنها الامبريالية والاستعمار ،أن تشجّع الأصوليات الدينية اللاعقلية إذا كان ذلك يلبي مصالحها المباشرة وتؤدلج الفكر العلمي.

إذن فإن الحداثة أصبحت شاملة لكل جوانب المجتمـــع، بحيــث شملت الفكر، والاقتصـــاد، ونظـــام التعليــم والتربيـــة والعلاقــات الاجتماعية، والنظام السياسي، وطريقة فهم الدين[1].

لقد ارتبطت الحداثة كذلك بالديمقراطية، والحرية، باعتبـــار أن الديمقراطية هي مشروع عقلاني - أساساً.

٢- كيف واجه العرب الحداثة؟

حياة حديثة وفكر قديم = القرن التاسع عشر والقرن العشرين
قلنا في الصفحات السابقة أن النهضة الأوربية قــامت علـــى إحيــاء التراث الإغريقي - الروماني في جانبه الإنساني، وأن الأنـــوار قــد ركزّت اهتماماتها على العقل، وكذلك الحداثة، فقد كانت، ولا تـــزال مشروعاً عقلانياً، بحيث شمل جميـــع مجـــالات الفكـــر، والحيـــاة، والمجتمع،.. والسؤال الذي يُطرح في صدد حديثنـــا عـــن التنويـــر، والحداثة في العالم العربي، واتصالـــه بـــالغرب، الحـــامل للتنويـــر، والحداثة هو هل كان اتصالاً على المستوى العقلي، وتطوير المشروع العقلاني في العالم العربي، سواء على صعيـــد النخـــب الفكريـــة أو السياسية أو الإجتماعية أم أن الإتصال قد اقتصر على "نقل" النواتـــج المادية المباشرة لتقدم العقـــل الغربـــي دون التركـــيز أو الإهتمـــام

---

[1] الرأسمالية والحداثة، جاك غودي عرض وتقديم صحيفة البيان (دبي)

٢٠٠٤/٥/٣١ CAPITALISM AND MODERNITY JACK GOODY انظر

كذلك، هشام شرابي، معنى الحداثة في (الإسلام والحداثة) - ندوة - دار الساقي لندن- ١٩٩٠ ص٣٦٧، ٣٦٩.

بالمرجعية العقلانية، العالمية لتناولها على أنها الإطار العام لتطويـــر المجتمعات العربية ؟

لنبدأ هذه الأوراق بتسجيل وقائع التاريخ، في القرنيـــن التاســـع عشر والعشرين، ومدى تأثيرها فـــي حيـــاة المجتمعـــات العربيـــة، لخلق"مجتمع عقلاني" بالإضافة للمرجعية الغربية العقلانية. وبعبـــارة أخرى سنتساءل فيما إذا دفعت الأحداث التاريخيـــة فـــي السياســـية والاجتماع الحاصلة في العالم العربي، بالإضافة للمرجعية العقلانيـــة (الأنوار، والحداثة)، نحو تحقيق المشـــروع العقلانـــي للمجتمعـــات العربية.

قد يعيق تفكيرنا هنا، القول بأن المجتمعات العربية لـــم تتطـــوّر اقتصادياً (رأسمالياً-وصناعياً...) لدرجة تطويـــر عقلانيـــة موازيـــة لتطور العامل الاقتصادي، ولكن يمكن أن يكون ردّنـــا علـــى هـــذا التساؤل بالقول أن العقلانية كنمط فكر، وحياة وسلوك كان يمكـــن أن يتطور بالموازاة مع الحياة الحديثة التي صنعها العرب. وهم غـــافلون عن أسسها الفكرية، أي أنه لم يكن بالضرورة تكوّن مجتمع رأســـمالي كي يتكون مجتمع عقلاني، بل كان من الممكن أن يتساوق نقلنا للواقع المادي- للواقع المادي- والتقدم التكنولوجي، و(الأداتي) للحضـــــارة الغربية مع التقدم العقلي، الذي شكل الأرضيـــة للتقـــدم الحضـــاري الغربي. وهذا ما حصل في مجتمعات غير عربية بحيث تطورّت هذه المجتمعات الغير عربية (آسيوية)، وباستفادتها من التراثين الغربيّيـــن المادي- والفكري: (العقلانية) (اليابان مثلاً- والصين -ودول أوربا الشرقية).

٣-عرب القرن التاسع عشر، والعشرين:(وقائع التاريخ)

نسجل ما ورد في كتيّب الباحث والمفكر محمد أركون (الفكـــر العربي)، الوقائع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعيـــة، والعلميـــة، والثقافية في العالم العربي في القرن التاسع عشر والتي توقفت حتـــى صدور كتابه عند (١٩٧٦)، ونسجل بدورنا المرحلة التاريخية لمـــا بعد، (١٩٧٦)، وصولاً إلى نهاية القرن العشرين.

"الشروط الجديدة لحياة حديثة في العالم العربي"

أ- الحوادث السياسية :

١٧٩٨-١٨٠١: حملة (بونابرت) على مصر، فتح البلاد عســـكرياً، وارتيادها علمياً.
١٨٠٥-١٨٤٥: (محمد علي باشا) ينجح في الإستيلاء على الســـلطة في مصر، ويفتتح عهد سياسة إصلاح، واستقلال.
١٨٣٠: - بدء غزو الجزائر، واحتلالها.
١٨٦٧- ١٩٠٩: عهد (عبد الحميد الثـــاني) الـــذي دفـــع تســـلطه مفكـــرين لبنانيين إلى الهجرة إلى الأمريكتين، ومصـــر، الصحافـــة اللبنانية تلجأ إلى القاهرة .
١٨٨٢ : مصر تحت الوصاية البريطانية، وتحل السيادة البريطانية محل السيادة العثمانية.
١٨٨١: الحماية الفرنسية في تونس .
١٩١٢: الحماية الفرنسية في الجزائر.
١٩١٦: اتفاقية(سايكس- بيكو) حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية إلى مناطق نفوذ، إنجليزية- فرنسية- روسية.
١٩١٧: تصريح (بلفور) بشأن إنشاء دولة إسرائيل في فلسطين.

١٩٢٠: الانتداب الفرنسي على سورية، ولبنان، والبريطـــاني علـــى فلسطين والعراق .
١٩٢٢: إلغاء السلطة العثمانية – وإعلان الجمهورية التركية.
١٩٢٧: إنجلترا تعترف باستقلال العربية السعودية والعراق.
١٩٣٦: نهاية الاحتلال العسكري لمصر باستثناء منطقة (قناة السويس).
١٩٤٥: إنشاء الجامعة العربية.
١٩٤٨: إعلان دولة إسرائيل. (الحرب العربية الإسرائيلية الأولـــى) و(الهزيمة) العربية.
١٩٥٢-١٩٥٤: تنازل (فاروق)، و(عبد الناصر) يصبح رئيس الدولة المصرية.
١٩٥٦: استقلال المغرب أو تونس، الحملة الفرنســية – البريطانيــة على السويس– (انسحاب القوات الأجنبية) الحرب العربية الإسرائيلية الثانية.
١٩٥٨: ولادة الجمهورية العربية المتحدة (اتحاد مصر وسورية).
١٩٥٨ (١٤ تموز): اللواء (قاسم) يستولي على السلطة في بغداد.
١٩٦٧ (٥ حزيران): حرب الخامس من حزيران– (الهزيمة العربيــة لعام ١٩٦٧) .
– : ولادة الجمهورية الشعبية في اليمن.
١٩٦٩ : (سبتمبر) إعلان الجمهورية في (ليبيا).
١٩٧٣ : (اكتوبر) نصف نجاح للجيوش العربية في مواجهة إسرائيل [١]
١٩٨٠ : حرب الخليج الأولى (العراق– إيران).
١٩٨٢ : اجتياح بيروت (لبنان) من قبل القوات الإسرائيلية.

---

[١] محمد أركون– الفكر العربي– م.م.ص ١٣٨-١٤٠، ما يلي من/د للأحداث هو من تسجيل صاحب هذا العمل.

١٩٨٩ : سقوط جدار برلين، بُعيد سقوط كافة الأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية.
١٩٩٠- ١٩٩١: غزو الكويت من قبل الجيش العراقي
١٩٩٠ : إعلان النظام العالمي الجديد، بخطاب من الرئيس الأمريكي (ج بوش)
١٩٩١-٢٠٠٠: الحصار الاقتصادي ضد العراق، ولبيا. بقرار من الأمم المتحدة بالنسبة للعراق، وبقرار الولايات المتحدة الأمريكية ذاتياً.[١] ضد ليبيا .

ب- الأحداث الاجتماعية والثقافية:

١٨٢٢ : تأسيس الجامعة الأمريكية في بيروت.
١٨٧٥ : تأسيس الجامعة اليسوعية (القديس يوسف) في بيروت.
١٨٨٠ : كلية صادقي في تونس.
١٩٠٨ : جامعة الجزائر، وافتتاح جامعة أهلية في القاهرة- وأصبحت (١٩٢٥) جامعة حكومية.
١٩٢٥ : جامعة دمشق.

---

[١] نلتزم تاريخياً بتاريخ العام(٢٠٠٠) كنهاية للقرن العشرين، وسيبدأ القرن الحادي والعشرون بحادثتين غيّرا وجه العالم أولهما: (١١ سبتمبر ٢٠٠١) وتفجير مباني مركز التجارة العالمية ومركز قيادة الجيش (البنتاغون) في نيويورك وواشنطن، ومن ثم غزو العراق، وسقوط بغداد في مارس (٢٠٠٣) أمام هجوم قوات التحالف المصنوع من قبل الولايات المتحدة الأمريكية.

١٩٢٣ :البدء بنشر كتب الدكتور أحمد أمين حول مشـــروعه فـــي تأريخ الحياة العقلية في الإســـلام أي : (فجـــر الإســـلام)،(ضحـــى الإسلام)،(ظهر الإسلام)..الخ[1]
١٩٤٢ : جامعة الإسكندرية.
١٩٥٠ : جامعة عين شمس في القاهرة.
١٩٥٦ : جامعة بغداد.
١٩٥٧ : جامعة الملك مسعود في الرياض.
١٩٦٠ : جامعة حلب.
١٩٦٠ : جامعة تونس.
١٩٧٥ : جامعة محمد الخامس في الرباط.
١٨٢٦-١٨٣٥: أولى البعثات الدراسية المصرية إلى فرنسا.
١٩٣٥-١٨٤٨: تركز نشاط الترجمة في مصـــر، بـــإدارة (رفاعـــة الطهطاوي) المتوفي (١٨٧٣).
١٨٤٠ : ترجمة الكتاب المقدس في لبنان و(١٩٠٤) ترجمة سليمان البستاني للإلياذة الإغريقية.
١٨٩٩ : تأسيس أول نقابة في مصر لصناعة السجائر
١٨٩٨ : تأسيس البنك الأهلي المصري.
١٩٢٠ : يصبح البنك المذكور (بنك مصر).
١٩٤٧ : البنك الوطني العراقي، والذي أصبح المصرف المركزي سـنة (١٩٥٦).
١٨٥٤-١٨٦٣: عهد (سعيد باشـــا) نشـــأة الإيديولوجيـــة القوميـــة المصرية.
١٨٦٩ : الفكرة الحديثة عن الوطن كما أذاعها (الطهطاوي).
١٩٢٥ : " علي عبد الرزاق" ينشر كتابه فـــي (الإســـلام وأصـــول الحكم)
١٩٢٦-١٩٢٧: طه حسين ينشر كتابه (في الشعر الجاهلي) .

---

(1) – أضفنا هذه الفقرة من عندنا .

١٩٣٨ : "طه حسين" ينشر كتابه: (مستقبل الثقافة في مصر).
١٩٤٧ : "عبد الرحمن بدوي" ينشر كتابه (الزمان الوجـودي) في الفلسفة.
١٩٥٤ : "عبد الناصر" ينشر كتابه : (فلسفة الثورة) .
١٩٦٤ : ميثاق الجزائر.
١٩٦٧ : حرب الأيام الستة، وما يتبعها من كتابات وأدبيـات عـن الهزيمة.
١٩٦٩ (١ سبتمبر): إعلان الجمهورية العربية الليبية.
١٩٧٣ : نصف انتصار سوري – مصري– ضد إسرائيل.
١٩٧٦ : الميثاق القومي الجزائري–[١].
١٩٦٨ : البدء بنشر كتب الدكتور "طيب التيزيني" حـول: التراث والثورة ومشروعه الفكري.
١٩٨٢ : صدمة المثقفين العرب باجتياح بيروت، وانتحار الشـاعر "خليل حاوي" في بيروت، احتجاجاً على الاجتياح الإسرائيلي.
١٩٨٤ : البدء بنشر كتب الدكتور "محمد عـابد الجـابري" حـول مشروع نقد العقل العربي – (التكوين والبنيـة– ونقـد العقـل السياسـي والأخلاقي).
١٩٨٥ : المشروع الفكري الإسلامي للدكتور حسن حنفـي، حـول (العقيدة والثورة) .
١٩٩٣–١٩٩٤ : صدور كتابين في أمريكا، وأصداؤهما في العـالم العربي وهما (صـراع الحضـارات) لصموئيـل هانتجتون و(نهاية التاريخ وخاتم البشر) (فرانسـيس فوكوياما)[٢].

---

[١] المصدر المذكور ص ١٤٠-١٤١ والفقرات التالية من عند المؤلف.

[٢] يعتقد صاموئيل هانتجتون "أن الغرب سيجد عدواً في الحضـارة الاسـلامية، وأن إحدى الصراعات المقبلة بين الغرب والحضارات الثمانية الأخرى. وأولـى

يرى "محمد أركون" أن هذا العرض التاريخي الوجيز للأحــداث البارزة في العالم العربي منذ مستهل القرن التاسع عشر، يعطي وحده فكرة عن صعوبة نفاذ الحياة الحديثة إلى المجتمعات الراضخة منذ زمــن بعيد لأقسى نزعة تقليدية[1] في نمط التفكير، والأخذ بالمعطيات الفكرية التي رافقت تطور الحياة الحديثة المادية.

ونوّد في هذه الصفحات والتي تليها محاولة تحليل العلاقة الغــــير متوازنة بين الحياة الحديثة المادية، وبين الحياة الحديثة الفكرية التــي كان من المتوجب أن تسيرا جنباً إلى جنب، منــــذ أن بــدأ العــرب يأخذون من الغرب ما أخذوه.

لعل، أول ما يُلاحظ في هذا المحور، مــــا كتبــه "أركــون" أن الاتصالات الأولى بالمجتمعات الغربية في هذه الشروط ، باســـتثناء الاصطدامات العسكرية، أثارت لدى العــــرب المســلمين الدهشـــة، والإعجاب الساذج، والفضول الكبير.

بدليل شهادة المؤرخ المصري(الجبرتي) المتوفــــي (١٨٢٥)، ولا سيّما "الطهطاوي"، والــــذي رأس بعثـــة علميـــة أرســلت إلـــى باريس(١٨٢٦)، وسجّل في قصة رحلته الثمينة ارتكاسات مسلم إزاء أكثر أمارات الحياة الحديثة المادية ذيوعاً: "سرير عالٍ مريح، وشوكة

هذه الصراعات بين الغرب / الإسلام وبالنسبة لكتاب "فوكوياما" يرى الأخـــيرأن الرأسمالية- الديمقراطية قد توقف التاريخ عندها بسقوط الأنظمـــــة الاشــتراكية ونهاية الحرب الباردة .

[1] المصدر السابق ص ١٤١

طعام، ومدى، وأطباق وكؤوس فردية تتناول الطعام على مائدة، نساء سافرات، يتجولن بحرّية، فنّ معماري مدهش، نظام، نظافة.

وتتكشف دلالة هذه الملاحظات كلها عندما نقارنها بالملاحظات المقابلة لرحالة أوربيين سافروا إلى بلاد الإسلام.."[1] وفي كتاب طريف للدكتور" محمود السمرة" بعنوان(غربيون في بلادنا) نعثر على نصوص لرحّالة غربيّين جابوا أرجاء البلاد العربية- الإسلامية، ونجد منذ البداية نصاً لأوربي جاب أرجاء الجزيرة العربية، ويصف ما شاهده بشكل يتجاوز في العمق، ما شاهده كثير من العرب الذين رحلوا إلى بلاد الغرب الذين نقلوا لنا صوراً سطحية عن الحياة الحديثة التي عاشوها:

يقول الدكتور "السمرة" : "نستطيع أن نقول بإيجاز إنه في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر . كانت قد توفرت لدى الغربيّين المعلومات الأساسية عن شبه جزيرة العرب، وعن المدينتين المقدستين واليمن، والبدو... ومنذ القرن الثامن عشر بدأ في تاريخ الريادة إلى شبه جزيرة العرب ما يسمى بالريادة الحقيقية، بكل ما في الكلمة من معنى، وروّاد هذه الفترة أهدافهم متعدّدة، متباينة، فبعضهم أغراضه سياسية، وبعضهم الآخر من عشّاق المغامرات.وأشهر هؤلاء الرّواد هو: "كارسان نيبور".

ويتابع الدكتور "السمرة" واصفاً معالم هذا المغامر قائلاً:
"نيبوّر"هذا هو النموذج الكامل للرائد والعالم ذي النزعة الإنسانية، وهو مهندس، وكان عضواً في البعثة العلمية التي أرسلها ملك الدانمارك عام(١٧٦٢) لارتياد الجزية العربية..

---

[1] م.س.ص ١٤٥، لم يجر الطهطاوي وراء الخلفية الفكرية لهذه الأنماط السلوكية والحياتية اليومية لدى الفرد أو المجتمع في الغرب.

وميزة "نيبّور" أنه كان يغربل المعلومات التي يحصـــل عليــها بعقله النقاد وإذا لم يتمكن من التثبّت من صّحة رواية ما، كان ينقلها، على علاتها مذكراً القارئ بأنه إنما يتركها له ليحكم فيها: والقـــارئ لرحلة"نيبّور" يطلع على الكثير مـــن شـؤون العــرب، وطبقاتــهم الإجتماعية، وأنسابهم ومذاهبهم، وفرقهم، ويطلع أيضاً على عاداتــهم في المأكل، والمسكن، والملبس والزواج، وعلـــى ســير الشــعراء، والخطباء ذوي الشأن، ويسجّل معلومات عن المـــدارس القرآنيــة.. والفلك، وعلم السحر، والتنجيـــم، وعـــادات الدراويـــش، والطــب، والأمراض... واهتم"نيبّور" بوضع لائحة مقارنة بين أنواع الخطــوط العربية، وجهد في إظهار جميع الكتابات التي شاهدها على الحجــارة بالخط الكوفي، وكذلك فعل بالنسبة للنقود، وقد وصف (مسقط) فـــي عُمان، و(الكويت)... ثم يتحدث "نيبور" بإسهاب عن العشائر، والأقوام العربية التي تقطن ساحل الخليـــج العربـــي، وفـــي الفصـــل الـــذي أفرده(النجْد) نلمس فطنة"نيبّور" وأمانته العلمية في حديثه عن" محمــد بن عبد الوهاب" الذي كان ما يزال حياً عندما زار"نيبـــور" منطقــة الخليج العربي.."[1]

---

(١)الدكتور محمود السمرة، (غربيون في بلادنا) منشورات المكتـــب التجـــاري للطباعة والنشر- بيروت ١٩٦٩- ص ١٣- ١٤، نأسف لكوننا لم نحصـــل ونسجل نصّ الرحالة"نيبوّر" نفسه، من كتابه، وقد اقتصرنـــا علـــى حديــث الدكتور"سمرة" عنه

لا يغرب عن بالنا وجود كثير من المثقفين والمفكرين العرب الذين ذهبـــوا إلـــى بلاد الغرب، قد وقفوا في رسائلهم الخاصة وكتبهم عن رحلاتهم حيـــث قـــاموا بوصف كثير من عادات، وطرق تفكير الغربيين، ولكن ظل في إطـــار النخـــب

وتوالى الرحالة الغربيون يقدمون إلى البلاد العربيــة،يكتبــون، ويؤلفون، كتبا[1] ومجلدات يخبرون أهل بلدانهم بكل مـــا يشـــاهدونه ويلمسونه، ويعيشونه في "الشرق" وقد وظّف المستعمرون الأوربيـون هذا الجانب المعرفي لبلاد الشرق سياسياً تمـــهيداً للسـيطرة، وفتـح الأسواق أمام التجارة الأوروبية، والسيطرة كذلك على المنطقة نظـراً لأهميتها الإستراتيجية. وكونها مفتاح الوصول إلى القارات الهنديـــة، والفارسية، والآسيوية.

لقد بدأ أمر الأوروبييـــن بـــر حالاتـــهم، وحبّـــهم الفضـــول، والاكتشاف، وانتهى الأمر وهذا هو(الغرب السياســـي) بالاســـتعمار الأوروبي للعالم العربي حيث بدأ هذا التغلغل منذ القـــرن الســـادس عشر، ووصول الأساطيل البرتغالية إلى شواطئ الخليـــج، وصـــراع هؤلاء مع الأوروبيين في القرن الســـابع عشـــر، وبدايـــة التغلغـــل الأوروبي عقب الثورة الصناعية في أوربا، ومن ناحيـــة ثانيـــة، "إن العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامي(في هذه المرحلة)تكشف عـــن واقعة لا يمكن إنكارها:

الثقافية(انظر كتابات: "طه حسين"، "وعبد الرحمن بدوي" "وتوفيق الحكيـــم" فـــي حديثهم عن فرنسا، وبعض اللبنانيين عن الأمريكتين..).

[1] في كتاب الدكتور"سمرة" المذكور مجموعة من المعلومـــات عـــن الرحّالـــة الأوروبيين الذين جابوا مختلف بلاد(الشرق) انطلاقاً من شبه الجزيرة العربيـــة. ووصولاً إلى مصر، والشام، والهند، وهؤلاء الرحالة،كتبوا ملاحظاتهم الخاصـــة والعامة،عما شاهدوه في هذه البلاد، وكتبوا مذكراتهم، ومراسلاتهم، وكان ذلـــك طوال ثلاثة قرون : القرن السادس عشر ، والسابع عشر، والثامن عشر والتاسع عشر، وبداية القرن العشرين.

معارف الغربيين المتفقة أكثر فـأكثر، والمـتزايدة الانتشـار لـدى المسلمين(ليس بالضرورة في عقليتهم، ومسلكهم النفسـي)، وجـهل، وبلادة المسلمين المغطّاة بالأحكام المسبقة تجاه الغربيين، ربما سيدلنا مثل هذا الاختلال في توازن المصالح، والاهتمامات المتبادلة:

ففي نهاية القرن الثامن عشر كان الطالب الغربي يملك عدة وفيرة عن العالم الإسلامي " فنحو ٧٠ كتاباً في النحو العربي جرى طبعـها في أوربا،و ١٠ كتب عن الفارسية،و ١٥ كتاباً عن التركيـة، وهنـاك ١٠معاجم عربية، ٤ معاجم فارسية ٧٠ معاجم تركية".

وماذا كان الوضع في الجهة الأخرى؟ لا شي في العربية، لا شـي أيضاً في الفارسية، والتركية . ظهرت المعاجم الأولى في القـرن التاسـع عشر: "إن المعجم العربي الأول مع لغة أوروبية، وضعه مواطن نـاطق بالعربية ونشر(١٨٢٨) إنه عمل مسيحي! قبطي– مصري راجعـه، وزاد عليه مستشرق فرنسي وهو كما يقول المؤلف فـي المقدمـة مخصـص لجمهور غربي أكثر مما هو لجمهور عربي[١].

وسيروي الدكتور(طه حسين) في مذكراته في باريس أنه كـان يسـمع مـن العلمـاء الفرنسـيين فـي مؤتمراتـهم، وندواتـهم ومقالاتهم،وأحاديثهم عن الأهرامات، وتاريخ مصر، ما لا يعرفـه أي عربي،أو مصري من حيث سعة المعرفة، والدقة العلمية،والتبحّر فـي هذا المجال."وسيسير هذا الوضع متطوراً (في دراستهم لنا) حتى أيامنـا، في كل المجالات."[٢]

---

[١] دار يوش شايغان،النفس المبتورة– دار الساقي–لندن، ط١ ١٩٩١.ص٣١–٣٢

[٢] المصدر السابق. ص٣٢– في التسـعينات مـن القـرن العشـرين، سـيُثار موضوع، المعرفة االإستشراقية ، ودعوة العـرب، والمسـلمين إلـى معرفـة استغرابية، في مقابل الدراسات الاستشراقية وقد وضع الدكتور "حسـين حنفـي"

٤ -النهضة العربية " كاستجابة للأنوار، والحداثة"

لزم عن تدهور الحياة السياسية، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والعلمية، ضعف الدولة المركزية، والمؤسسات الإجتماعية في مرحلة ما بعد انهيار الدولة العباسية والدخول في عصر المماليك، والإمبراطورية العثمانية، وقد نتج عن هذين الافتراضين لدى الشعوب العربية-الإسلامية نزوع إلى حياة الزهد، وهجرة الدنيا، واعتبارها ممرا، وعبورا، وبرزخا يؤدي إلى الآخرة، وقد تم استبدال الاتصال بالعالم الخارجي والمجتمع، والإنسان، وإعمار الكون باتصال بالله، وبالمطلق.

لقد اندثرت السلطة المركزية في أواخر القرن السابع الهجري(الثالث عشر ميلادي) واتجه الوعي العربي- الإسلامي نحو عالم الغيب، والتعلق بالسحر والاعتماد على الجانب الوجداني، والذوق في النظر إلى الأمور. وسادت ثقافة الخرافة في البيئات الشعبية، وهو أمر لانزال نعيشه في بعض مظاهره إلى يومنا هذا.

قلنا سابقا أنه وخلال الفترة العثمانية المديدة في الوطن العربي، لم يخل العالم العربي من تطور على صعيد "الحداثة المادية" وفي البنى التحتية، وقد استمر هذا الشكل من الحداثة (العثمانية) في العالم العربي بطيئا، ومحدودا إلى أن حلت مشكلة (الرجل المريض)،

استغرابية، في مقابل الدراسات الاستشراقية وقد وضع الدكتور "حسين حنفي" كتابه الضخم (علم الاستغراب) ليكون مرجعا أكاديميا للجامعات العربية إذا أرادت أن تنشئ أقساما لدراسة الغرب على نحو دراسة الغربيين للعرب المسلمين .

وانتهى أمر الخلافة العثمانية، وظهرت على الساحة العالميـــة القـــوّة الأوربية. وذلك ابتداءً من الحملة الفرنسيّة على مصر، والشام، كمـــا ورد في لوحة الأحداث السياسية التي ذكرناها سابقاً، ودخول المنطقة العربية عصراً جديداً من التدخل الأوربـــي، والاخـــتراق المباشـــر للغرب، وبتعبير آخر شهد العالم العربي(الغرب السياسي) فـــي أوج طموحاته، وتحقيق مصالحه المباشرة، وبناء استراتيجياته في السيطرة على كل مقدرات المنطقة إنه الإستعمار الأوربي.

وابتداء من القرن التاسع عشـــر ســـيتعرّف المجـــال العربـــي الإسلامي على أوربا جديدة، قوية عسكرياً، ومتحضّـــرة، ومتقدمـــة، وعلمانية تنعكس هذه العلمانية على مختلف مجالات الحياة الفرديـــة، والاجتماعية، مع الاحتفاظ بثقافة النصّ الديني المسيحي. وجعله فـــي الصفوف الخلفية:

لكن العرب لم تع جيداً طبيعة التحوّل الكبير الذي حـــدث فـــي أوربا، ولم ينتبهوا إلى أن هذا التحوّل يعود في جوهره، فكرياً، إلـــى حركة التنوير التي فصلت بين الحياة العامة، والقضايا الميتافيزيقية أو الغيّبية، وأنهم أمام تشكيلة جديدة تختلف عن تلك التي واجهوها فـــي العصور الوسطى الدينية، والصليبية.

لقد ساهم تحّول أوربا إلى قوّة تسعى إلى السيطرة، لا إلى السلم، والتعاون، في تشويه الفكرة الأوربية، في اتجاهها الإنساني، واعتقدوا لفترة أن سرّ نهضة أوربا هو تمسكّها بتراثـــها الدينـــي، وبهويتـــها المسيحية، وفي هذا السياق اتجة الميل العام للنهضة العربية نحو بعث ديني عربي-إسلامي"لم يـــدرك أصحـــاب النهضـــة أن وراء القـــوة الأوربية كان هناك تبدل في رؤية العالم. وان بين إسلامهم والحداثـــة

كان يوجد حقل فارغ لا يمكن أن يسدّه الرجوع إلى القيم السلفية، ولا إصلاح الشريعة، وكان لا بد من تغيير "شامل في الرؤية والواقع"[1]

لقد حدث، وعي زائف، أو مغلوط للتطوّر، والتقدم الأوروبيّين، وليس معنى ذلك أن تاريخنا خلو من إرهاصات تنويرية ذات نفس عقلي بل لقد ظهرت(نوبات) تنويرية، لم يقيضّ لها أن تثمر أو أن تستمر وقد ظلت بعض فترات من التاريخ، في إطار النخب.

إن جذور الصراع بين المنظور العقلي للتاريخ، والوجود، وبين المنظور اللا عقلاني موجودة في كل الثقافات بما فيها الثقافة العربية الإسلامية ولكن الغلبة، والسيادة في الثقافة العربية الإسلامية كانت دائماً لصالح التيار الثاني.

وإذا كانت الأنوار هي يناعة، وحيوية العقل، وجرأة في النقد فإن تاريخنا لم يخل من هذه المحطات المضيئة(انظر المعتزلة: أولوية العقل على الشرع، بعض المفكرين العقليين، كالرازي وحنين بن إسحاق، وغيرهم في القرنين الثالث والرابع الهجريين)، ولكن مؤرخي الفكر التقليديين كانوا قد عتمّوا على أسماء هؤلاء، زد على ذلك أن العصور الحديثة في العالم العربي تعجّ بأسماء مفكريين عقليين.وخاصة في النصف الثاني من القرن العشرين: (يوسف كرم، فؤاد زكريا، عادل العّوا،...).

كذلك شهد العصر الحديث في العالم العربي (نوبات) أنوارية (ليبرالية) لكن هذه التيارات والاجتهادات الفردية. لم تتمكن من التبلور، ولم يكتب لها الاستمرارية. أي أنها تتبلور ضمن حركة

---

[1] دار يوش شايغان (النفس المبتورة). دار الساقي- لندن، ط.ص٤٠

اجتماعية قوية، لأن التيار الاجتماعي، والفكري السائد على مستوى الجماهير، والنخب التقليدية والسلطات السياسية، ما كان ليقبّل بها، وظلت دوماً مهددة بالانطفاء والخفوت. وظل الظلام الفكري يهدد تاريخنا باستمرار.

عندما جاء عصر التدخل الأوروبي في العالم العربي، ودخلت المنطقة مرحلة جديدة في تاريخها الحديث، حمل هذا التدخل في صورته الاستعمارية مزيداً من الحضور المادي،[١] أو الحداثة المادية أكثر بكثير من الحضور الفكري التنويري. وعمل هذا التدخل الأوروبي من أجل تأمين مصالحه على توسيع البنى التحتية في العالم العربي، والتي تخدم حراكه الاستعماري في المنطقة، ومن خلال تغيير كثير من معالم البنى التحتية في العالم العربي بواسطة آلة التقدم العلمي الأوروبي، بدأت أنماط حياتنا وشروطها تتغير، تغيراً جذرياً.

لقد تغيرت من جرّاء التدخل الأوروبي أنماط حياتنا اليومية من مسكن، وشروط الأبنية وتعلمنا طرائق مختلفة من التعليم في الصفوف المدرسية وبناء المدارس. وكذلك الشروع من قبل الحضور الأوروبي في توسيع شبكات الطرق والمواصلات، والسكك الحديدية وإنشاء المطارات، والثكنات العسكرية وكذلك تغيرت طرائقنا في الملبس والمأكل وكثير من أنماط حياتنا الاجتماعية وعلاقتنا الإنسانية. لقد تطوّرت شؤون الحداثة خاصة ما بين فترة الحربين العالميتين ومرحلة الاستقلال الوطني للدول العربية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي في الأربعينات من القرن الماضي.

---

[١] – يواجه العالم العربي في هذه المرحلة الحداثة المادية الثانية التي رافقت الاختراق الأوربي، بعد أن واجه الحداثة المادية الأولى في مرحلة الاختراق العثماني كما سجلنا سابقاً.

شهد عالمنا العربي منذ ذلك التاريخ مراحل متسارعة جداً في تطور البنى التحتية، ومختلف حياتنا الظاهرة أي على أصعدة الحياة السياسية (السلطة وهياكلها)، والحياة الاقتصادية، واستخدامنا مختلف أنواع الاتصال، ويستمر بناء الأمر، حتى الآن في الأخذ بالحداثة المادية وذلك بالحضور الواسع لمختلف التقنيات الحديثة.

وخلاصة الأمر أن العالم العربي أخذ يعيش مرحلة الحداثة المادية ولكن هذا التطور السريع أو البطيء في البنى المادية، أو التحتية في مختلف البلاد العربية لم يرافقه، أو يوازيه تطوّر في الحداثة الفكرية، أي أنه لم يُحدث التطور المادي تأثيراً كبيراً في عقول شرائح المثقفين، ولا في شرائح الشعوب العربية، بشكل واسع وملموس، وإذا قبلنا، أن تطوراً فكرياً، أو حداثة في البنى العقلية، قد مسّ مختلف فئات المجتمعات العربية فهو تطور "سطحي" و "ضعيف" و"ركيك" بالمقارنة مع التنمية المادية أو بالمقارنة بارتقاء مستويات العيش، في الوطن العربي.

بدأت العصور الحديثة في الوطن العربي بمواجهة الأفكار الحديثة كالحرية في التفكير، والرأي، والحرية السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية وغير ذلك من حقوق الإنسان بشيء من الرفض حيناً، أو الإعجاب السطحي، أو التعاطف الوجداني مع أنماط حياة الأوروبيين وبالنسبة للتيارات التقليدية العربية -الإسلامية، فقد قوبلت الأفكار التنويرية والحداثوية بالرفض، أو بالحذر على أقل تقدير.

<u>إذن نحن أمام نمطين من الحداثة :</u>

١- الحداثة المادية، أو الحداثة في البنى التحتية، وقد لمست هذه الحداثة مختلف مرافق الحياة الخارجية، الظاهرة.

٢- الحداثة الفكرية ، أو تغيّر في البنى العقلية، والتي لم تمسّ أعماق تفكيرنا، ولا جوهر مواقفنا إزاء الحياة، والكون والإنسان.

الفصل الرابع

ثلاثة تيّارات أمام أفكار التنوير والحداثة

في عصر ما سُمّى بالنهضة، (منتصف القرن التاسع عشر) وحتى نهاية الستينات من القرن العشرين، ظهرت ثلاثة تيارات رئيسية على ساحات الوطن العربي أمام الأفكار الحديثة القادمة من الغرب الأوروبي.

الأول : التيار الديني – المحافظ ، والمنفتح.
الثاني : التيار الليبرالي– المزيج من العلمانية والحداثة، والتقليد.[1]
الثالث : التيار القومي العربي.

مرحلة عصر النهضة إلى ١٩٣٩– بداية الحرب العالمية الثانية

١– التيّار الديني :

لقد حمل منذ البداية لواء الحركة الوطنية، وعمل على إحياء الأفكار الإسلامية في السياسة والاجتماع والفكر، وكانت المرجعية هي: النصّ الديني – وأفكار الحضارة العربية الإسلامية (التراث الديني) بقيمه ، ومعاييره ، وقاعه الفكري، ونذكر عرضاً أسماء شخصيات ممثله لهذا التيار من قبيل "عبد الله النديم" (مصر)، والشيخ "محمد عبده" (مصر) و" عبد الرحمن كواكبي" (سورية) و"شكيب أرسلان" (لبنان) "عبد العزيز ثعالبي" (تونس).

---

[1] Anwar Abdel – Malek, Anthologie de la litterature arabe Contemporaine, (les Essais) Ed. Seuil – Paris 1965

لقد شمل هذا التيّار، الذي غلب على نمط تفكيره الجانب السياسي والإصلاح الاجتماعي "قاسم أمين" (مصر) والنهضة الأدبية وجانباً آخر على مستوى الخطاب الثقافي– وهو يحمل في طيّات فكره المرجعية الدينية مثال "جمال الدين الأفغاني" (مصر) "علي عبد الرازق" (مصر)[1] "عبد الحميد بن باديس" (الجزائر) "أحمد أمين" (مصر) "مصطفى عبد الرازق" (مصر)[2] "زكي مبارك" (مصر).

حاول هذا التيّار في خطابه الفكري التوفيق بين العقل والدين، ولقد وقف عناصره على بعض أنماط التفكير الغربي، والأفكار الحديثة، ولكن موقفه ظل متأرجحاً ما بين الأخذ بالأفكار التنويرية الغربية، والالتزام بالانتماء إلى الأصول الدينية ومرجعية النّص، والتراث الإسلامي بمعاييره، وقيمه.

ولقد شمل هذا التيار على المستوى الأدبي شخصيات أعطت فكراً أدبياً يبطن القيم الدينية مثّل "محمد كرد علي" (سورية) "أبو القاسم الشابي" (تونس) "محمود سامي البارودي" (مصر) "جميل صدقي الزهاوي" (العراق) "معروف الرصافي" (العراق) "جبران خليل جبران" (لبنان).("خليل مطران" مصر).

واجه التيار الديني – المحافظ، الأفكار الحديثة بالإعجاب حيناً، وبالحذر الشديد أحياناً، وظل مخلصاً في النهاية للتوجه الديني الإسلامي، حيث وجد فيه موئلاً لبناء نهضة جديدة، ووجد فيه معيناً خصباً لإعادة مجد حضارة كانت مزدهرة في الماضي، وفكّر تيارنا جدّياً في إمكانية إحياء المشروع الإسلامي على أرضية إسلامية، مع

---

[1] – يمزج عبد الرازق في فكرة الجانبين الديني والليبرالي.

[2] – يمزج في فكره الجانب العقلي، والديني المحافظ.

الأخذ بمكتسبات الحضارة الغربية المادية (نواتــج التقــدم العلمــي- الغربي. وذلك لتطوير البنى التحتية في الوطن العربـــي والاحتفــاظ بالمرجعية الفكرية الإسلامية)، زد على ذلك، فإن هذا التيـــار عمــل على استخراج أنماط الحداثة الفكرية الأوروبية من مواطن الـــتراث العربي- الإسلامي ذاته بل لقد ذهب البعض من أهل الفكــر الدينـــي على التأكيد على أن مختلف الأفكار الغربية في السياسة والاقتصـــاد، والاجتماع، والعلم، قد اكتشفها العرب قبل الأوروبيين، أو على أقـــل تقدير هي موجودة في ثنايا كتب المؤلفين العرب والمسلمين.(١)

٢- التيّار الليبرالي :

ظهر التيار الليبرالي موازياً للتيار الإســـلامي المحـــافظ، وقــد أعجب، ونقول(أعجب) لأن الأمر قد حصــــل أولاً علـــى المســـتوى الوجداني أكثر منه على المستوى الفكري المحض- بقيــــم الحداثــة المادية- والفكرية، وأعجب أيضاً بخطاب الحداثة الغربي. وإضافـــة إلى إعجاب هذا التيار بالتطور الحضاري والمادي والفكري للغــوب، فقد عمل تيّارنا على تجسيد إعجابه بالكتابة، والترجمة للآثار الفكريــة الغربية، ويمكن ذكر على سبيل المثال لا الحصر أســـماء معروفــة لأهل المعرفة في الوطن العربي: "أحمد لطفي السيد" (مصر) "الطاهر حداد" (تونس) "مكرم عبيد" (مصر) في السياسية والاجتمـــاع، وأمـــا

---

(١)ظهرت في الستينات من القرن الماضي موجه عظيمة الشأن في المساحة الثقافية العربية - الإسلامية للبرهنة، أو للتأكيد على أن في الإسلام جميع أفكار الغرب الحضاري ففي الإسلام ديمقراطية، وفيه اشتراكية، وفيه رأسمالية، وفيه تنبؤات مختلف النظريات العلمية الأوروبية وتتجسد في الإسلام كامل حقوق الإنسان.. الخ.

على المستوى الثقافي العام فيمكن ذكر كل من"فرح انطون"(لبنـــان– مصر) "شبلي شميل" في الثقافة العلمية(لبنـــان– مصـــر) "ميخـــائيل نعيمة"(لبنان)الخ...

مرحلة(١٩٣٩) إلى نهاية الستينات من القرن الماضي

استمر هذان التيّاران في مواجهة الحداثة الفكرية، كل حسب نمط تفكيره، ومرجعيته وقد ظهرت أسماء كثيرة أخـــرى تمثـل التيّـــار الفكري الديني في مختلف أرجاء الوطن العربـــي، ففـــي السياســـية والاجتماع ظهرت شخصيات من قبيل:

"علي الوردي" (العراق) "عبدا لرحمـــن عـــزام" (مصـــر) "ســـاطع الحصري" (سورية)"خالد محمد خالد"(مصر) "جمال عبـــد النـــاصر" (مصر) و(مشروعه القومي) أما على الصعيد الفكري أو على صعيد المحاولات التوفيقية بين فلسفات الغرب والإسلام، فقد ظهرت أســماء أخرى ممثلة لهذا التوجه من قبل "عباس محمـــود العقـــاد" (مصـــر) "حسن البّنا" (مصر) "مالك بن بني" (الجزائر) "محمد البهي" (مصـــر) "محمد يوسف موسى" (مصر) "محمد الفاضل عاشور" (تونس) "أحمد توفيق المدني" (الجزائر) "أمين الخولي" (مصر) "سيد قطب" (مصـــر) و"محمد قطب" (مصر).

غلب على أصاب هذا التيار أولاً المرجعية الإسلامية، أو الدينية عموماً وكذلك الموقف الموفّق حيناً بين الأفكار الغربيـــة، والأفكـــار الإسلامية وأحياناً وجد في هذين التيارين من يقول الموقف المضـــاد إزاء الفكر الغربي مثل "محمد البهي" و "العقاد" و"سيد قطب" " وأخيه محمد" .. الخ .

أما التيار الليبرالي فقد حمل الجيل الثاني من التيار الليبرالي أفكار الجيل الأول، أي التعاطف، والتأثر، والإعجاب بالأفكار والفلسفات الحداثوية القادمة من الحضارة الأوروبية، ولم يخل موقفه من التطرف في اتخاذ قيم الحداثة غاية في ذاتها، كما حاول التيار الأول، أي الإسلامي بالرفض ضمناً، أو صراحة لقيم الغرب.

يمكننا ذكر أسماء عدة من أصحاب هذا التيار الليبرالي: "سلامة موسى" (مصر) " بطرس غالي" (مصر) "رئيف خوري" (لبنان) "خالد بكداش" (سورية) "عبد الفتاح صبحي وحيدة (مصر) "عزيز الحاج" (العراق) "شفيق غربال" (مصر) "ميشيل عفلق" (سورية) "شهدي عطية الشافعي" (مصر) "إبراهيم عامر" (مصر) "عبد الله الطريقي" (السعودية) "أحمد بن بيلا" (الجزائر) "محمد سعيد العطار" (اليمن) إنها أسماء ظهرت في ميداني السياسة والاجتماع أما على صعيد الثقافة والفكر، والفلسفة فيمكننا أن نذكر "فؤاد صروف" (لبنان) و"سامي الكيالي" (سورية) "يوسف كرم" (مصر) "محمد كامل حسين" (مصر) "قسطنطين زريق" (فلسطين– لبنان) "يوسف مراد" (مصر) "عثمان أمين" (مصر) "عبد الرحمن بدوي" (مصر) "إحسان عباس" (فلسطين– لبنان) "مصطفى الأشرف" (الجزائر) "صلاح خالص" (العراق) "محمد عزيز الحبابي" (المغرب) "مطاع صفدي" (فلسطين – سورية).

أما على الصعيد الثقافي العام، والأدبي بشكل خاص، فقد ظهرت أسماء كثيرة نذكر منها "طه حسين" (مصر) "محمد حسين هيكل" (مصر) "محمود تيمور" (مصر) "محمد مندور" (مصر) "عمر فروخ" (لبنان) ، "عمر فاخوري" (لبنان) "أحمد رشدي صالح" (مصر) "محمود مسعدي" (تونس) "لويس عوض" (مصر) "حسين فوزي" (مصر) "توفيق الحكيم" (مصر) (نجيب محفوظ) (مصر) "محي الدين

صابر" (السودان) "نازك الملائكة" (العراق) "عبد الله العلايلي" (لبنان) "نزار القباني" (سورية).

ويمكننا أن نلحق بهذه القوائم من الأسماء التي ظهرت على الساحة العربية، ملحقاً يقودنا إلى بداية السبعينات من القرن الماضي.

فعلى الصعيد السياسي والاجتماعي: "مهدي بن بركة" (المغرب) "محمد حسنين هيكل" (مصر) في (الفكر الصحافي) وأخيراً ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية ذي الطابع الليبرالي أيضاً[١].

وزبدة القول إن التيار الديني، ومشروعه النهضوي- الإسلامي أو الإحياء الإسلامي والذي بدأ كماقلنا منذ منتصف القرن التاسع عشر، كان موقفه من الحداثة الفكرية وأنوار الغرب، موقفاً معقداً، تناوب بين التوفيقية، والرفض والقبول، والحذر، أو حتى الصراع بلا هوادة مع الإيديولوجيات الغربية الواردة وقد وجد التيار الإسلامي من مكتسبات الغرب الفكرية والإيديولوجية موجودة في باطن النصوص الدينية الإسلامية، كالإسلام له اشتراكيته، (بلا كفر ولا إلحاد) وفيه ديمقراطيته والأمر شورى، بلا شطط في الحرية والانفلات، وفيه رأسمالية وتراكم الربح بحدود الحلال والحرام بلا جشع، ولا طمع، ولا حسد، وفيه تفكير وتأمل فلسفيّين بلا خروج عن الإيمان، وهكذا.

أما بالنسبة إلى التيار الليبرالي المحض، والمنفتح، فرغم تبنيه قيم الحداثة منذ نشوئه في منتصف القرن التاسع عشر، فلقد تجسدت أزماته وخاصة في إقتدائه بالتجربة التنويرية، والحداثوية الغربية،

---

(١) Ahawar Abdel - Malek – ibid .

وقد دعى هذا التيار إلى الاقتداء بروح التقدم الغربي، وذلك بـــالأخذ بالتفكير العلمي، والعقلانية، والليبرالية السياسية، وكان هـــدف هـــذا التيار، إبداع مجتمـــع عصـــري، شـــبيه بالمجتمعـــات الأوروبيـــة، والأمريكية، مجتمع منفتح على قيم الحداثة، ولكن مع عدم المســـاس بالتقاليد التراثية، وهذه النقطة يمكن الوقوف عندها، أعني: الاحتفـــاظ بالتقاليد السلوكية، والاجتماعية وحتى القيم الدينية التي لا تشكل عائقاً أمام مشروع التقدم"[1] في العالم العربي.

رافق التفكير في بناء الحداثة العربية في العالم العربي، تفكـــير في جعل التراث واقعاً ووعياً وطنياً، وقومياً، وتعبيراً عـــن الهويّـــة، و"بات النظر إلى التراث العربي- الإســـلامي وجـــهاً مـــن وجـــوه الإشكالية "الحضارية" والثقافية العربية لحـــاضر الوطـــن العربـــي، ولمستقبله، وقد ارتبطت بـــهذا جملـــة مـــن المواقـــف الأساســـية، والتصورات الخاصة المتعلقة بمسائل (الشخصية التاريخية)، و(الذات القومية) و (الذات الحضارية) و(الخصوصية) والهويّـــة و(الأصالـــة والمعاصرة) و(الإسلام والحداثة) وغير ذلك من المفاهيم، والثنائيـــات المتقابلة، والتي أريد لها أن تتوافق أو تـــتراكب، أو أن تتمـــاهى، أو تتدافع، وتتناقض.

وقد ترتب على ذلك أن قضية التراث الفكري العربي في العصر الحديث لم تكن في كل وجوهها قضية نظرية خالصـــة، أو قضيـــة علمية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإنما كانت إلى حد بعيـــد قضيـــة إيديولوجية (معيقة، بشكل عام، أمام الأخذ الجـــاد بأســـباب الحداثـــة

---

[1] ibid p 11

الفكرية) ولا يعود ذلك إلى ارتباطها بالمقدس، وبالماضي العربي فحسب، وإنما لارتباطها أيضاً بأسباب عملية..[1].

لقد وُظف التراث توظيفاً إيديولوجياً سواء في التيار الإسلامي أم في التيار الليبرالي أم القومي، ووّظف من قبل السلطات السياسية والسلطات الثقافية التقليدية والتي تدعي هذه الأخيرة أن ما يرد من الغرب من حداثة فكرية هو في واقع الأمر غزو فكري يجب مقاومته. وهو شكل من أشكال الاستعمار الفكري[2].

٣- التيّار القومي :

هل ينفي الفكر القومي بناء عقل الأمة وتنمية عقلانيتها ؟

١- ساطع الحصري :

استحوذت فكرة "القومية العربية" على عدد كبير من مثقفي بلاد الشام عقب فشل الثورة العربية (١٩١٦)، فقد رأى ساطع الحصري (١٨٨١-١٩٧٠) أن الأمة العربية يربطها التاريخ، ووحدة اللغة، وعمل منذ ذلك التاريخ على تأسيس فكر قومي عربي "مستفيداً من

---

[1] برنامج الأمم المتحدة الأنمائي للصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي (تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام (٢٠٠٤) ص١١٤ .

[2] مثال ذلك كتابي الدكتور "عمر فروخ" التبشير والاستعمار في البلاد العربية) (لبنان) وكتاب الدكتور" محمد البهي" الفكر الإسلامي الحديث وحملته بالاستعمار الغربي) (مصر) وكلا الكتابين صدرا في الستينات من القرن الماضي.

ثقافته وتأثره بالفلسفات القومية الألمانية ، والإيطاليـــة ، والتجريبيـــة الانجليزية والثورة الفرنسية، ودراسته للفلاسفة الغربيين مثل "كـــانت" و "هيجل" و "فيخته" و "ماتزيني" وسياسة "بسمارك" ، وعمـــل علـــى تأسيس فكرة القومية التي تقوم على وحدة اللغة والتـــاريخ، والإرادة المشتركة، والمصالح والمنافع المتبادلة، جاعلا الدين مـــــن عوامـــل الضعف، وعمل كذلك على تطوير الفكرة النهضوية التنويرية حـــول الدولة القومية الليبرالية، والديمقراطية العلمانية، مبعدا الديــــن عـــن السياسة، ومؤكدا على دور التربية كعامل مؤسس على بناء الفكـــــرة القومية وتعميمها".[١]

وقد وجه الماركسيون العرب نقدهم إلى فكر الحصري نـــاظرين إليه على أنه قد أغفل دور الطبقة العاملة في النهضة القومية[٢]، وقـــد رأى فيه صاحب – الحداثة العربية رائدا للتنوير، والعقلانية. عـــاملا على تعميق نظريته القومية في مفاهيمها الإنسانية والثقافية، حيث لـــم يصب بالإحباط بعد فشل الوحدة الســـــورية – المصريـــة (١٩٦١) والهزيمة أمام إسرائيل (١٩٦٧)[٣].

نعتقد أن انشغال الحصري بالفكرة القومية ودعوته النبيلة إليها فـــي وقت أحيطت بالأمة العربية بالأطماع الاستعمارية والصهيونية، مـــن كل جانب لا يجعله هذا الموقف رائدا للتنوير والعقلانية، لأن هذيـــن

---

[١] – محمد سعيد طالب ، (الحداثة العربية – مواقف وأفكار) فصـــل القوميـــة العربية – النهضة والوحدة، نشر دار الأهالي بسورية – دمشق . ط١ (٢٠٠٣) هـ ٩٩ – ١٠٠ .

[٢] – م . س ص١٠١ .

[٣] – م . س . ص ١٠١ .

العاملين المهمين في التقدم الفكري والاجتماعي يحتاجان إلى تكريس كامل لجهود المثقفين لتأسيس مبادئهم، عليهما وجعلهما جوهر النهضة الشاملة، والحداثة لاترتكز فقط على الفكرة القومية. ونميل مع صاحب كتاب الحداثة إلى اعتبار "الحصري" في نهاية المطاف "مصلحاً اجتماعياً، ومفكراً نهضوياً علمانياً، ومؤرخاً للنهضة القومية العربية في الدولة العثمانية، على الرغم من أن قضية الديمقراطية لم تشغل فكره كما قال مؤلفنا، وكذلك المضمون الاجتماعي للقومية العربية، فقد ظل همّه الوحيد القضية القومية والوحدة العربية.[1]

زكي الأرسوزي :

تلتقي في هذا المجال مع "جيل ثان" من النهضويين القوميين الذين برزوا على الساحة العربية، وخاصة في منطقة (الشام). ومن هؤلاء يمكن الوقوف عند بعض الشخصيات التي تركت بصماتها على صعيد الفكرة القومية العربية خاصة، أعني زكي الأرسوزي الذي اعتبر مناضلاً، ومثقفاً، واجه الاستعمار الفرنسي، والمطامع التركية في لواء اسكندرون (مسقط رأسه).

لقد استكمل صاحبنا دراسته في فرنسا مطلعاً على الثقافة الفرنسية، والفلسفة المثالية الألمانية، وبخاصة رسائل فيخته إلى الأمة الألمانية. وفلسفة "هردر" اللغوية ثم الفلسفة الفرنسية، وفلسفة "برغسون" الروحية[2]. كل ذلك شكل "الخلفية الفكرية" لفلسفته القومية ومفاهيمه لها.

---

[1] - م . س . ص١٠٢ .

[2] - م . س . ص١٠٢-١٠٣ .

يتحدث الأرسوزي كثيراً عن دور اللغة في تكوين الشعور أو الوعي القومي، ويرى إن عبقرية الأمة (العربية) في لسانها.[1]

ويقدم كثيراً من الأدلة والبراهين اللغوية على عبقرية الأمة العربية ثم يعرّج على دور الوراثة والدم وكونهما الوسيلة الوحيدة لنقل خصائص الأمة ومميزاتها النفسية والعبقرية من جيل إلى جيل، ويصف هذا الدور الاستثنائي في تكوين الأمم وصفاً أدبياً إنشائياً طاغياً، مُبعداً دور العلم والعقلانية في تطوّر عقل ووحدة الأمة. فالأمة عنده كائن حيّ يتمتع بالخلود المطلق، ويفصح عن تجلياته عبر المراحل التاريخية في لغته أساساً.

"فاللغة، و(فقه اللغة) هي مستودع الفضائل والتاريخ والعقل والعبقرية"[2] يُفصح "الأرسوزي" عن دور " الكلمة " وليس دور "الفعل" Action، في الفكرة القومية والوحدوية ولعل الطامة الكبرى لدى مفكرنا القومي هو تركيزه على دور الوجدان، والحدْس في الفكرة القومية، وقد اختار من خلفيته الفكرية التي تلقّاها ما يناسب الجانب الروحي في ثنائية التراث والحداثة، أعني:

"الفلسفة البرغسونية" وتركيزها على ما تدعوه بالطاقة الروحية ومصدر التجربة الفلسفية البرغسونية أي: الحَدْس " تنطلق القراءة الأرسوزية من – الحَدْس – الذي هو أعلى من العقل، واشمل وأكثر تقنية، وهو صفة رحمانية لا تيسّر لكل الناس، فقط الأنبياء والمفكرون الملهمون والعباقرة هم القادرون على فهم تجليّات اللغة، وفكّ أسرارها، فكلمتا أمة، وأم ،ترجعان في العربية إلى مصدر

[1] – م . س . ص ١٠٢

[2] – م . س . ص١٠٣ .

مشترك هو (أمّ) أي قصد ،والأمّ في أسرة هذه الكلمات هي صـــورة الأمة الحيّة،فكما يصدر عن الأم أبناءها يتجهون إليها كمنهل للحياة.

كذلك الأمّة في الحَدْس العربي هي مصدر الأخوّة في المجتمع، وهي غاية ما يصبوا إليه الإخوان من أمنية، مثلها كمثل الأم ذاتـــها، فالأمة بحسب هذا الحدس هي الوجدان الذي تصدر عنه المُثُل العليـا، والذي تقدّر بالنسبة إليه قيمة الأشياء"[1].

عبارات جميلة ومفهومة، تؤكد على دور الحَدْس، والوجدان فــي تكوين الأمة القومية وتهمل أو تهمّش دور "العقل" أو التربية العقليـــة في ترسيخ الفكرة القومية أو بعبارة أخرى ترسيخ الفكـــرة القوميـــة، والأمة، والوحدة بالتربية العقلية لإقناع الأجيال بأن القوميـــة " عقـــل (حضارة وتقدّم) وأن الوحدة مصلحة جميع الشـــعوب العربيـــة، وأن عناصر الأمة هـــي تراثـــها المشـــترك وإرادة العيـــش المشـــترك، ومطامحها المشتركة في التقدّم الحضاري ومســـاهمتها فـــي التقـــدم الإنساني.

يمضي الأرسوزي في اللغـــة الإنشـــائية، وتقديمـــه الصلـــوات والسُبحات الروحية على مذبح الأمة قائلاً "إن الأمة هي إحدى تجليات السماء التي جذرها في العلاء، وتجلياتها في المجتمع، وهي ينبـــوع الشعوب السامية كافة، عالم بذاته، لايأفل نجمه منذ ظهور الإنســـان على مسرح التاريخ، مثلها كمثل أصل الوجود، وقد تبدو حيناً مفكّكة، متناثرة، أبناؤها منزوون في قوقعة الأنانية، إلا أنها لا تلبـــث حتـــى يسطع بها نبيّ أو زعيم، فينبعث بها من جديد، ويلقى النور الحـــاصل من تأججها شفقاً على العالم أجمع"[2]. "أن الأمـــة العربيـــة عبقريـــة

---

[1] – م . س . ص١٠٣

[2] – م . س . ص١٠٤

أبدعت بيانها إبداعاً، أفصحت به عـــن حقيقتـــها، فـــأصبحت بذلـــك كالقصيدة التي توحي بانسجام ألفاظها وجود الفنان الــــذي أبدعـــها، والحَدْس في الكلمة العربية من صرح الثقافة التي هي بمثابة البـــذرة من الشجرة، ويقوم الخيال باستجلاء الحَدْس مقام البيئة فـــي إنمـــاء البذرة مما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الأمة ليست كغيرها محصّلـــة لظروف تاريخية، أو جملة ذكريات وأماني،بل إنـــها معنـــى يبـــدع تجلّياته ويوجهها حسب وجهة في الحياة، وصورة الحَـــدْس النفســـية هي: الشعر والحكمة والفن"[1].

يضفي "الأرسوزي" ككثير من المفكرين القوميين العرب علـــى لغته القومية أنواراً قدسية، ويرى في الأمة العربية تجليات المطلـــق ويرى فيها تجليات العبقرية اللامتناهية في المكان، والزمان، وترفـــد اللغة الصوفية وشطحاتها خيال المفكر القومي لينطلق محلقاً في سماء العربية لغة، وقومية، وروح أمة، كل ذلك أمام واقع عربي متـــأزّم، متخلّف، مقطوع الصلة بتراثه الحضاري، وتراث الأمـــم المتقدمـــة، وواقع، كان ولا يزال، يتطلّب التحليل والفـــهم والتشـــخيص الســـليم لمفاصلة المتهرئة بغية انتشاله من وهدة التأخر.

ويمكن أن نسجل هنا ما رواه صاحب كتاب (الحداثة العربيـــة) الآنف الذكر ما يلي :

"عند حديثه عن حزب البعث الـــذي أسسّـــه الأرســـوزي (١٩٤٠) يقول" سامي الجندي " (كنّا عرقيين معجبين بالنازيـــة نقـــرأ كتبـــها ومنابع فكرها وبخاصة "هكذا تكلم زرادشت" لينتشه ، وخطابات إلـــى الأمة الألمانية "لفيخته"، ونشوء القرن التاســـع عشـــر ل . هـــــ . أ

---

[1] - م . س ص١٠٤ .

"شمبرلن"، وكنّا أوّل من فكّر بترجمة كتاب "كفاحي" "لهلتر" كنا مثاليّين نقيم علاقة المجتمع على الحب، وكان الأستاذ (الأرسوزي) يتحدث كثيراً عن المسيح، وأظنه تأثر بكتاب ينتشه (نشأة التراجيديا اليونانية) وكان يرى الجاهلية مثله الأعلى، ويسميها المرحلة الذهبية.."[1].

لا أدري إن صح حديث الجندي "أين يكمن الانسجام بين : النازية العرقية ودعوة المسيح الروحية التي تدعو إلى الوئام الإنساني"، والحب والمحبة، والأخوّة الروحية.؟

وخلاصة الموضوع في أفكار الأرسوزي أن "مفاهيمه القومية، والفلسفية مثالية ولدنية رحمانية مختلطة، وملتبسة تخدقها إشكالياتها المعرفية والمنهجية لتجعلها عرقية، شوفينية تقدّس الغريزة، والحَدْس واللاعقلانية في تصوراتها وتقديسها الأمة العربية، ولتضعها فوق الأمم الأخرى بلغتها المتفوقة، ورسالتها الثقافية والحضارية، رسالة النبوّة التي نقلت العالم من البربرية إلى المدنيّة".[2]

٣- ميشيل عفلق : وريث الفكرة القوميـة النهضوية (١٩١٠ – ١٩٨٩ م) .

* الخلفية الفكرية :

" في ندوة أدارتها جريدة "البعث" بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس حزب البعث ١٩٨٧ م قال الدكتور "بديع الكسم" أن عفلق قد تأثر بعمانوئيل مونييه، أبرز ممثلي الفلسفة الشخصانية الفرنسية،

---

[1] – م ز س ص١٠٥

[2] – م . س ص١٠٥

ويمكن أن نضيف على هذا بالقول بأن أفكار البعث التي حملها الأستاذ (عفلق) أن الحزب لم يكن هيغلياً، ولا ماركسياً ولا مزيجاً منهما، بل موقفاً جديداً، متكاملاً يرفض المثالية، وتطبيقاتها، ولا يتوقف عن المادية بل يتجاوزها. وكانت أفكار الأستاذ مزيجاً من : الفلسفات المثالية الألمانية (فلسفة فيخته القومية، وهردر اللغوية) والفرنسية (فلسفة "برغسون" الروحية، والشخصانية لمونييه، والاشتراكية الاصلاحية لجوريس، وأندريد جيد) ومن الفابيه الانكليزية، ومن الماركسية. ومن القومية العربية النهضوية، ومن التراث الديني المسيحي والاسلامي، دون أن يكون مقلداً لأحد أو تابعاً، فقد حرص على أن يكون خطابه القومي ذا سمات وهوية مستقلة"[1].

هذه الخلطة العجيبة والتي تكوّن الخلفية الفكرية للأستاذ، كان من المفترض أن يصدر منها منهج جديد أصيل مختلف عن الأجزاء، لتحليل الواقع علمياً، ووضع التصوّرات، والحلول الواقعية، والدعوة، بكل ثمن، إلى التقدّم العقلي للمجتمع، أو تقدّم العقل الاجتماعي، ولكن انعكاس هذه الخلفية في ثقافة البعث كانت أمراً آخر.

فالشخصانية كفلسفة ظهرت في فرنسا "تمثل نقداً للعقلانية عند مونييه وتمثل يقظة المثقفين البرجوازيين الصغار أمام طغيان الدولة، والعلاقات الرأسمالية ، والتشيؤ، والاغتراب، وانهيار أوضاعهم الاجتماعية إلى جانب صعود الفاشية، والنازية، وتعاظم دور الطبقة العاملة والماركسية كنظرية للثورة السياسية والاجتماعية والدولة الاشتراكية. فكانت الشخصانية عودة إلى الدين، والإيمان، والقيم

---

[1] م . س . ص١٠٩ .

المتعاليـــة، والنزعـــة الإنســـانية ضـــد الرأســـمالية الليبراليـــــــة، والماركسية.."[1].

لقد ظهرت الشخصانية في سياق اجتماعي وسياســـــي وثقـــافي مختلف عن السياق القومي العربي، ومع ذلك فقد عمل الأستاذ علـــى تلفيق بعض الأفكار التي تتناسب وثنائية الحداثة والتراث والتي تجلّت في: الإيمان[2]، والحَدْس، والنهضة القومية الحديثة.

"وقد تأثر الأستاذ عفلق بفكر " مونييه " فـــي الكليّـــات، والطريقـــة، والشكل، فمثله كان ينفر من التنظيم، والنظرية . ."[3].

رغم ميل الأستاذ الشديد إلى العلمانية رؤيتـــــه لـــها كركـــيزة للنهضة إلا أنه كان في الوقت نفسه "مثالياً في التفكير صوفي الحَدْس، لا تهّمه الطريقة والمنهج، ولا يقدم لنا بحثاً فلسفياً متماسكاً ومنـــــهجاً علمياً. ولا طريقة في التحليل التاريخي لبناء نظرية الأمة والثـــورة، والوحدة، ويكتفي بعبارات إنشائية، وجمل بليغة وخطاب مفتوح علـــى كل الاتجاهات والمعاني فالاشتراكية دين الحياة، وانتصار الحياة على الموت، ومهمتها قلع الأشواك لا زرع الرياحين.."[4].

---

[1] – م . س ص ١١١

[2] – انظر فكرة عودة الدين في الفلسفة الشخصانية ، ونقد العقلانية فيها. وكذلـك دور الإيمان في التراث العربي الإسلامي ، ومقولة العقل والنقل . فـــي الفكـر العربي الإسلامي ، ثم العقل والإيمان في المسيحية .

[3] – م . س . ص١١٢

[4] م . س . ص١٠٢

كلمات لا تبنى قاعدة عقلية ، ولا تؤسس لمنهجيـــة علميـــة ولا تمهدّ لتفكير فلسفي، أو علمي في النظر إلى واقع الأمة، أو مستقبلها.

"التاريخ والثقافة (أي الكلمة وقد تجسدت تاريخاً)هما ما يؤســـس للبعث العربي كنهضة ويقظة وحزب سياسي وإيديولوجيا وحدويـــة، والإيمان هو ما يحرك الإنسان نحو المطلق، وهو ما يؤسس لعقيـــدة البعث العربي، وأن أساس عملنا الخالد الذي لا يتبدل هو الإيمان،ولو أعطونا ملك الأرض، ولو أعطونا اليوم، وفي أي وقت مضى الدولـة العربية التي تتحقق فيها أهداف البعث الوحدة، والحرية والاشـتراكية، وقالوا إن الإيمان سيكون مفقوداً من حياة البشر الذين يكونون هـــذه الدولة المثلى، لقلنا إننا نفضل أن نبقى أمة مجزأة ،وأمة مســـتعمرة، وأمة مستغلة مظلومة، ومستعبدة، ذلك أن الإيمان لا يستطيع أحـد أن يفخر بأنه أوجده أو خلقه إنه في أعماق كل إنسان عربي...[1]" الـــخ من الكلام الإنشائي، واللغة الغير علمية، والتفكير اللاعقلي، المشحون بسبحات الخيال، وشطحاته.

وحصيلة القول: "إن الملفت للنظر في سيرة الأستاذ "عفلـــق" الفكرية هو التحوّل من البعث العربي كحركة إحياء ثقافي إلى حركـة سياسية وللانزياح بتقديم السياسي على المسألة الثقافية (أي بناء عقـل الأمة) التي تراجع دورها ولم تخلق سوى حصيلة ضئيلة في ثقافـــة الحداثة العربية (العقلية)"[2].

لقد تكوّن الشعور القومي في الستينات من القرن الماضي فـــي الشوارع العربية بعيداً عن الشطحات الصوفية والروحية، والسـبحات

---

[1] - م . س ص١١٧-١١٨

[2] - م . س . ص١٢٢ ، الكلمات مبين أقواس من وضعنا

الخيالية والأساليب الإنشائية، التي ابتدعها "المفكرون القوميون" منذ بداية القرن الماضي، وقد تجسّد هذا الشعور الشعبي في نبالته وإخلاصه في الإحساس بالانتماء إلى الأمة والأرض والتراث، ولكن سرعان ما انهار هذا الشعور القومي العام أمام الهزائم المتكررة، وعبث السلطات السياسية من ناحية، وعدم بناء هذا الشعور على أرضية عقلانية تقنع المواطن العربي بأنه جزء من الأمّة التي هي (أمّة) تقدّم له ما يلبيّ حاجاته وتعطيه وتغذّيه جسداً، ونفساً وعقلاً، وروحاً كي يترعرع في حضنها، وقد نال حقوقه الإنسانية، وبالتالي يؤدي واجباته إزاءها بداهة وطواعية، انتماءً واحتراماً، وبقناعة كاملة.

ثوريات معيقة للتقدم في العالم العربي:

ليس من الموضوعية العلمية ولا من الإنصاف الفكري ولا من النزاهة الخلقية أن نصف مرحلة تاريخية مهمّة في التاريخ العربي الحديث، والتي امتدت منذ بدايات الخمسينات إلى نهاية القرن العشرين، بالوصف السلبي المطلق، وليس علينا التركيز على السلبيات الناتجة عن هذه المرحلة، والأمر هنا إذن، ليس شطب مرحلة بجرّة قلم، بقدر ما هو نظرة تقترب من الموضوعية، لقد كانت مرحلة غليان في كثير من المناطق العربية، ملأت الثوريات العالم العربي ضجيجاً، وغطّت وسائلها الإعلاميّة سطح المنطقة كلها باللغة البركانية، والألفاظ النارية، وجيّشت الجماهير، وحرّكت المجتمعات العربية (سورية- مصر- العراق- الجزائر- ليبيا) في حراك اجتماعي هادف، وتجاوزت في طموحاتها عنان السماء، وصعدت بالأمة العربية على خشبة المسرح العالمي صعوداً كتب عنه الكثيرون، شرقاً، وغرباً فالمرحلة الناصرية، حققت مكاسب على

صعيد الحياة الصناعية والتعليمية[1] مثلاً، وحققت المرحلـــة البعثيـــة وعياً بإيجابيات التوحيد والتضامن العربيين الثوريين وحققت الثـــورة الجزائريـــة تحريـــراً سياســـياً، وكـــانت مرجعـــاً مـــهماً للنضـــال الفلسطيني..الخ.

كذلك حققت مرحلة الستينات، (العقد الذي تلا ثـــورة ٢٣ يوليـــو ١٩٥٢) بنهضة ثقافية ممتازة، انطلقت من (مصر) لتشـــمل أرجـــاء الوطن العربي، وذلك على صعيد الأدب بمعناه الواسع، (شعر نقـــد- ودراسة .. الخ) وعلى صعيد الترجمة من الثقافة العالمية.(فكر- ثقافة سياسية، اجتماعية، فلسفة، أدب، علوم) الخ . لقد عملـــت الثوريـــات العربية على التغيير في كل مجالات الحياة، ولكنها فشلت في أمريـــن في غاية الأهمية، وهما: "تغيير نمط، أو طـــرق التفكـــير أو العقـــل الاجتماعي، والثاني الاستفادة الواعية من الحداثة الغربية، أو العالمية، لتطوير العقل الجماهيري عن طريق التعليم والإعلام والنشر الثقـــافي الهادف للتغيير.

كانت هذه الثوريات انفجاراً، ولم تكن تخطيطاً، ولم تصاحبـــــها استراتيجيات تغييرية على صعيد بنى الفكـــر، وعقليـــة الجمـــاهير، وطرق تفكيرها.

لقد رأت هذه الثوريات الأمور بعين واحـــــدة، وانطلقـــت مـــن إيديولوجية النضال و"لقد شجع الوضع الاستعماري في كل مكان مـــن

---

[1] إنشاء المصانع، ونشر التعليم كمّا، لا كيفاً – (ديمقراطية التعليم).

العالم العربي انتشار إيديولوجية النضال على حساب الفكر العلمي"[1] ونتج عن ذلك خلق مسافة بين الفكر العربي، والحياة الغربية، ولاسيما أن الفكر العربي قد عُبّئ كله تقريباً من أجل النضال السياسي وحلّ المشكلات العملية على صعيد التنمية[2] وخاصة البنى التحتية، (صناعة، زراعة، تعليم كمي، وإعلام جماهيري سطحي، وأدبيات ثورية وفنون..).

إذن رأت الثوريات العربية في تلك المرحلة الأمور من وجهة النظر السياسية، ورأت الغرب السياسي (الاستعماري) من منظور الرفض، والمواجهة، ولم ترفيه خصماً ورديفاً، وقد نتج عن مطلب التحرر الوطني الذي نادت به الثوريات والمطلب القومي الذي تمسكت به أنها خلقت عبارات ذات مغزى من قبل: "الأصالة" و"القيم العربية الأصيلة" و"التراث الحضاري العربي- الإسلامي، و"مقاومة الغزو الثقافي الغربي" و"الإرشاد القومي" أو "القيم الروحية" و"العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، وأثر العرب في الحضارة الغربية" الخ.. وتشجيع الثقافة الشعبية على حساب الثقافة العالمة.[3]

---

[1] محمد أركون (الفكر العربي) م. م. ص ١٦٠-١٦١ .لم يكن يسمح لأي صوت " يعلو على صوت المعركة " حيث طارت هذه العبارة على شفاه الجماهير الثورية في الوطن العربي

[2] م.س.ص ١٦١ .

[3] لسنا ضد الوعي بأهمية الثقافة الشعبية، ولكن ما حدث في مرحلة الثوريات أن جرى التنقيب من قبل المثقفين الثوريين في باطن الثقافة الشعبية عن مصادر فكر شعبي ومؤيد للثوريات في نضال ضد الثقافة الغازية، وضد "ثقافة النخب البرجوازية".

لم تنشىء الثوريات العربية فكراً انتقادياً إلا على مستوى واحد، وهو المستوى السياسي الموجه ضد الاستعمار الغربي، وكانت مصادر هذا الفكر الانتقادي الواحد، نتفاً من الماركسية المنقولة إلى اللغة العربية، وبعض الترجمات عن المجتهدين الماركسيين العالميين إلى العربية كذلك. لقد شدت ظاهرة الاستعمار[1] أزر عوامل الانقطاع عن "انتصارات الفكر العربي الكلاسيكي وخاصة في استقلالية العقل، وعن انتصار الأنوار والحداثة، ودور العقل في تقدمهما، وقد عمل هذا الانقطاع على الاكتفاء اللامتوازن على بناء الحداثة المادية، وخلق من ناحية أخرى ضروباً من اللاتوازن النفسي الاجتماعي الاقتصادي وتفاقم أحوال التوتر بين التقاليد، بين الحياة الحديثة، دون أن تعوض هذه الظاهرة بإنجاب فكر قادر على تجاوز رؤيته المحدودة، والعمل الجاد على تطوير، وبالموازاة بين البنيتين : الحداثة المادية، والحداثة العقلية.

مرحلة السبعينات من القرن الماضي وحتى نهايته

منذ بداية السبعينيات من القرن الماضي، وحتى يومنا هذا نهض التيار المضادّ والمعاكس للحداثة الفكرية، نهوضاً صارخاً، وشهد

---

[1] شدت ظاهرة الاستعمار من أزر عوامل الانقطاع، كما قال "أركون" (م.س.ص ١٨) ولكنها أي ظاهرة الاستعمار ليست المسؤولة عن الرؤية الثورية القاصرة، ونضالها الوحيد الجانب، وإهمالها التعامل مع الغرب الثقافي لإحداث ثورة في العقل العربي، بل حافظت في ثوريتها على المرجعيات الفكرية التقليدية.

العالم العربي الغلبة للمدّ الديني – الإسلامي[1] وبداية الصحوة الإسلامية، وقد شهدنا المفارقة الكبرى والقائمة على النهم العظيم لمختلف نواتج التقدم العلمي الغربي، والعالمي واستقدام التقنيات، وأنماط التكنولوجيا، ونقلها، وزراعتها، وفي أراضي البلاد العربية وإهمال الجوانب الفكرية التي كانت الأساس لتطور هذه التكنولوجيا، وكذلك إهمال لقواعد التفكير العلمي والعقل الفلسفي الناقد، وقد شهد عالمنا العربي نقلاً هائلاً لتقنيات العصر، وتجديداً في أنماط العمل في الحياة اليومية في مختلف أرجاء الوطن العربي، ولكن لم تشهد تلك المرحلة تجديداً في آليات التفكير الفردي، ولا الاجتماعي، وقد لاحظ واضعو تقرير الأمم المتحدة حول التنمية الإنسانية العربية بأن تطور العالم العربي والمشكلات القومية والسياسية ولاجتماعية والاقتصادية التي طرأت منذ سنوات الاستقلال، أي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية القرن العشرين، ومطالع القرن الجديد، خلفت آثاراً عميقة في جملة الأوضاع المعرفية، والعقلية، والثقافية في البلدان العربية وكان الدين، والتصورات، والفائيات المرتبطة به أحد الوجوه الأساسية التي تأثرت بهذا التطور، وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة برزت في الفضاء الديني الإسلامي في العقود الأخيرة من القرن العشرين وهي تغليب السياسي[2] على الحضاري والإنساني والأخلاقي.

---

[1] مما ساهم في ازدهار هذا المد الديني الإسلامي في المنطقة، اشتعال الثورة الإيرانية (١٩٧٩)، حيث أخذت مدافع آيات الله تتكلم ، مما شجع الحركات الإسلامية على رفع عقيدتها داخلاً وخارجاً .

[2] – لقد ألمحنا إلى هذا التغليب في الصفحات السابقة، وهو موقف قديم في العقلية العربية– الإسلامية.

عند بعض الحركات الدينية، أي أن الغائية السياسية[1]، قد بـلـت عند تلك الحركات هي المقصد الرئيسي لمنظومة الإصلاح، والنهضة الإسلامية، وهي التي ينبغي أن تتقدم عندها، على جميـــع الغائيـــات الأخرى، الاجتماعية، والاقتصادية المادية وغيرها.. وقد بلغت حالـــة التقابل والمواجهة مع (الغرب) على وجه الخصوص أشـــدها غـــداة أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ").[2]

في الثمانينات والتسعينات جاء السـباق العـالمي، بعـد سـقوط الأنظمة الشيوعية ونهاية الحرب الباردة، ملائماً للمـدّ الدينـي فـي المنطقة، حيث ظهر ما دعاه بعض المفكرين بـ "عودة المكبوت" أي المكبوت الديني الذي كان كامناً في مرحلة الحكم الشـيوعي طـوال سبعين عاماً في أرجاء الإمبراطورية السوفياتية وأخـذت الشـوارع الأرثوزكسية تعبر عن نفسها، وكذلك البروتستانتية والكاثوليكية.

وقد تجلى تأكيد الوجه الديني للصراع في حروب البلقان (البوسـنة والهرسك وكوسوفو وألبانيا في يوغسلافيا السابقة..).

---

[1] – إن انصراف الحركات الدينية نحو النظر إلى الغائية السياسية يجعلها تنظر إلى الغرب السياسي والتركيز عليه.

[2] – تقرير الأمم المتحدة، ص ١١٩ نعتقد أن هذه المواجهة مصطنعة من قبـــل أمراء الحرب في اليمين الأمريكي المتطرف، وقد ظهرت سناريوهات كنظريـــة "صراع الحضارات" Calsh of Civilizations للتنظير ، ولتبرير هذه المواجهـــة. لتحقيق أهداف سياسية استراتيجية قريبة وبعيدة المدى، ليـس مـن شـأن هـذه الأوراق الدخول في التفاصيل.

الفصل الخامس

من الدفاع المشروع عن الهوية إلى الدفاعات الوهمية

اختلطت في التفكير العربي، والإسلامي منذ عصر "النهضة" وبداية الاتصال بالغرب،المطالب الوطنية، والقومية، والإسلامية،والحضارية،والمطالب "مركزية القومية والإسلامية"، وأخيراً الهويّة الثقافية.

تاريخياً، أخذت المطالب الوطنية والقومية، والتي تجسدت في الخطاب العربي الإسلامي في استقلالية الدول العربية من نير سلطات الخلافة العثمانية- أخذت صيغ المطالبة بالتحرر، والاستقلال، (تحرر النحن) من نير سيطرة الآخر، وقد صاغ الوطنيون في تلك الفترة خطاب اللاوعي الجمعي، المطالب بالحرية، والعدالة، رغم أن الإسلاميين اختلفوا فيما بينهم حول الاستقلال عن الخلافة العثمانية الإسلامية، والتي اعتبرها المحافظون الإسلاميون أنها تمثل الخلافة الرشيدة، ولا يجوز تفكيك الإمبراطورية، ولا إحداث الفتنة في العالم الإسلامي، تحت مسميات وطنية، وقومية عربية، أو عروبية.

ولكن سرعان ما استشرت المطالب "التقدمية" آنذاك، والتي أشهرت نوعاً من المواجهة، والصراع ضد السلاطين العثمانيين، وظهرت بوادر الحركات، والجمعيات المختلفة في أراضي الإمبراطورية، وتشكلت لتطالب بالتحرر، ورفع راية العصيان، ومواجهة سياسات التتريك، والقومية الطورانية، والتشدد التركي العثماني في مقابل يقظة الوعي القومي العربي.

وفي تلك المرحلة، كانت الإمبراطورية العثمانية تعاني من مرض مزمن، حتى لقبها، كما قلنا سابقاً، بعض المؤرخين بـ"الرجل المريض" الذي يجب على القوى الأخرى أن تتخلص منه وفي تلك الأثناء ظهرت أفكار الثورة الفرنسية على الساحات العالمية تحت شعارات: الحرية الأخوّة- العدالة، وجاءت الحملة، وكانت الإمبراطوريتان البريطانية، والفرنسية تطمعان في السيطرة على تركة الدولة العثمانية المنهارة، فبدأ الاختراق الأوروبي للمنطقة العربية، وقد حدثت حادثة كبرى في تلك المرحلة، وهي:حملة "بونابرت"على مصر ١٧٩٨"، والشام ، و"كان لهذا الحَدثْ مداه الثقافي، حيث أفسح المجال أمام انتشار المبادئ الجديدة للثورة الفرنسية في الأراضي العثمانية، وهي أول حركة فكرية أوروبية تجتاز الحاجز الذي كان قائماً بين: "عالم الكفار"، و"عالم الإسلام"، وأثر تأثيراً عميقاً في فكر المسلمين، وسلوكهم، وكان ذلك أول انقلاب اجتماعي وفكري في أوروبا يعتمد على فكروية (إيديولوجيا) معبّر عنها بعبارات غير دينية- لم يكن للحركات الأوروبية السابقة مثل: النهضة والإصلاح- الثورة العلمية، أو ثورة الأنوار، أي أثر في العالم الإسلامي، الذي لم يكن قد ألم بها أو حتى أنه لحَظَها، وربما يكون السبب الرئيسي لذلك كونها حركات مسيحية نسبياً في طريق تعبيرها، وبالتالي كانت دفاعات الإسلام الفكرية تحظر عليها أي دخول..حتى أنها كانت تأمل أن تجد هذا النوع من الفكروية العلمانية، أو بالأحرى المحايدة دينياً، طلسماً يمكنه أن يمدّها بأسرار العلم والتقدم الغربي دون أن تعرّض للحظر طريقة حياتها وتراثها"[١].

وكما لاحظنا في لوحة الأحداث السياسية التي سجلناها سابقاً (الشروط الجديدة للحياة الحديثة في العالم العربي- الفصل الثالث) أن

---

[١] داريوش شايغان (النفس المبتورة. م. م. ص ٣١) .

الاختراق الأوروبي، أخذ ينمـــو، ويتطــور انطلاقــاً مــن الحملـــة (البونابرتية) ليصبح استعماراً عسكرياً، مدمّراً للمستعمرات العثمانيـــة التي استولى عليها.

وفي منتصف القرن التاسع عشر في مرحلة التفكير الأوروبـــــي في اختراق العالم العربي، والإسلامي برزت ظـــاهرة مـــا يســـمى "بالنهضة"كما قلنا سابقاً، وكان "الهم السياسي" والاجتماعي والفكـــري مسيطراً على عقول رواد النهضة آنذاك. وظهرت بوادر المواجهـــة بين حضارة غربية، قوية مادياً، وفكريـــاً، وعســكرياً، وحضـــارة عربية- إسلامية تعيش في أذهان رواد النهضـــة، وفـــي لا وعـــي الشعوب العربية الإسلامية- كتراث، وحضارة ما زالتا حية في ثـوب عقيدة إسلامية حيّة كانت الباعث عليها والدافع لنموها، وازدهارهـــا ومن هنا نشأ "وعي ذاتي" أو "وعي بهوية، وخصوصيـــة عربيـــة- إسلامية" يمكن لأصحابها مواجهة الأخربها ، ومن هنا أيضـــاً أخــذ رواد "النهضة" الذين يمزجون تكوينـــهم الفكــري بيــن الأصالـــة، والحداثة. فالأصالة هي في الحفاظ على التراث العربـــي الإســـلامي وإحياء الإسلام ليكون الإطار الشامل لنهضة شاملة، لأنه يمثل الهوية الحضارية التي لا يمكن إلغاؤها، والحداثة هـــي الأخــذ بمكتســبات المدنية الأوروبية، والأفكار الأوروبية التي تثري توجهات النهضـــة العربية نحو النهوض.

أما على صعيد المواجهة الفكرية مع الغرب، فلقد ظهرت فـــي تلك المرحلة بعض الكتب لرواد النهضة تشكل حواراً تصادمياً مـــع الغرب من قبيل (الإسلام والمدنية- للشيخ محمـــد عبـــده) ورســـالة التوحيد- للشيخ محمد عبده كذلك) و(الرد على الدهر بيـــن للشـــيخ جمال الدين الأفغاني) وكتابات أخرى تنشر الثقافة العلمية الغربيـــة. (كتابات شبلي يمثل، وفرح انطون) وغيرها كذلك عملت على بعـــث

الأفكار العقلانية في أعمال المؤلفين العرب فـــي الـــتراث العربـــي الإسلامي، وإظهار شخصيات عربية إسلامية تنويريـــة- والتركـــيز على العقلانية الفلسفية (الأعمال المتعلقة بابن رشد، وطرق المعتزلة) وأدبيات كثيرة في هذا المجال، كل ذلك للتأكيد على وجـــود الهويـــة العربية الإسلامية الحضارية السّباقة لحضارة الغرب.

وفي تلك المرحلة التاريخية كذلك بدأت الأعمـــال الاستشـــراقية الأوروبية خاصة تنشر هنا وهناك،منها ما يـــبرز بعـــض جوانـــب الأصالة والتقدم في الحضارة العربية الإسلامية ومنها من ينتقص من إبداعات العرب والمسلمين معتبراً إياها نسخاً من إبداعات الفـــرس، واليونان، والرومان، والهند إلخ... وكانت الأدبيات العربية تتلقف في غالبيتها ما يشيد بهويتها الحضارية من أعمال المستشرقين، ومنها أي الأدبيات العربية والإسلامية مـــن يعمـــل علـــى تفنيـــد مـــا يقولـــه المستشرقون المغرضون وهذا التفنيد يخفي، مما لا شك فيـــه فكـــرة الدفاع عن الهوية الحضارية العربية أو العربية الإسلامية، وقد كبرت هذه الموجة، لاحقاً في الستينات من القرن العشرين أعنـــي الـــهجوم الاستشراقي والهجوم العربي الإسلامي المضاد.[1]

وأصبح المثقفون المسلمون يصورون المستشرقين علـــى أنـــهم كائنات خطرة، ويدللون على فساد تفكيرهم، وتوجهاتهم المغرضـــة، وصهيونتهم، وأخيراً نزعتهم الإمبريالية أو كونهم الممهدين للاستعمار معرفياً[2].

---

(1) انظر من قبيل التذكير أعمال د. محمد البهي (مصر) ، د. مصطفى السباعي (سورية)

د. محمد فروخ (لبنان) .. الخ .

(2) انظر إدوارد سعيد في كتاب (الإستشراق) Ed. Said , Orientalism .

بدأت الإمبراطوريتان البريطانية، والفرنسية ترسل بجيوشها إلــى قارتي العالم القديم: (آسيا، وأفريقيا) وتطبق، بالتوافق والانسجام بيــن هاتين الإمبراطوريتين استراتيجية السيطرة على العالم القديم، وخاصة التركة العثمانية، (العالم العربي- الإسلامي) (انظــر غــزو شــمال أفريقيا- وشبه القارة الهندية- وقارة أفريقيا- وجنوب شرق آسيا).

باقتراب شبح الحرب العالمية الأولى (١٩١٤- ١٩١٨) أخــذت الإمبراطوريتان الفرنسية والبريطانية رغم صراعهما الخفــي علــى مناطق النفوذ، تعملان على دعوة المستعمرات العثمانية، وتشــجيعها على المطالبة بالتحرّر، بل ودعوتها إلى العصيان والتمــرد (تمــرّد ببلاد الشام، وثورة الشريف حسين في مكّة)[١]

إذا فهمنا أن المطالبة بالاستقلال، والتحرر، من نير الاســتعمار هما شكل من أشكال الدفاع أو بالأحرى الحفاظ على الهوّية (الوطنيــة، أو القومية، أو الحضارية) فهو أمر مشروع، وخاصة أن شراسة الاســتعمار الأوروبي في العالم العربي بلغت درجة "إلغاء" هوّية المنطقــة الوطنيــة والقومية والدينية والحضارية. فدعوة العرب والمســلمين إلــى التحــرر، والاستقلال كانت دعوة نبيلة في وسائلها، وغاياتها.

---

[١] عقد المؤتمر القومي العربي الأول في باريس (١٩٠٥) وقد أصدر "نجيــب غازوري" في باريس ، كتاب بعنوان (يقظة الأمة العربيــة)، وهــو أول كتــاب يتناول البعد القومي للهوية العربية- الإسلامية وفــي (١٩٣٨) ينشــر جــورج انطونيوس (يقظة العرب) توالت فيما بعد كتابات الأســتاذ "ســاطع الحصــري" القومية العربية في الخمسينات من القرن العشرين، وتوالت كتابــات القوميين العرب، ومؤتمراتهم منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا .

لقد تجلت دفاعات العرب والمسلمين عن هويتهم في أشكال مختلفة من المقاومة المسلحة، (المقاومة الوطنية* والمقاومة الفكرية (صراعات الأفكار) لقد تحقق الاستقلال النسبي لمختلف الدول العربية والإسلامية تحت ضغط المطالب الوطنية الذاتية وحدوث ترتيبات دولية في الساحة العالمية، لمنح هذه الدول استقلالها .

١ -الهوية القومية العربية، والهوية العربية الإسلامية والهوية الليبرالية:

ألمحنا في الهامش السابق والصفحات السابقة إلى كتابات الأستاذ الراحل "ساطع الحصري" في القومية، حيث نشر مؤلفنا كثيراً من الكتب في هذا الاتجاه انظر كتابه (العروبة أولاً ١٩٥٥)، و(ما هي القومية ١٩٥٩)..الخ.

وفي هذين العملين يدافع "الحصري" عن الهوية القومية بعد تقديم تعريف لها، دون تعصّب، أو مبالغة، وهو لا ينسى أن يدافع كذلك عن تراث الأمة العربية، ومراحل ازدهارها، ونجوعها كحضارة. وقد توالت في نهاية الخمسينات، وطوال فترة الستينات نشر الكتب في الدفاع عن الهوية القومية العربية، ويمكننا إيراد مثال آخر لا يخلو من مزج بين الدفاع من القومية، والعروبة وخلفيتهما الإسلامية، ففي عام (١٩٥٩) ينشر "محمد المبارك" كتابة الملفت للنظر تحت عنوان: (الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) وتحقيق الذات يعني تحقيق الهوية أو الذاتية العربية الإسلامية، وبعد أن يتحدث المؤلف عن مفاهيم القومية واعتباره القومية حقيقة قائمة، وواقعة، ينتقل للحديث عن الموضوع على الصعيد العربي، حيث يقف عند (العوامل الجديدة في تطور الوعي العربي)، ويذكر عاملين مهمّين في رأيه، وهما: إحياء الثقافة العربية، والتاريخ العربي، وبعث

آثارهما ، والثاني السير المنطقي للتفكير القومي، وكون "الاتجاه القومي في التفكير يسير نحو الخصائص المميزة، والمقومات الذاتية للأمة، وخصائص الحضارة العربية.. "[1].

ثم ينتقل بروح من المركزية العربية الإسلامية للحديث عن رسالة الأمة العربية، وحضارتها وكون المسلمين يحملون رسالة عالمية تملي عليهم نقل الغرب من المادية إلى التوازن الإسلامي بين: المادية والروحانية[2]، ويقول بأن الأمة برسالتها الإيمانية، وخصائص حضارتها الروحية هي منقذة للعالم[3] فالحضارة الغربية مفلسة على الصعيدين الروحي والأخلاقي، وهي غارقة في المادية، وعلى الأمة العربية برسالتها إنقاذ هذه الحضارة، من وهدة السقوط، والضياع، والجاهلية. وهذه العبارات الأخيرة ستشكل مع عبارات أخرى شبيهة بها صدرت عن التيارات الإسلامية ، الخلفية الثقافية ، والفكرية لأمرين هامين في هذا المجال:

١- الدفاع عن الهوّية الإسلامية، والدعوة إلى الحفاظ عليها بأي ثمن أمام الغزو الفكري الغربي، المادي ، أو الملحد أو العلماني..الخ.

---

[1] - محمد المبارك(الأمة العربية في معركة تحقيق الذات) مؤسسة المطبوعات العربية- دمشق ١٩٥٩ ص ٥٧-٥٨ نلاحظ أن كلمة "معركة" في عنوان الكتاب تحمل مضموناً دراميا.

[2] - مؤلف الكتاب كان عميداً لكلية الشريعة بجامعة دمشق في تلك المرحلة .

[3] - انظر القسم الأول من الكتاب والفصل الأول من القسم الثاني ص ٨٦ ، وما بعد .

٢- التصور الساذج ، والقائم علـــى أطروحـــة مفادهـــا أن علـــى المسلمين أسلمة العالم ونقله من الظلمات إلى النور، بغض النظر عن تراجعهم، وتخلفهم، وتبعيتهم، وفقرهم الفكري، والعقلي.

لقد غرق التيار الليبرالي في تغليب الحداثة لاكإستراتيجية فكرية بل كانبهار، وأفكار متناثرة قادمة من الغرب وانصرف نحو اســتقبال الأفكار الواردة من الغرب، ولكن لم يستطع مقاومة المدين القومـــي والإسلامي في العالم العربي، وظل منكفئاً على نفسه في ظل النخــب الثقافية، والعربية رغم تبني السلطات السياسية في العـــالم القومـــي، بعض الأفكار الليبرالية ولكنها، أي السلطات، حاولت دائمـــاً ممـــالأة الشوارع العربية في الحديث عن الهويّة. وتكريس خطابها.

٢-الوجه الآخر للدفاع عن الهوية:

لماذا لم يتمكن العرب، ولا المسلمون بالقبول، على غرار بعض شعوب آسيا، بالمرور الإجباري بمرحلة تعلّم متواضعة، بحيث أمكنهم أن يستوعبوا أوروبا (الحضارية)، وربما إلى تجاوزها؟[١]

استعرنا السؤال المطروح أعلاه من صـــاحب كتـــاب (النفـــس المبتورة) وسنحاول أن نفكر بالإجابة عنه ضمن سياق أفكـــار هـــذا الكتاب: إنه سؤال يوحي بالعجز الشامل.

رفع المسلمون، والعرب، منذ بداية اتصالهم بحضارة الغـــرب، عقيرتهم في مختلف تياراتهم الفكرية والثقافية، والاجتماعية، لمواجهة

---

[١] دايوش شايغان ، (النفس المبتورة) ص ٣٦ قمنا بتحريف زمن بعض الكلمات في سؤال داريوش .

غرب متقدّم في مختلف مجالات الحياة، وليست مواجهتهم كانت مجدية، أعني أنهم سواء في أخذهم من الغرب الحداثة المادية، أو في تأثراتهم الفكرية أو إعجابهم ودهشتهم، عملوا منذ بداية أمرهم بإظهار خوفهم الأكبر من فقدان الهوية وقد أشهروا إسلامهم الأوحد في هذه المواجهة، أعني: الدفاع عن الهوية في وجه الغزو الفكري، وقد جرى سرطان، وحمى هذا الدفاع في أحشاء الأمة ولدى تياراتها القومية والوحدوية، والليبرالية، والإسلامية على حد سواء[1] وليس في تضاعيف الكتب، ولا في أذهان المثقفين القومين، أو الوحدويين أو الليبراليين أو المسلمين مفهوم واضح عن "الهوية" حقاً لقد اكتسب لفظ الهوية جاذبية خاصة في الساحات والمؤتمرات والندوات والخطب الثقافة، والفكرية، والدينية، والعروبية الخالصة، وكل تيار بما لديه من خلفية حول الحفاظ على الهوية، فرح.

فلدى هؤلاء مصطلحات كثيرة منها: "الهوية القومية" و"الهوية العربية الإسلامية" و"الهوية الحضارية العربية" و"الهوية العربية" (والحفاظ على التراث لأنه هويتنا)، إن الحديث إذن، في أول لقاء فكري، أو ثقافي، أو خطاب ثقافي نلقيه في وجه الآخر، وخاصة الآخر القادم من الغرب ، بمعداته الفكرية، والثقافية، والعلمية، هو أننا نريد أن نأخذ من الحضارة الغربية كل ما نريد، ولكن دون أن نضيّع أو نفقد "هويّتنا" ، والمقصود هنا أننا نحب أن تأخذ مكتسبات الغرب وحداثته المادية ولكن، إذا عنى الأمر الاستفادة من المرجعية الفكرية، والعقل المتقدم في العلوم والفلسفة الخ يقول لسان حال أصحاب "الهوية فلدينا تحفظات شديدة، هذا إن لم يكن رفضاً لما هو "قادم إلينا من الغرب على الصعيد (الإيديولوجي) ، ذلك لأن لدينا في حضارتنا،

---

[1] – تحدثت، ولاتزال تتحدث الكتب والمقالات ووسائل الإعلام عن "الخصوصية" العربية، أو الإسلامية أو كلاهما معاً

وتراثنا، وكتبنا السماوية من معرفــة، وفكــر مــا يغنينــا عــن أفكــار، وإيديولوجيات الآخرين، ولقد تشكلت هويتنا بشكلها الثابت، والأبدي إلـــى درجة أننا مستعدين للموت من أجل الحفاظ على بنيتها.

إن الاحتفاظ بالهوية، والدفاع عنها أمران في غاية المشــروعية، ولكن لم يعد مجدياً الحديث عن الاحتفاظ بها، والدفاع عنها بــالأدوات التقليدية القائمة على الأسلوب اللفظـــي والخطــابي، والإنشــائي أو الشعري، فهذه "دفاعات" وهمية، وليست مبنية علـــى بنيــة عقليــة، وليست قائمة على الإنجازات الحضارية المتقدمة التي تبرهن علـــى هويتنا، بمثل ما ندافع عن هويتنا العربيـــة الإســلامية الحضاريــة الماضية المنجزة، فالهوية ليست في الاحتماء بالماضي الزاهر الــذي يبرهن على وجود الهوية، بقدر ما هو تحقيق حاضر زاهر، يعكــس الهوية الحضارية التي نضعها الآن، وتبرهن على هوّية تتجلى بذاتها الحضارية، والمتقدمة"وعلى هذا النحو، يدافع حاضرنا الزاهر، عـــن نفسه بداهة، وطواعية، وتتجلى هويتنا بجلاء لا تشويه شائبة .

الفصل السادس

الانشطار المصطنع بين حداثتين: المادية، والفكرية

أصبح العالم العربي، منذ عصر النهضة، أي منذ أول اتصـــال بيننا، وبين الغرب، حقلاً بائساً، غير مزدهر، ومكاناً مشوّهاً للأشياء، ومنذ ذلك التاريخ، ونتيجة علاقاتنا الدرامية بهذا الغرب، تمّت عمليــة مزدوجة صدرت عن وعي، ولا وعي المجتمعات العربية، أعني بهذه العملية، استدعاء الماضي، المطوي في التراث، وكتـــب الأقدميـــن، والقول بالعودة، والرجوع إلى هذا الماضي الذي كان مزدهراً يومـــاً، ليحل في أرجاء المعمورة العربية، والشق الآخر من هـــذه العمليــة استدعاء الغرب لنأخذ منه ما يجعل حياتنا أفضل، ونعيش حضـــارة "أشياء" ننقلها من سياقاتها العلمية والفكرية، والمفصولة عـــن هـــذه السياقات ، والمبتورة الأجزاء لتجمل واقعنا المختلّ.

لقد مثّل العالم العربي، ومنذ قرنين من الزمن حقـــلاً تجريبيــاً للاختلالات الكبرى، وأصبح العقل العربي، أو بمعنى أدق، الخيـــال العربي، يعيش في اللامكان، ويعيش بمعنى ما، انشطاراً وجودياً، فهو يريد أن يبني جسده بكل تقنيات ومكتسبات الحضارة الغربية، ويرمي بخياله نحو وضع أسطوري، لا صلة له بالحاضر، فالمثقفون العرب، الدينيون، والقوميون، والعلمانيون، كلهم أرادوا ويريدون تأكيد ذاتـــهم الفكرية بأدوات، وأجهزة وآليات الفكر الغربي، والمجتمعات العربيـــة في لاوعيها، الجمعي ، تعيش في حياتها اليومية هذا الانشطار بين ما تمسكه بيدها من أدوات مصدرها الخارج، وتفكيرها المرتـــد نحـــو الماضي بتقاليده وأعرافه وأساطيره، وخرافاته، وأنماط سلوكه.

ولقد ساهمت وسائل الإعلام، وأجهزة التعليم، والتربية، كلها في تكريس هذا الانشطار، في وعي ولا وعي المجتمعات العربية، حتى انقلبت ظاهرة: الأخذ من الآخر، ما يُصلح حياتنا المادية، والمعاشية ورفض ما يلقيه إلينا من أفكار في مزابل واقعنا المشوَّه، الفاقد الشكل، والمدجَّن في كل تضاعيفه ، أصبح بداهة، وأمراً لارجعة فيه.

لقد أورد الكاتب الإيراني "شايغان" مثالاً طريفاً حول عقلية يمكن العثور عليها في أي مجتمع عربي أو إسلامي، يقول "لنأخذ مثالاً على مكاننا المشوّه للأشياء، أن سيارات المارسيدس المستعملة (ولتكن سيارات غير المارسيدس) كتاكسيات في (طهران)، صورة صادقة عن هذا الاختلال، وهذا المثال ليس خاصاً بطهران، فالظاهرة موجودة في كل مكان من العالم الثالث، فالمارسيدس، السيارة الألمانية، لها طابع الذكورة، والرجولة، والأداء الوظيفي، وشكلها الكلاسيكي، إذ يتجنب الاستدارات، والانحناءات في خطوط السيارات الإيطالية، والفرنسية، إنما يمنح لصناعة المركبات متانة معينة أصيلة تجعلها تتخذ صورة الصناعة المميزة، وعندنا تغدو سيارة أجرة في (طهران) لا تفقد فقط السمات التي تميز روحها، إذا جاز القول، بل إن الأثر التفكيكي لحقل الاختلال يجعل السيارة نفسها تعاني من انحطاط البيئة الاجتماعية ، فالخطوط المميزة، والدقيقة تلتوي، تختلط وتتداخل في تشويهات وتحديبات دقيقة جداً ، تؤدي إلى إظهار السيارة في مظهر شيء لا شكل له، وتظهر عليها ألوان فاقعة تشوّه مظهرها، وتجعل منها شيئاً كرتونياً. فهنا، وهناك توضع مصابيح كهربائية صغيرة متعددة الألوان فوق الجوانب الداخلية للسيارة.

وتعلق بطاقات بريدية تمثل غالباً مناظر سويسرية أو صور (الأئمة) (أو صور أولاد العائلة، أو صور أو رموز سياسية) فوق لوحة القيادة إلى جانب باقة أزهار ورقية رديئة النوعية تهزأ بكل

حزن فوق مقود السيارة، وهذه كلها ترف داخل السيارة، تنكره، وتخلق فيه جوّاً بائساً من أجواء عيد شعبي، فتكتسب السيارة حياة ثانية، مضافة إلى وظيفتها الأصلية، لكنها حياة تفضي، حين تنكر وظيفة الشيء إلى تغيير مجال عالم لم يحتفظ من أصله إلا بعلاقات انحطاطه الصارخة المماثلة لتلك النتوءات التي تندد بحزن كبير، بالعيد الذي مر بالأمس.. ونلاحظ ظاهرة أخرى من هذا الرتق للشيء الفاقد وظيفته فالشيء لم يشوه، وتفكك، ويخفض فقط مستوى لعبة قابلة للتلاعب، بل جرى استرداده، وتدجينه بطريق ما[1] ويجعلون منه شيئاً (فولكلورياً على الطابع المحلي والتراثي)، ويضيفون إليه الألوان الوطنية، وأشياء تؤكد الذاتية الوطنية، أو القومية أو الدينية، ويجعلون منه شيئاً خرافياً لكي يردوا عنه العين الشريرة، بواسطة عبارات سحرية أو آيات من القرآن، إنهم ينفخون فيه روحاً ثانية، تغيّبهم عن التفكير في براعة، وإبداع المهندس، والعامل، اللذين كانا وراء هذا التصميم، وتغييبهم كذلك عن نوعية التفكير الصناعي والعلمي اللذين كانا وراء هذا الإنجاز.

إن مثال السيارة المذكورة قد ينطبق على كل ما هو منقول أو مزروع، أو مصدّر، أو مستورد إلى عالمنا من التقنيات الحديثة الفاقدة لروحها الأصلية، والمهاجرة بلا متاع إلى عالمنا، والمبتورة عن سياقاتها الفكرية والعلمية.

---

(1) داريوشو شايفان، م. م. ص ١٢٩ -١٣٠ .

إن هذا المجال الفني والصناعي الذي يجعل الشيء ينحط من خلاله ما يضفي عليه من أشياء سيمّس المثقفين العرب والمسلمين حين يتناولوا أدوات فكر غربي، ويستعملونها خارج سياقها لتبرير أفكارهم، وبنفس الدرجة من التشويه.

التفرنج، والتراث، والحداثة الفكرية :

هل التفرنج في ارتداء الزّي الأوربي، وتنظيم بعض أمور الحياة اليومية، كالحفلات والمهرجانات، واللقاءات، الـخ.. أم فـي الأخـذ بمبادئ التفكير العلمي، وجعلها ذات أثر في حياتنا اليومية، والأخـذ بالنشاط الفكري الفلسفي، والاقتداء بالمناهج العلمية، وتلقين أو تعليـم كل ذلك للأجيال؟

لقد أخذ العرب، والمسلمون بالتفرنج الأول، طوال قرنين ونيّـف من الزمن. وربما لأنهم وجدوا أن في ذلك أيسر السُبُل لتحسين أمور حياتهم، وتكيفهم مع الحداثة وربما كذلك لأنهم فهموا أن فـي نقـل الأفكار، وتبنّي شروط التفكير الحداثوي خطر على عقولهم، ويشـكل ضربة قاسمة لهويتهم الثقافية، ويشكل جرحـاً نرجسـياً لاعتدادهـم بمقومات ماضيهم الحضاري، والذي كان يوماً متجاوزاً في ازدهـاره الحضارات الأخرى.

لا شك أن بناء الحداثة المادية، وتنظيم كثير من مظاهر البّنـى التحتية هيّن بالمقارنة مع بناء الحداثة العقلية، التي تتطلـب زمنـاً، وجهداً، ووعياً بالأسس الضرورية للبناء الحضاري.

لقد تخيّل العرب أن العلاقة بين الحداثة، والتراث هـي علاقـة خلل، وعدم توازن، ومالوا بخيالهم نحو تفضيل الـتراث، واختـاروا الدفاع عنه، ووجدوا في ذلك حلاً ظاهرياً، ووصموا فـي أكثريتـهم المتغرّبين، والمتفرنجين اللذين نادوا بتحييد التراث الماضي، والأخـذ بفكر الحداثة، بالعداء، والمواجهة، فوصف هؤلاء بأتباع الغرب حينـاً وبالمنبهرين به تارة أخرى، أو بأذيال المستعمر، اتهمّوا بوطنّيتهم في بعض الأحيان.

"عملياً كانت الحداثة من صنيع العلمانيين، وكان إدخالها بلا شك من صنيع هؤلاء الذين كانوا يعون تأخر المسلمين، فراحوا يبذلون قصاراهم، كما هو الحال في كل الأنحاء الأخرى من العالم الإسلامي، لإيجاد تسويات بين الإسلام والحداثة"[1] وكذلك كان موقف الليبراليين في عصر النهضة العربية، وما تلاها من مراحل تاريخية إذ كان هؤلاء بدورهم يدعون إلى الأخذ بأفكار الحداثة كالحرية والعدالة وتنظيم دستور الدول، والتفكير الحر، وحرية التعبير، ولكن مع عدم التخلي عن الذاتية العربية-(الهوية) الإسلامية، وتراثها، والافتخار بالمراحل الزاهرة في التاريخ العربي والإسلامي.

لقد كان موقف العلمانيين يذهب إلى الطرف الأقصى في رفضهم الدين، ورجاله، وكانوا مسحورين بالغرب، وواعين للتأخر، ومهتمين بمعالجته وذلك بأخذهم بالمفاهيم الحديثة، أما الليبراليّون الذين قالوا بالمنظومتين: الغربية- والعربية الإسلامية "فكانوا يتجاهلون نقطة كبرى: واقع أن العقل الجديد المدمج في القانون الغربي الحديث ما كان بإمكانه التفتّح حقاً إلا على حساب الدين، والقول أن أحدهما غير متعارض مع الآخر لا يقودنا إلى أي مكان، لأننا لا نستطيع الحفاظ على الاثنين معاً، نظراً لأن حقل تمانعهما الفارغ يقف بينهما، وهذا لا يمكن إخفاؤه حتى مع أفضل نوايا الناس."[1]

والواقع لم يذهب العلمانيون، ولا الليبراليون نحو "إعادة نظر في أسس الدين، أو نسف قواعد مؤسساته، أو التفكير في نقد أسس الوحي". وبشكل علمي، ناقد، موضوعي ونزيه، ومع ذلك فقد واجهوا

---

(1) دار يوش شايغان، م.س.ص ١٩٧-١٩٩

٢ - م.س.ص ٢٠١

ردة الفعل الدينية واعتلى المتدينون الأصوليون عـــرش المواجهـــة، والرفض العنيف للحداثة الفكرية، ووضعوا القـــانون الإلـــهي فـــوق الجميع، وقالوا بسمّوه، على قوانين البشر.وظهرت من هؤلاء شـرائح بشرية مسعورة، مغسولة الفكر والدماغ، تمضي نحو الفعل المباشـــر في المواجهة، تطالب بإزالة السلطات القائمة، وتصـــف المجتمعـــات العربية- الإسلامية الراضخة "للغرب الاستعماري" بالكفر، والإلحـــاد، ورجعت في خطابها الديني إلى إسلام الكتب الصفراء.

لقد فتح هؤلاء جبهات في الداخل، والخــــارج، رافضييـــن الأنـــوار، والحداثة، والتقدم. مطالبين "بحكم الله"، مطالبين بالسلطة كي يحكمـــوا الداخل، والخارج على طريقتهم الخاصة.

الفصل السابع

النظام التربوي،النظام الثقافي،والنظام الإعلامي
مفاتيح التغيير الضائعة

لزم عن نشوب الثورات الاجتماعية في كل من فرنسا، وبريطانية، وأمريكا (حديثا)، وتحت وقع وإرهاصات ونداءات أصحاب الفكر النهضوي والتنويري والحد اثوي، تغيّر في التفكير الاجتماعي. وحصل ما يمكن تسميته بانقلاب شامل في التفكير وآلياته في المجتمعات الغربية التي كانت تغط في سُبات تفكير العصور الوسطى، ومن ثم نشأت الطبقات الاجتماعية الجديدة، البرجوازية والرأسمالية الحديثة التي رافقها التطور الصناعي، والاقتصادي عموماً.

ولكن ما حصل في عملية النهضة العربية، وما تلاها من حداثة أنه لم تتغير آليات التفكير الاجتماعي في العالم العربي تحت إرهاصات أقطاب الفكر النهضوي العربي ولم تأت عملية نهضة شاملة من خلال كتابات النُخب الثقافية العربية،صاحبة الثقافة العالمية، لأن هذه الثقافة، موجَّهة أصلاً إلى أفراد مجتمع باحث عن المعرفة، أو مجتمع قارئ. منفعل بالأفكار، ولا يعاني لا من الأمية بمعناها التقليدي، ولا من الأمية الثقافية.

وواقع الأمر أنه بعض أقطاب التفكير النهضوي العربي قد لفت نظره موضوع النظام التعليمي، وأثره في التغيير الاجتماعي (انظر محاولات الشيخ محمد عبده، وطه حسين) وقد رأى هذان الرائدان إمكانية تغيير العقلية الاجتماعية وتطويرها بواسطة نظام تعليمي

متطوّر، ومتقدم، ولكن محاولات هذين النهضويين لـــم يُكتَــب لـــها النجاح.

لقد نادى الشيخ بإصلاح التعليم في (الأزهر) أولاً، ونــــادى الثـــاني بإصلاح النظام التعليمي المصري، ومع ذلك لم تلبّ الإرادة السياسـية هذه النداءات في حينها.

وعندما نتحدث عن التغيير الاجتماعي الصادر عن التغير فـــي النظام التعليمي والتربوي نفكّر بمشكلة أخـــرى تصـــدر عـــن هـــذا الإثبات[1]، وتصاغ المشكلة على النحو التالي:

كيف نخلق نظاماً تربوياً متقدماً في مجتمع متخلّف؟ "، وبعبـــارة أوسع معنى، كيف نزرع نظاماً تعليمياً متطوراً، وحديثاً فـــي ســـياق مجتمع متخلف سياسياً واقتصادياً، واجتماعيـــاً، وثقافيـــاً، وعلميـــاً، وضمن مجتمع يبني آلياته التفكيرية بشكل تقليدي، ملفق، مرقع، بيـــن الحداثة المادية، والتفكير الذي ينتمي إلى عصر سابق، يمزج بيـــن : الوحي، والعقل، والأسطورة، والذوق.[2]

جدلية التربوي، والاجتماعي :

إحدى المحاولات الفكرية الحديثة حاولت أن تجيب على الإشكالية المطروحة كالتالي:

إنها نظرية البرازيلي "باولوفري" عـــام ١٩٢١، ومـــن منطقـــة (ريسايف) واحدة من أكثر المراكز تمثيلاً للبؤس والفقـــر فـــي دول

---

[1] أي الإثبات القائل بلزوم التغير الاجتماعي كنتيجة لتغير النظام التعليمي فـــي المجتمع.

[2] أي التفكير العربي- الإسلامي.

العالم الثالث،.. وساعدته ثقافته، وخبرته في عالم الفكر أن يكتشف ما أسماه بـ (ثقافة الصمت) التي يمارسها المقهورون، وقد أدرك أن جهل هؤلاء، ونومهم المستمر إنما هو نتيجة لظرف السيطرة الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، والتسلط الأبوي الذي أصبحوا ضحاياه، فبدلاً من أن يشجعوا، ويعدوا لمواجهة حقائق العالم الماثلة أمامهم، فإنهم مستغرقون في وضع يستحيل معه الوعي، والاستجابة بصورة فعالة وهكذا يرا "لبا ولو" أن النظام التعليمي بأسره مكرّس لخدمة (ثقافة الصمت)[1].." هذه مقدمة عامة لنظرية "باولو" ونحن لا نريد أن نذهب معه منذ بداية مقدمته وحديثه عن"عدم الوعي" "واستحالة الاستجابة لحقائق العالم..."؛لأن الشعوب العربية تستجيب لوقائع العالم، وهي لم تغّط في سبات عميق، ولكن استجابتها أو طرائق تفكيرها في الاستجابة صادرة عن آلية تفكير تقليدية لا تقوى عن المواجهة، والاستجابة الناجحة.

ويقول "باولو" في جوهر نظريته إن"المجتمع هو الذي يشكل التربية لا العكس ذلك أن الفكرة المحورية التي ينطلق منها "باولو" مغايرة إلى حد كبير لما هو شائع حتى الآن بين التربويين، فهؤلاء يظنون أن التربية هي التي تشكل المجتمع، وخاصة التربية النظامية، مما يجعل منها قوة كفيلة بتغيير الواقع أو الأوضاع الراهنة، وكان"باولو" نفسه يبدو مشاركاً في هذا الاعتقاد، ولكنه كتب بعد ذلك أنه لا يشارك في هذا الاعتقاد، ولقد تأكد أن التربية لا تشكل المجتمع،وإنما المجتمع هو الذي يشكل التربية[2] وفقاً لصالح أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة فيه... ويتابع"باولو" التأكيد في نظريته هذه القول: إن تغييّر النظام التربوي تغييراً جذرياً أمر مرتهن بتغير

---

[1] د.سعيد إسماعيل علي، (فلسفات تربوية معاصرة) سلسلة عالم المعرفة- الكويت رقم ١٩٨-١٩٩٥.ص١٩٢.

[2] المصدر السابق .ص١٩٣

جذري في المجتمع نفسه، إذ يعتبر المجتمع هذا النظام تعبيراً عنـــه، وأداة لازمة[1]. ولا يزال عدد كبير من الناس يعتقد أن النظام التربوي المنهجي كفيل بتغيير شكل أي مجتمع وتطويره، ولكن الحقيقة هي أن مهمته في مجتمع يسوده القهر، والقمع هي حمايته والإبقاء عليه. فقد نبع منه ثم فرض عليه حمايته، ومن ثم لاأساس من الصحة لاعتبـــار هذا النظام التربوي أداة للتحرير دائماً أو أنه يملك القـــدرة اللازمـــة لتحقيق هذا الفرض"[1].

---

[1] ذهبنا في موضع آخر، بأن التربية أو النظام التربوي هـــو انعكـــاس للبيئـــة الاجتماعية – الفكرية ولكننا لا نخفي قناعتنا الدفينة بأن مهمة التربيـــــة، والتـــي يجب أن تظهر في تخطيط السياسات التعليمية هي في تغيير طرائق، ومحتويـــات المناهج الدراسية التي يمكن أن تغيّر عقلية أجيال بكاملها، وتحرير تفكيرها، وأن التربية عنصر جوهري، ومهم جداً في عملية التغيير، والتقدم.

٢ – م.س.ص١٩٤. وعلى هامش فكرة أن التربية يمكن أن تغيّر عقول أفـــــراد المجتمع، يمكننا أن نقف عند المحطات التالية:

- عندما صعد أول رائد فضاء روسي في الخمسينات من القرن المـــاضي، وسجل سبقاً فضائياً إزاء برامج الفضاء الأمريكية، تساءل الأمريكيون عـــن سبب هذا السبق الروسي لهم فطلبوا إعادة نظر في نظام التعليم الأمريكـــي، وتغيير طرائق، ومحتويات المناهج الدراسية العلمية الخاصة.
- في الثمانينات من القرن الماضي، طلب الرئيس الفرنسي الراحل "فـــرا نسوا ميتران" تشكيل لجنة في وزارة التربية والتعليم في فرنسا وذلك لدراسة واقع مناهج العلوم الاجتماعية والتاريخية خاصة في المـــدارس الفرنســـية، حيث طلب بتوصية منه إعادة نظر في محتوى المواد التاريخية التي توحي، أو تعلم، أو تلقّن التلاميذ أحكاماً مسبقة عن حضارات، وشعوب وتاريخ دول العالم الثالث وذلك "لتنوير عقول الناشئة بأحكام موضوعية وتقدير واحـــترام وانفتاح على الثقافات الأخرى"

- في التسعينات من القرن الماضي صدر كتاب مهّم في الولايات المتحـدة الأمريكية بعنوان أمة في خطر nation at risk، وفيه يقول الرئيس الأمريكي السابق "جورج بوش" إن نظام التعليم في أمريكا يجب أن يّعاد النظر فيه.
- بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وإلقاء القبض على بعـض الفاعلين الذين وجدت السلطات الأمريكية آنذاك أنهم ينتمـون إلـى الـدول العربية المحافظة، وأن الأصوليين الذين حققوا معهم،وجـدوا انـهم: تلّقـوا تعليماً دينياً متشدداً في مؤسسات التعليم الديني في بعض البلاد العربية. وبعد هذا التاريخ بفترة قصيرة أرسلت السلطات الأمريكية وفوداً رسمية، وغـير رسمية إلى البلدان العربية المحافظة، والتي صدّرت هـؤلاء الأصوليين، طالبته من المسؤولين إغلاق المعاهد الدينية في هذه البلـدان لأنـها تفّـرخ حسب نظام التعليم فيها الأصوليين، والمتشددين الدينيّن.

وقد ذكرت بعض الأنباء الصحفية، والتلفزيونية الفضائية في ٢٠٠١/١٢/١٤ و ٢٠٠١/١٢/١٧ أن أمريكا طلبت من الصومال، واليمن، والمملكة العربيـة السـعودية، ودولاً أخـرى إلغـاء منـاهج التربيـة الدينيـة فـي المعاهد(المدارس)والجامعات.

يرى أحد الكتّاب الصحفيين إن"الحديث الدائـر الآن فـي أوسـاط تربويـة، وإعلامية عن مطالبة الولايات المتحدة للعرب مراجعـة منـاهج الدراسـة، والتربويات الدينية والوطنية يغفل جملة قضايا، ويبدوا مبتوراً، وغير مبـدوء، به على الإطلاق . تابع الهامش . . .

وكأن هذه الاستراتيجية المضادة للوجدان العربي طارئة، أو أنها تقع ضمـن مسلسل جديد يهدف إلى شل الإرادة الوطنية، وتحييد الأجيال الناشئة../انظـر جريدة الخليج- خيري منصور ٢٠٠١/١٢/٢١

الواقع أن التربويين العرب يريدون مراجعة دائمة لنظام (التعليـم العربـي) ولكن ليس حسب المواصفات الأمريكية، وخاصة إن هذه المواصفات نريد أن

ويعلل الدكتور"سعيد إسماعيل" بعدم تغيّر العقلية مـــن جّــراء تغّــير التعليم، بالقول:
"ولكن العلة في الوطن العربي، كما في العديد من أقطاب العالم الثالث في نوعية التعليم، ومدى تأثيره في تغيير العقلية، يبدو أن التعليم لـــم يؤثر بعمق في الشخصية، بل ظل في الكثير مـــن الأحـــوال قشـــرة خارجية تسقط عند الأزمات، لتعود الشخصية إلى نظرتها الخرافيـــة. إن العلم لا يشكل بالنسبة للعقل المتخلف أكثر من قشـــــرة خارجيـــة رقيقة يمكن أن تتساقط إذا تعرّض هذا العقـــل للاهـــتزاز. إن العلـــم مازال في ممارسة الكثيرين لا يعدو أن يكون قميصاً، أو معطفاً يلبسه حين يقرأ كتاباً أو يدخل مختبراً، أو يلقي محاضره، ويخلعه في سائر الأوقات. فهناك نوع من الازدواجية في شخصية الإنسان المتخلـــف بين"التعليم ودور الإنسان الممارس حياتياً، إذ مازال الانفصـــــال، أو الانشطار هو السائد. ففي الحياة اليوميـــة نـــرى التقليـــد، وانتشـــار

تنطبق فقط على أنظمة التعليم العربية، مهملة نظام التعليم الإســرائيلي. لقــد ذكر في ندوة تلفزيونية تحت عنـــوان(أولـــى حـــروب القـــرن) مـــا يلـــي: ٢٠٠١/١٢/١٧

٢٠% من مدارس إسرائيل هي مدارس توراتية، و ٢٠% من مدارس الدولـــة في إسرائيل يٌعلم فيها الدين العبري وقد ارتفع رقم تلاميذ التعليم الديني فـــي إسرائيل من٤٨ ألف إلى (١٨٠) ألف وكذلك أن المـــدارس الدينيـــة ليســت ظاهرة إسلامية، بل هي موجودة في الدول المتقدمة، والمتأخرة علـــى حــد سواء. وفي الولايات المتحدة يوجد(٣٥٠) ألف مدرسة يٌدرس فيـــها الكتـــاب المقدس(التوراة، أو العهد القديم والعهد الجديد).

إن(الأزهر) لم يسجل تخريجاً من طلبته طوال قرون من الزمن، متطرفين أو متعصّبين،

(راجع مناقشة هذه الملاحق في الملاحق(١) الحرب وتحديث العقل-)

الخرافات، والنظرة المتخلفة إلى الوجود (بما فيها من اعتباط، وتسلط، ولا منهجية). وهي السائدة، أما في المناسبات العلمية فنرى الواحد من هؤلاء، أو بعضهم، يحلق في الأجواء العليا،ولو للحظات"(١).

نظام ثقافي مُسيَّس، وإعلام لم يخاطب العقل

١- لم تقم ثورة ثقافية أو فكرية في العالم العربي الحديث والمعاصر، لقلب نظام التفكير والمعايير، والقيم، وقد ظل نسق التفكير على الصعيد الثقافي يراوح بين التقليد، وأفضلية التفكير التقليدي المحافظ والليبرالية التي يغلب عليها الطابع السياسي، الناقد والموجّه عادة إلى السلطة السياسية، ولم يتوجه المثقفون، ونخبهم نحو الجماهير و تنويرهم، (بغض النظر عن المواقف الوجدانية التي انعكست شعراً، وأدباً، والتي توجهت بلا شك نحو الجماهير، ولكنها ظلت بلا شك في إطار الأدب كما تجلت في عصر النهضة العربية) فالنخب الثقافية العربية لم تدفع بالمجتمعات العربية نحو التغيير

---

[1] - م . س . ص ٢٠٢ ، يرد الدكتور اسماعيل هذه الظاهرة إلى أسباب لا تبدو وحدها كافية من قبيل : تأثير الأم الجاهلة، ووضعها لمقهور، وتسلط معتقدات لا علمية كالشعوذة، والخرافات والشياطين . " م ب ص ٢٠٢ ، نعتقد أن من الأسباب الأخرى المهمة لهذه الظاهرة هو أن محتوى المناهج الدراسية العلمية لا تعلّم التلميذ مهارات التفكير العلمية الناقدة بل تنقل له النظريات والمعطيات العلمية ونتائج التفكير العلمي ولا تتجسد مهارات التفكير في بقية محتويات المواد الدراسية الأخرى بالإضافة إلى الكتب العلمية ، ولا نعلم التلاميذ جدوى التفكير العلمي في الحياة اليومية خارج جدران المدرسة .

الاجتماعي ولم تدفع بالسلطات السياسية العربية نحو تحديث بنية الدولة، فضلاً عن كون التيارات الدينية المحافظة كانت تعمل دوماً ضمن إطار مرجعيتها الدينية، التي لا تتلاءم وأفكار التنوير والحداثة.

الجسران كانا إذن مقطوعين بين المثقفين الذين أرادوا التغيير، وبين :

- المجتمعات العربية الرازحة في كثرتها تحت نير الأمية الثقافية، والأمية التقليدية.
- السلطات الثقافية التي لم تر في المثقفين الغير مهتمين بخطابهم إلى السلطة على أنهم أعداء، أو على أقل تقدير تضعهم السلطة في دائرة الرفض ولاتصغي لنداءاتهم من أجل التغيير.

١-تتلقى الجماهير العريضة معلوماتها من قنوات عديدة، أهمها وسائل الإعلام بدءاً من المذياع، ومروراً بالصحافة المكتوبة، وانتهاء بالإعلام المرئي. والإعلام العربي ظل فترة طويلة رازحاً تحت أوامر السلطة السياسية أو هو بتعبير آخر إعلام السلطة، والخطاب الإعلامي الصادر عن السلطة يخلو من أسلوب مخاطبة عقل السامع، أو القارئ، أو المشاهد، إنه خطاب موجه ترويجي، دعائي، يمجّد أركان السلطة، وينقل المعلومة التي تتلاءم وأسلوب تفكير السلطات السياسية وغالباً لا تتعاطف الجماهير، وأسلوب المعلومة الموجّه، والتلقيني لأنه لا يحترم عقليتها التي تودّ الاختيار، والاستقلالية في تكوين الرأي.

لذلك لم يعمل الخطاب الإعلامي العربي، بموضوعية علمية، ولم يقم أصلاً على أسس من التفكير العلمي، ولم يعمل

على تربية الجماهير إعلامياً للتمييز بين الحقيقة والباطل، بين الصواب والخطأ. وفاقد الشيء لا يعطيه، كما يُقال.

والإعلام، بكلمة مختصرة، كان غير واع لمسؤوليته، وخاصة في طريقته وأسلوبه في نقل وإعطاء ومعالجة المعلومة، والمادة الخبرية، وتحليلاته الإعلامية، لقد كان ترويجياً، دعائياً، ولم يكن إعلاماً علمياً ينشئ أجيالاً من المتابعين على النظر العقلاني إلى الواقع.

خلاصة، نتيجة، رؤية مستقبلية

عمل العرب، والمسلمون منذ بداية عهدهم بالاتصال بالحضارة الغربية، على نقل كل ما يمكن نقله من مكتسبات مادية (أدوات- آلات، أجهزة، تقنيات متطورة، وكل نواتج العلوم، والتكنولوجيا) لتغيير نمط عيشهم، والانتقال إلى مرحلة جديدة في حياتهم اليومية، ولم يعنهم أمر نقل التراث الفكري والمصادر العلمية إلا قليلاً، ولذلك كانت حداثتهم الفكرية نائية عن منطق العقل المستقل، ركيكة، ضحلة بسيطة، وسطحية، ولم يصل هذا "القليل" الفكري المنقول بالموازاة مع النهم الحد اثوي المادي إلى مرحلة: الاستيعاب والإبداع، ولم يعتمدوا على التراث الغربي في مادته الفكرية والعلمية بل اقتصرت جهودهم عل نقل الحداثة المادية، لتغيير بنيتهم التحتية، واكتفى الكثيرون منهم، وخاصة التيارات الاجتماعية، والثقافية المحافظة على الاعتماد على التراث القديم، وما أحرزه من مادة معرفية وعلمية، ومناهج تجاوزها التقدم الغربي.

لقد طالت مرحلة النقل المادي، وما زالت مستمرة حتى يومنا هذا، إلى درجة أن وصل بنا الأمر إلى الإهمال المطلق لشروط التقدم، وهي الشروط الفكرية، أو استخدام منطق العقل الخالص- الذي كان باعثاً على: التنوير، والحداثة.

إن احتكاكنا بالغرب، والذي أخذ شكلاً دراميـاً، صراعيـاً، ودموياً، يعكس ما عانـاه العـرب والمسـلمون مـن هيمنـة استعمارية، جعلنا ننظر إلى الغرب من زاوية سياسية، ونهمل ما لديه من تراث علمي أو فكري، أي أننـا أهملنـا بشـكل واع، ومتعمّد للغرب الثقافي الذي كان يمكننا الأخذ به أن نتقدم خـلال مرحلة النقل المكرّسة لنقل الحداثة المادية، وأن نصبـح أنـداداً لأهل الحضارة. علماً، وفكراً ولكن ذلك لم يتحقق.

نتصور أن أسباب عدم الأخذ بأسباب التقدم العقلي، أو بتعبير آخر الخلل الحاصل بين الحداثة الماديـة والحداثـة العقلية تتلخص فيما يلي:

(١) **الأسباب السياسية** : لم تتوفر الإرادة السياسية لـدي أيـة سلطة سياسية في العالم العربي كي تعمل، أو تأذن بشـكل مباشر أو غير مباشر بنقل الحداثة العقلية، وأن تعمل علـى توعية الجماهير بأفضلية الجماهير، والاهتمام بالبنية العقلية لتحقيق التقدّم. وذلك عن طريق تغيير الأنظمة التعليميـة، والإعلامية، والثقافية.

(٢) **الأسباب الاجتماعية**: لم يكن الأخذ بأسباب التقدم مطلبـاً اجتماعياً، أي لم تطالب به أية مجموعـة، أو حـزب، أو

نقابة، أو منظمة، وكي تملي هذا المطلب على أصحاب القرار السياسي،ينعكس في العمل التعليمي- التربوي . وهذه هي المسؤولية الاجتماعية.

(٣) **الأسباب الثقافية**: لم يكن التقدم العقلي مطلباً ثقافياً- فكرياً عاماً لدى كثير من التيارات الثقافية وحتى لو تصورنا أنه كان ، في مرحلة ما ، مطلباً، لدى كثير من النخب الثقافية فإن الأميّة لدى الغالبية المطلقة (الثقافية والأمية العامة) وعدم وجود الجسور الاتصالية بين النخب الثقافية، والجماهير العريضة، شكل كل ذلك عائقاً أمام تأدية المثقفين المتنورين والعقلانيين واجبهم. هذا بالإضافة إلى الجسور المقطوعة بين السلطات السياسية، والمثقفين، ولم يرفع المثقفون مطلب التقدم العقلي أمام السلطة. زد على ذلك أن مثقفي النصّ ومثقفي السلطة كانوا يقطعون كافة الطرق أمام إمكانية ذيوع ثقافة العقل في الإعلام، والثقافة، والتربية.

(٤) أما بالنسبة إلى **الأسباب الاقتصادية**، فهي ليست معيقة لتحقيق التقدم العقلي في حال ضعفها ومن ناحية ثانية إن البنية الاقتصادية التي توفرت لبناء الحداثة المادية والتي تشكل الإطار العام لتحقيق التقدم العقلي وقد تحققت كبنية (انظر الدول النفطية مثالاً) ومع ذلك لم يتحقق التقدم العقلي. وبعبارة أخرى لم يتحقق تطور التفكير الاجتماعي في حال الضعف الاقتصادي باعتباره حاجة للتغيير، والتطوير، والإبداع، ولم يتحقق في حال الرفاه الاقتصادي (الدول النفطية) مثالاً، وباعتبار أن الشروط الاقتصادية تغير البنى الفوقية.

إن رؤيتنا المستقبلية حول تطور العقل الاجتماعي فيمكن تسجيلها على النحو التالي:

تنطلق هذه الرؤية من هدفنا الباطن من وراء كتابة هذه الأوراق، أعني:

١- مطلب تغيير طرائق التغيير العامة، أو طريقة التفكير الاجتماعي، أو الجمعي، وهو مطلب تنويري محض، قاله أصحاب الموسوعة[١] منذ أكثر من قرنين من الزمن. وهذا التغيير لا نعتقد أنه سيتحقق في القريب العاجل، في المجتمعات العربية، - الإسلامية وهو أمر لا يتحقق كذلك بحرق المراحل، ولقد مّرت فرص أمام العرب، اعتُبرت ضائعة[٢]، وكان عليهم أن يأخذوا بتراث العقل العالمي، ويدفعوا بواقعهم نحو التطور الخلاّق.

٢- والنقطة الثانية التي تصّب في رؤيتنا المستقبلية، هي مشكلة العلاقة بين العقل/الدين والانفصال بينهما، ذلك أن عملية التوفيق، والترقيع، والتأليف بين هذين الطرفين النقيضين لا يمكن أن يمّهد السبيل نحو تقدم العقل إلا إذا

---

[١] أصحاب الموسوعة الفرنسية التي كتبها بعض فلاسفة التنويري"ديدرو، وزملاؤه"

[٢] من الفرص الضائعة.مرحلة الثوريات طوال ربع قرن من القرن العشرين،وكذلك فرص كان يمكن للشعوب العربية أن تتحرك وتقلب الأوضاع ،من هذه الفرص ثورات الشباب (١٩٦٨) في أوروبا وثورات شعوب الشرق وسقوط الأنظمة الشيوعية وجدار برلين ١٩٨٩ ... الخ .

كان على حساب التفكير الديني- ومن هنا، نعتقد أن المد الديني الذي ظهرت معالمه منذ السبعينات من القرن العشرين، واشتداد وتوسع هذا المد، سوف لن يسمح بتطور أو تغير آلية التفكير في المجتمعات العربية- وسيظل الباب مفتوحا أمام مختلف أنماط التفكير الأسطوري والخرافي الذي سيغذيه التفكير الديني، والطقوس الدينية على حد سواء، زد على ذلك أن نمو المعارضة الدينية المسلحة للأوضاع القائمة، والمشغولة بالهم السياسي والتغييري نحو عقلية الظلام، أيضا سبب آخر سيحد من انطلاقة العقل العربي نحو تقدمه واستفادته من التراث العقلي العالمي.

إننا لا نترقب في السنوات القليلة المقبلة تقدما في العقل الاجتماعي، الآخذ بالحداثة.[1]

[1] - انظر المعنى الشمولي للحداثة العقلية في الفصل الثالث.

القسم الثاني

الملاحق

الملاحق(١) بقلم صاحب هذه الأوراق

١- رأي حليم بركات في إشكالية الحداثة، (مناقشة)

٢- مطارحات في العقل العربي المضاد، عرض وتقديم كتابين بالإنجليزية والفرنسية. (ترجمة)

٣- لماذا فشلت النهضة العربية، ونجحت الإيديولوجية الصهيونية، ترجمة لحوار مع المؤلف الفرنسي لاكوتير-

٤- الحرب وتحديث العقل، مقال لم ينشر .

مناقشة : رأي حليم بركات.

إن علاقة العرب بالحداثة، يراها الدكتور حليم بركات، إشـكالية ذلك أن هذه العلاقة تحوّلت منذ بداياتها الأولى في مطلع القرن التاسع عشر إلى إشكالية في المنهج والرؤية لأسباب جوهرية تتعلـق فـي أساسها بالعلاقة التصادمية مع الغرب، وفي صلب هذه الإشكالية تلك الحساسية العميقة تجاه التعامل مع الغرب الغازي وما يمثلـه كقـوّة استعمارية كانت ولا تزال تهددنا في صميم وجودنا، مما أثـر فـي نظراتنا لطبيعة الحداثة نفسها، بذلك لم يعد من الممكن أن ننظر إلـى الحداثة خارج إطار الصراع التاريخي مع الغـرب، وهـو صـراع تاريخي ليس بسبب امتداده الزمني فحسب، بل بسبب كونـه أيضـاً شاملاً لمختلـف الأوجـه الاقتصاديـة و السياسـية والاجتماعيـة والثقافية[1].

إن قول بركات "أنه لم يكن من الممكن أن ننظر إلى الحداثـة خارج إطار الصراع التاريخي" يعني، وهو لم يذهب إلى القـول أن المشكلة في الحداثة هي مشكلتنا نحن، وليست مشكلة الحداثة نفسـها، أي مشكلة طريقة تفكيرنا نحن، ورؤيتنا للأمور التي ظلت منذ مطالع الحداثة في الغرب، وإلى يومنا هذا محكومة بنظام معرفـي تقليـدي يعود إلى تراثنا بالمعنى الواسع أي تراث المنطقـة الشـامل آخـره التراث الديني.

ويتابع بركات في المقال قوله أن الأزمة أكثر عمقاً وتعقيداً مـن مجرد الازدواجية الثقافية بين التوجه الذي يقول بالتقدم نحو المستقبل،

---

[1] د. حليم بركات، (إشكالية علاقة العرب بالحداثة، اهتزاز في الرؤية)،مجلـة الوحدة. العدد ١٠١ -١٠٢، ١٩٩٣ ص٣٥

والتوجه الذي يقول بالعودة إلى الماضي، وليست المعركة التي نحن بصددها مجرد معركة القديم والحديث، أو بين السلفية والحداثة. المسألة في رأيي، وهو قول د. بركات في طبيعة تصورنا للسلفية والحداثة معاً باعتبار لم نتمكن حتى الآن من التحرر من عقدة علاقتنا بالغرب، فتجيء السلفية كردّة فعل تُفرض علينا فرضاً، وتكون الحداثة أقرب لتقليد النموذج الغربي منها إلى حصول رؤية عربية منبثقة عن حاجتنا ومشاكلنا الخاصة. فنتيجة لهذه التعقيدات لا تكون السلفية عودة بقدر ما تكون تمسكاً بتقاليد موروثة، ولا تكون الحداثة عملية تفكير خلاّق بقدر ما تكون إقبالاً سطحياً على مقتبسات استهلاكية[1].

يرى الباحث المذكور أن مشكلة الحداثة مرتبطة بوجود الآخر صاحب الحداثة أي الغرب من ناحية، إنها لم تكن عملية تفكير خلاق. والواقع يمكن أن نتساءل كيف تمكنت شعوب أخرى غير الغرب من تبني الحداثة، ومتابعة مسيرة التقدم وتجاوزت ازدواجية القديم والحديث. اليابان، والصين، وروسيا مثلاً، مع أن لهذه الشعوب تراثها؟ .علماً أن هذه الشعوب عانت تاريخاً من الصراع مع الغرب الاستعماري منذ منتصف القرن التاسع عشر، وفي عصور التحرر الوطني.

المسألة في رأينا تنحصر في طبيعة رؤيتنا ذاتها المنبثقة عن تراثنا، وخاصة الرؤية التي يسميها البعض سلفية، وهي رؤية دينية، وكون هذه الرؤية ذات طابع شمولي [2] ترى الأخر من خلال

---

(١)المصدر السابق ص٣٩.

[2] ترتد النظرة السلفية الدينية الإسلامية إلي ما يسمى بالمركزية الإسلامية، وهو موضوع يوازي ما يتهم به الغرب بالمركزية الأوروبية.

شموليتها، ولها مطالب تقوم على إدماج الآخر في نظرتها وآلية تفكيرها (الأديان السماوية). لقد أردنا تبّني الحداثة المادية السطحية، والمقتبسات التكنولوجية، دون تبنّي آلية التفكير الحداثوي، لأننا وجدنا أن نمط التفكير الحداثوي الغربي يعارض، بل يتناقض، بل يضاد نمط تفكيرنا الاعتقادي، من ناحية، ورأينا أن من المفروض أن الآخر، رغم حداثته عليه أن يعتنق وينهج طريقة تفكيرنا نحن لأننا نحن، نحمل رسالة الإسلام العالمية، وعلينا أن ندعو البشر كافة إلى اعتناقها، ودعوة الكفرة إلى الإيمان.

جزء من محاضرة القيت في مقرر اتحاد الكتاب والأدباء (الإمارات العربية - الشارقة) ١٩٩٨/٢/٢٤

مطارحات في العقل العربي المضاد[1] نحو إعادة اعتبار.

كتابات بالإنجليزية، والفرنسية حديثة حول العقل العربي المضّاد ونقد إيديولوجيات التنمية، ومستقبل التفكير الليبرالي، والسياسي في المنطقة

*** تقديم عام :**

الدين والدنيا، النصّ والتحرّر منه، العقـــل والنقـــل، الليبراليـــة السياسية، والفكرية،أو المحافظة، حكم الله، وحكم الشعب، المفكـــرون المحافظون التقليديون، والمفكرون الأحرار، فـــي الثقافـــة العربيـــة الإسلامية، الخ من موضوعات، أو ثنائيات قديمة، أو يُعاد طرحـــها، ونقاشها بثوب فكري، أو بأدوات منهجية، وأساليب حديثة.

تشكل أفكار ، البيرالية، أو التفكير الحر، وفصـــل الديـــن عـــن الدولـــة تيّـــارات كـــبرى، ظـــهرت طـــوال مراحـــل التـــاريخ العربي_الإسلامي، وفي حاضره، أي منذ عهد النبي (ص) على لسان المشركين حيناً، أو على لسان الملاحدة أو على لســـان الليـــبراليين والتقدميين في العصر الحديث ففي القديـــم. عتّـــم عليـــها مؤرخـــو السلطات السياسية، طوال فترات التاريخ، وفي الحديث عملت هـــذه السلطات السياسية على قمعها كتيارات ضالة حيناً، كافرة حيناً آخـــر،

---

[1] العقل العربي المضاد هو المرادف، عندنا، لما عبّرنا عنـــه بعبـــارة (ثقافـــة النصّ)، أو العقل المتحرّر تحرراً كاملاً من النقل. وكان يمكن لـــه أن يتطـــوّر ليكون مرجيعية مهمة للتنوير والحداثة ولكن ذلك لم يحدث، لقد عرضنـــا هـــذه المسألة، وعرضنا للأسباب في الصفحات السابقة.

ومنحرفة (ملحدة) عن عقلية الجماهير، تمثل خروجاً عن الجماعة أو عميلة للإستعمار والإمبريالية، وهي بالفعل تخالف عقلية الجماهير، واللا شعور الجمعي، حسب تعبير علم النفس التحليلي (غوستاف يونغ)، وتمسّ ((منطقة اللامفكر فيه)).

أما السلطات السياسية الحديثة، في العالمين العربي والاسلامي، أي بالتحديد منذ بداية القرن الماضي، أو بلغة أخرى منذ مرحلة التحرر من الاستعمار، قد حاولت تبنّي نمط، أو أنماط من الليبرالية السياسية والفكرية، ولكنها عجزت عن إقناع شعوبها بجدوى هذه الليبرالية، كما عجز كثير من المفكرين الأحرار في ثقافتنا السياسية، والفكرية المحضة عن الذهاب إلى نهاية الطريق في أفكارهم، أو دعواتهم، فمنهم من سقط على الدرب، ومنهم من خشي الغيب، أو انقلب على عقبيه، ومنهم من استشرف زحف التطرّف والاصوليات الدينية في هذا العصر، ومنهم أخيراً من سار على استحياء أمام غضب الجماهير ازاء إيديولوجيات فشلت فشلاً ذريعاً في تحقيق التقدم لشعوب المنطقة وهي تقطف ثمار هذا الإحباط العظيم!! فالدكتور "علي الدين هلال" مثلاً يرى في أزمة الفكر الليبرالي عربياً كما يلي: ((لقد ظهرت الأفكار الديمقراطية الليبرالية في مجتمعات اتسمت بسمات عدة مثل تبلور النظام الرأسمالي،"كما أن هذه الدول قد حققت وحدتها الوطنية واستقلالها السياسي قبل تأسيس تلك النظم" وحدوث تغيّر ثقافي يؤكد على قيم التسامح السياسي، والفصل بين السلطات، أما في بلادنا العربية، فلم يحدث ذلك قط، فمؤسسات الديمقراطية الليبرالية تم إدخالها في ظرف لم يكن قد تحقق فيه الاستقلال التام، وحمّلت النظم الحاكمة القائمة "شبهته"التعاون مع المحتل، ثم إن إدخال هذه المؤسسات لم يرتبط بتغير في الثقافة السياسية السائدة في المجتمع لا على مجتمع الجماهير، ولا على مستوى النخب الحاكمة، وترتب على ذلك عربياً أنه لم يتم احترام

قواعد الديمقراطية الليبرالية لا من جانب الأحزاب، ولا من جانب القوى الخارجية، ولا من جانب السلطة.)) (انظر جريدة الخليج تغطية ندوة مهرجان القرين الثقافي في الكويت،/٢٤/١١/١٩٩٧).

إذن، في مقابل ثقافة النصّ، العربية، لدينا ثقافة أخرى مضادة، ولدينا فكر مخالف، يمكن تسميته بالاتجاه العقلي المضاد، والثقافة الليبرالية المتحررة الخارجة عن حدود النصّ.

ولقد جرى كما قلنا تعتيم كامل من قبل مؤرخي المذاهب، والعقائد والأفكار، حيث دعاها هؤلاء بتيارات الزندقة، أو التيارات المنحرفة وذلك لأنها خرجت عن الخط الإيديولوجي العام، أو الاعتقاد الجماهيري السائد.

في الأربعينات من هذا القرن أصدر الدكتور"عبدا لرحمن بدوي" كتاباً نقلاً وترجمة عن دراسات بعض المستشرقين الأوربيين تناول فيه هذه التيارات. ومن يمثّلها من شخصيات خرجت عن النصّ، طارحة أسئلة، وشكوك، وتساؤلات، ودخلت في مساجلات فكرية عقائدية تمسّ الاعتقادات السائدة آنذاك.[١]

لقد ورث الباحثون الأوربيون المعاصرون جيل الباحثين أقرانهم في الأربعينات وأعادوا الاعتبار. أو سلّطوا الأضواء على هذه التيارات العقلية المتحررة.

---

[١] – من تاريخ الإلحاد في الإسلام ، ويمكن تأويل موضوعات الكتاب الآخر للدكتور "بدوي" وهو بعنوان (شخصيات قلقة في الإسلام) في هذا الاتجاه المتسائل والذي يعيش قلقاً روحياً ووجودياً إزاء مقولة الإيمان الديني .

وتأكيداً لإعادة الاعتبار هذه. فقد صدر كتابان يتزامنان، في كل مـــن أمريكا أو فرنسا وهما:

الأول بعنـــوان :(الليبراليـــــة الإســـــلامية)،1988، ISLAMIC LIBERALIS M لمؤلفه(ليونارد بينـــدار)، وقـــد نشـــرته جامعـــة شيكاغو(أمريكا)١٩٨٨.

الثاني بالفرنسية بعنوان:(المفكرون الأحرار في العصر الإســـــلامي الوسيط):

LES PENSEVRS LIBRES DANS LISLAM CLASSIQUE

لمؤلفه (دومينيك اورفوا- باريس١٩٩٦).

الكتاب الأول يفصّل موضوع التيارات الليبرالية الإسلامية في العصر الحديث في ثقافتنا العربية-الإسلامية، من الجوانب الفكرية السياسية.

أما الكتاب الثاني، فيفصّل مسائل التيارات الثقافية العقليـــة فـــي العصور الإسلامية الاتباعية(الكلاسيكية) إبّان الحضــــارة العربيـــة الإسلامية.

وتأتي فصول الكتاب الأول في تسعة مع المقدمة وهي كالتالي :

١- المقدمة Introduction

٢- The Natural History of Development theory with a Discordant Noteon the Middle East

التاريخ الطبيعي لنظرية التنمية والخلل في تطبيقها في الشرق الأوسط

٣- Deconstructing Orientalism

تفكيك الاستشراق

٤- Ali – Abd – al – Raziq and Islamic Liberalism, the Rejected Alterative

علي عبد الرزاق والليبرالية الإسلامية البديل المرفوض

٥- The Religious Aesthetic A sayyed qutb A non – scriptural Fundamentalism

جماليات التدين ، والأصولية الغير مقيدة بالنصّ " لسيّد قطب "

٦- Islam and Capitalism

الإسلام والرأسمالية

٧- Nationalism , Liberalism , and thc Islamic Heritage (the political thought of Tariq –al Bishri

الوطنية والليبرالية والتراث الاسلامي – الأفكار السياســية لــــ طـارق البشري

٨- The Hermeneutic of Authenticity

الأصالة والتأويل .

٩- Conclusion : the prospects forliberal Government in the Middle East

خاتمة : نظرات مستقبلية لحكومات ليبرالية – في الشرق الأوسط

أما فصول الكتاب الثاني بالفرنسية فهي :

١- Autour D'lbn AL-Maqaffa' (mihlieu II / VIII siéele

عن ابن المقفعّ / القرن الثاني الهجري .

٢- Hunayn lbn ishaq (III / IX siécle)

حنين بن اسحاق / القرن الثالث الهجري

٣- Le Monotheisme sous L'aiguillon dn Dnalism

الوحدانية تحت ظلال الثنائية أو (الثنوية)

٤- Trois Formes independuntes délaboration

صيغ ثلاثة مستقلة للتطور أو النمّو

٥- Vra dr fansseunité

وحدة صادقة ، وكاذبة

٦- Versme approche objective sm fait veligieux

٧- Couclucion
خاتمة

من الناحية التاريخية، يأتي الكتاب الثاني قبل الأول، ولكن من الناحية الزمنية فلقد صدر الأول قبل الثاني، ولكن الكتابين، وفيما بين سطورهما يصبّان في الميدان نفسه، ويكمّلان بعضهما، لأن الباحثين أرادا أن يقولا بأنه لايوجد فقط إسلاميون حرفيّون، متقيدون بألفاظ النص، وحروفه، أو بشروحه أو بالتعليقات عليه، بل أننا إزاء إبداع فكري إسلامي تجلىّ حول النص ولدينا تيارات تعكس نمطاً آخر من التفكير العربي الإسلامي قديماً وحديثاً.

ولم يكن مصادفة أن يصدر الكتابان في هذه الآونة الزمنية، أي أمام زحف التطرف الديني، والمذهبي، والإيديولوجي في العالم المعاصر.

من جهتنا نود تفصيل هذا الموضوع، ونحاول إعطائه أبعاده المهمّة، متوغلين في التاريخ، أي منذ ظهور الإسلام، ومفصلين الحديث عن التيارات هذه عارضين لهذا الجانب الذي ظلّ في الظلمة، أو ظل هامشياً، يعيش بين أعطاف النصوص القديمة، وفي الكتب الصفراء، أو ظل هذا الجانب ،في عصرنا الحديث ،دون أن يحظى بنصيب وافر من النجاح على الساحات العربية والإسلامية، وقد استنكر أمر هذه التيارات، أو طواها النسيان أو أنها عادت على

استحياء، أو أنها، أخيراً، توهجت حيناً من الدهر ثم انطفأت شعلتها نتيجة أسباب كثيرة[1] ومعقدة: سياسية، اقتصادية، إيديولوجية الخ.

لقد تناول التيارات الليبرالية الفكرية في ثقافتنا العربية الحديثة والمعاصرة، بعض الباحثين العرب المعاصرين في (الكتب والندوات والدراسات والمقالات)، فمن هؤلاء من وجد في هذه التيارات اتجاهاً تنويرياً، ومنهم من دعاها بالتيارات العلمانية.

أما نحن فنفضل تسميتها أو تصنيفها بـ "التيارات العقلية المضادة لثقافة النص" وهذه التيارات لم تكن قصراً في ظهورها على ثقافتنا العربية- الإسلامية، إذ أنها ظهرت كذلك في كل ثقافات النصّ، أو الثقافات القائمة على إيديولوجيا معينة.

لقد كانت مطالب هذه التيارات تتلخص في :

الاستقلال الكامل لسلطة العقل الإنساني، ونرى أن هذا الاستقلال العقلي مرّ في ثقافتنا العربية بمراحل:

- مقدمات: التركيز على الدنيا (العالم) في عصر الإسلام الأول.
- الحديث عن العقل وصلته أو ارتباطه بالإيمان.
- القول بسموّ العقل.
- القول باستقلال العقل التام إزاء النصّ ومحاولة التحرّر من سلطته.

---

[1] – عالجنا بعضاً في القسم الأول من الكتاب .

الجذور التاريخية ، والمصادر الوجدانية للخطاب المضـــاد :
(خلفية تاريخية)-١-

الإسلام دين سماوي، نزل ليضع حداً فاصلاً بين زمنين، الزمــن الجاهلي، الذي جهل الوحدانية، والزمن الإسلامي الذي نـــادى بـــها إيماناً مطلقاً، ومع ظهور هذا الدين الجديد، برزت ظـــاهرة الدينـــي والدنيوي وقد وحّد الإسلام بينهما، واعتبرهما وجهين لحقيقة واحــدة، ودعا الناس جميعاً في ذلك العصر إلى الإيمان بوحدتهما وتقديرهمـــا حق تقدير، إذ أن الدنيا تعاش لا لذاتها وإنما كطريق، ومعبر للحيـــاة الآخرة، والخلاصة، لا تعارض، ولا تناقض بين الحياة الدنيـــا، والحيـــاة الآخرة، ويعمل المؤمن لدنياه كما يعمل لآخرته، فالمطلب الإسلامي كـــان في العمل للحياتين .

- سياق العصر الجاهلي .
- انتفض المعارضون في عهد النبي، ولم يقبلوا هذا التوحيد بيـــن الدين والدنيا، ولم يؤمنوا به وقد قدّموا أطروحاتـــهم فـــي هـــذا المجال، والقائمة في جوهرها على التعلق بالحياة العاجلة واعتبار الدنيا البداية، والنهاية، وإن الإنسان لا يهلكه سوى الدهر.

لقد عكس القرآن الكريم أطروحاتهم في عدد من الآيات نذكر منها علـــى سبيل المثال:

"وقال إبراهيم لقومه إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكـــم فـــي الحياة الدنيا، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم، ويلعن بعضكم بعضاً ولكـــم النار، وما لكم من ناصرين" (العنكبوت ٢٦).
"بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى" (الأعلى ١٦).
"كلا بل تحبون الحياة العاجلة، وتذرون الحياة الأجلة"(القيامة ٢١).
"إن هؤلاء يحبون العاجلة، ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً"(الدهر ٢٧).

يلاحظ في الآيات أن الموقف الرافض يعتمد على الجانب الوجداني، أو العاطفي، فالمشركون وقفوا ضد الدعوة الجديدة التي توّحد بين الدين والدنيا بواقع "حب" وإيثار "ومودّة" وهي ألفاظ كما نعرف ذات بطانة وجدانية _ (انظر أطروحتنا بعنوان جدلية الوحدانية والإشراك- مركز الكتاب العربي- بيروت ١٩٧٨) لقد نفى المشركون آنذاك الدعوة الجديدة، ولم يقبلوا الحوار في الوقت الذي دعاهم النبي إلى الحوار، والمجادلة بالتي هي أحسن، ودعاهم إلى كلمة سواء، وكان موقفهم "الدنيوي" صعباً ومعقداً، إذ كانوا ينظرون إلى نجاح الدعوة الجديدة من خلال مصالحهم، ويربطونها بالنجاحات السياسية والاقتصادية، والعقائدية التي سيحققها،النبي محمد(ﷺ) فكان موقفهم صلباً، عنيداً رافضاً نافياً للحوار والجدل حول الوضع الجديد، لقد كانوا يستشرفون خطر الدعوة الجديدة على مصالحهم، ولقد رفضوا التغيير بمعنى ما، في نمط تفكيرهم وحياتهم، ورفضوا إعادة النظر في إيمانهم القديم ووجهوا جهودهم للصراع، ومحاربة الدين الجديد، وانتقلوا من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم إن صح التعبير.

اضطر المسلمون آنذاك إلى الدفاع عن إيمانهم الجديد، وحصلت معارك يعرفها المسلمون، بدءاً من معركة بدر، وانتهاء بمعارك الفتنة الكبرى، وظهور حالة جديدة، ومرحلة جديدة من السلطة المطلقة لبني "أمية" كما هو معروف في التاريخ الإسلامي.

القرون الهجرية : الخمسة الأولى: (خلفية تاريخية)-٢-

مال "بنو أمية" ميلاً شديداً إلى: الدنيا، وغالبهم نصيب الحياة الدنيوية من سياسة واجتماع وآداب، بذلك يكونوا بمعنى ما قد ورثوا، بوعي، أو بلا وعي محبّي الدنيا في عهد النبي الذين نافحوا، وناضلوا، وقاتلوا من أجل أطروحاتهم أو إيديولوجيتهم الدنيوية.

ولكن في بداية عهدهم تفجرّت المجادلات الكلامية، والنقاشـــات في شرعية السلطة، والموقف من الصحابة، والمتقاتلين منهم بعد وفاة النبي من أجل الخلافة. لقد بعث كبير المتكلمين آنـــذاك "جـــهم بـــن صفوان" بالمناقشات الكلامية، والمتأثرة بدورها بنقاشات أهل الشـــام من النصارى في مسائل دينية عويصة.

ولقد تطور الموقف الدنيوي "أو بتعبير الفلاسفة" الله– العـــالم أو التي كانت قد ظهرت ، كما قلنا مع ظهور الديانة الجديـــدة، أعنـــي مشكلة الديني والدنيوي والصلة بينهما.

من المسلمين أنفسهم من تفجرت لديه أسئلة كثيرة حول مسألة توحيـد الدين والدنيا، وبدأت السجالات الفكرية المبكرة بين: أهل الدنيا، وأهل الدين أن صح التعبير.

لقد أراد المسلمون الذين تفجرت لديهم الأسئلة حول وحدة الديـن والدنيا، أن يفهموا، ويعملوا عقولهم في طبيعة هذه الوحـــدة، وفـــهم التوحيد بين جانبين مختلفين بالطبيعة وبدأوا يفكّرون فـــي "تعقيـــل" موقفهم الإيماني، كما بدأ المسلمون بالبحث عـــن الأدوات الناجعـــة (الفلسفة– المنطق) لتسويغ التوحيد وتبريره.

لا شك أن القول بتوحيد الروحي والزمني– أو الديني والدنيـوي تصدر عنه أمور كثيرة في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والثقافـة (والموقف)، أي بتعبير آخر إن تطبيق هذه الثنائية أو ممارستها يعني التقيد بقواعد الديني التامة (في العبادات والمعاملات) وكافة شـــؤون الحياة الفردية والاجتماعية، واستخراج السلطة السياسية والاجتماعيـة والاقتصادية من هذه العقيدة، وبتعبير آخر أكثر تحديداً الالتزام بمبـدأ "حاكمية الله" انطلاقاً من الآية القرآنية الكريمة "ومن لم يحكم بما أنزل

الله، فأولئك هم الكافرون" والحكم هنا بالمعنى العام، فلا فصل بين الروحي والزمني، ولا بين الدين والدنيا، ولا بين العقيدة والشريعة، ولا بين الدين والدولة.

قلنا منذ لحظة أن المناقشات الكلامية، وبداية الجدل الكلامي في المشكلات والمسائل التي طرحت في الساحة الإسلامية منذ القرن الثاني للهجرة، لجأ الطرفان، أو الفرق الإسلامية المدافعة عن العقيدة بأداة العقل، والأطراف الأخرى المناوئة، أيضاً اعتمدت بدورها على العقل والنقل، وبرزت مشكلة العقل والنقل (النقل أي الوحي).

حاول كثير، ممن اعتنق الإسلام، وكان أصلاً ينتمي إلى تراث مختلف، في بلاد الفتح بإثارة شكوك، وطرح أسئلة، حول طبيعة الإيمان، وحقيقة العقيدة، ولزوم الشريعة، لقد حاول هؤلاء تمثيل الجانب الخارج عن النص الديني،أو الجانب المتحرر على صعيد التفكير، من النص، لقد ابتعد عنه ليناقشه.

هذا الجانب المتحرر من النص، والذي أخذ يطرح تساؤلات ويدخل في مجادلات، ومسأجلات فكرية منذ ذلك العصر، ما يفصّله، كتاب "المفكرون الأحرار في العصر الإسلامي الوسيط" وهو ما سنعرض له بعد قليل، ويورد صاحب الكتاب اسماء لشخصيات ممثّلة لهذه التيارات "الحرّة" الليبرالية في تاريخ الثقافة الإسلامية، من القرن الأول الهجري إلى الخامس الهجري.[1]

---

[1] – من قبيل ابن المقفع ، والرازي ، وحنين بن اسحاق والمعري وغيرهم .
ونجد تفصيلات أخرى في كتاب الدكتور "بدوي"(من تاريخ الإلحاد في الإسلام).

الواقع لقد وردت كلمة "يعقلون" ما يتصل بها من كلمات "يتفكرون" في تسعة وأربعين آية كريمة في القرآن الكريم، وقد وردت في صيغة، "يتفكرون" "يعقلون"، "قلوب" ، "وأفئدة "، لأن أمر العقل في القرآن لا يخلو من "بطانة وجدانية" كما قال الدكتور الجابري (بنيه العقل العربي) هناك تداخل بين هذه الألفاظ في المعنى، إذن لم يتفاضى القرآن عن استخدام العقل، والتفكير، في مسألة الإيمان، ولكن بشرط أن لا يتجاوز العقل حدوده أي التفكير في ملكوت الله لأن الإيمان في نهاية المطاف، مسألة فطرية لا تحتاج إلى أدلة، وبراهين منطقية، أو فلسفية أو علمية، ولكن أورد القرآن والعقل لاستخدامه كأداة ناجعة للبرهان.

ونقفز من القرن الخامس الهجري إلى العصور العربية الإسلامية الحديثة لنلتقي والباحث الأمريكي في كتابه "الليبرالية الإسلامية " ليحدثنا عن الليبرالية (العلمانية) أو أصحاب الدنيا في تعبيرنا. ويذكر اتجاهات الليبرالية المحدودة، والمطلقة والباحث يسرد شخصيات كثيرة يدلل على أطروحاته التي لا تخلو من عمق وجدّية. فيفصّل الكتاب نظرية التنمية في الشرق الأوسط، والليبرالية السياسية عند علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ثم أعمال المستشار "طارق البشري"، مروراً بالأصوليات الإسلامية والإسلام والرأسمالية والقومية الليبرالية والتراث والتأويل والأصالة، وأخيراً نظرات مستقبلية في الحكومات الليبرالية في الشرق الأوسط، أو مستقبل التفكير الليبرالي.

إذن يلتقي الباحثان الفرنسي والأمريكي، رغم اختلافهما في طريقة المعالجة، ومنهج البحث في القول أن هناك ثقافة أخرى مضادة الثقافة العربية الإسلامية السائدة، وربما، من وراء السطور يحاولان إعادة الاعتبار لتيارات مضادة للتيارات السائدة إخلاصاً

منهما لسياق حضاري يعيشان فيه "أعني الالتزام بالتعددية الفكريـــة" وحوار الأضداد .

الخلاصة:

مشكلتان أردنا تسليط الضوء عليهما من خلال هـــذا العــرض السريع، واللتان كانتا خلفية أو أرضية للحديث عـــن ثقافــة عربيـــة إسلامية مضادة، وثقافة جرى تعتيم عليها من قبل مؤرخي المذاهـــب والأفكار الذين كانوا ينتمون، بشكل أو بـــآخر إلـــى الإيديولوجيـــات السلطوية، والأخطر من هذا أن نصوصاً بكاملها، ومؤلفـــات وكتبـــاً تعكس آراء ووجهات نظر التيارات الفكرية المضادة وخاصـــة فـــي عصور الحضارة العربية الإسلامية والتي عالجـــها "الفرنســـي" قـــد ضاعت، ولانعرف عن آراء أصحاب هذه التيارات إلا مـــن خـــلال الناقدين لها، والذين دحضوا هذه التيارات في حينها.

والمشكلتان اللتان أردنا الحديث عنهما همـــا: ظـــاهرة الديـــن، والدنيا، والصلة بينهما إحدى المشكلتين كما قلنا تشكل الخلفية للقـــول بالعلمانية، والثانية: العقل والنقل وهي أيضاً الخلفية للقول بانفصـــال العقل عن النقل، ومحاولة استقلال الأول عن الثاني ولهاتين المسألتين أبعاد سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية –فكرية .
الشارقة ٢٠/١١/١٩٩٧

لماذا فشلت النهضة العربية ونجحت الإيديولوجية الصهيونية ؟
هل ظهرت الأصولية الإسلامية على أنقاض العروبة والقومية ؟

جان لاكوتير Jean Lacouture [*] شاهد قرن زمني عربي ضائع- يراقب أحداث العالم العربي منذ أكثر من خمسين عاماً يكتب، بالتعاون مع عربيّين أولهما: الأستاذ "غسان تويني" والثاني "جيرارد خوري". كتاباً بالفرنسية عن مائة عام من "عزلة العالم العربي" إزاء النهضة، والحداثة، وكذلك يتحدث الكتاب عن حدث الأحداث في العالم العربي، ألا وهو غزو العراق المحتمل.

أجرت مجلة "الإكسبريس الفرنسية" حواراً حول صدور الكتاب، وحول بعض من تصوّراته الشخصية حول الحاضر العربي.

الحوار :

- الاكسبريس: لماذا وضعتم كتابكم تحت عنوان "قرْن عربي ليس على شيء" أو "العرب في مائة عام"
- لقد وضع هذا الكتاب ثلاثة مؤلفين يشغل العالم العربي فكرهم منذ زمن طويل ، ويطرحون أسئلتهم القلقة حول تطور أحداثه- والثلاثة هم : غسان تويني، وجيرار خوري- من لبنان، وأنا .

نعتقد نحن الثلاثة أن المأساة التي يعيشها العالم العربي لها جذورها البعيدة والممتدة على أرضية التاريخ الحديث. وكذلك حاولنا البحث

[*] جان لاكوتير كاتب، وصحفي فرنسي، وهو محلل ومعلق على إحداث الشرق الأوسط في الإذاعة الفرنسية، عنوان الكتاب بالفرنسية .Un Siecle 2002-Paris . les Arabes , Pour rien

عن تاريخ مناسب لبداية ما سميّ بالنهضة العربية، أو ولادة العالم العربي الحديث .

وُلدت هذه النهضة Renaissance ، في الوقت نفسه التي ولدت فيه الإيديولوجية الصهيونية، والتي سبقت أفكار "هرتزل" وخلافاً لما هو شائع لدى الكثيرين. وقد تساءلنا في هذا الكتاب حول ولادة هاتين الحركتين: النهضة، والإيديولوجية الصهيونية، وكان ذلك في مرحلة (١٨٦٠- ١٨٧٠) .

وكان سؤالنا الجوهري في هذا الصدد هو: لماذا حققت الإيديولوجية الصهيونية أهدافها، وأُحبطت أهداف النهضة العربية.

حيث ذهبت هذه الأخيرة من إخفاق إلى إخفاق، ومن ثم أخيراً، ذهبت نحو القطيعة!! والخيبة والهجران لتحقيق الأهداف النهضوية؟

* الاكسبريس: كيف تفسرون إخفاق موعد العالم العربي في لقائه مع الحداثة ؟

** عبارتكم "إخفاق العالم العربي في موعده مع الحداثة" صحيحة، ولكن أوروبا أيضاً بدورها قد أخفقت في بعض الأحيان في مواعيدها مع الحداثة، ولنذكر هنا، تاريخياً "أوروبا الرومانية" التي لم تستوعب شيئاً من العالم الجرماني، والإخفاقات في التاريخ في هذا النوع كثيرة.

وفيما يتعلق بالعالم العربي، أعتقد أنه إذا أخفق في لقائه مع الحداثة، المتمثلة بالغرب فذلك، لأن الغرب وصل بحداثته إلى العالم العربي على شكل متجزّئ، ووصل إليه وهو مقسم، فلقد دخل الغرب إلى العالم العربي على أنقاض الإمبراطورية العثمانية، ولكن بدخوله على هذا النحو- أي على نحو متصارع بين: إنجلترا، وفرنسا فضلاً عن صراع هاتين الدولتين مع روسيا: هذا النزاع بين القوى الثلاث لم يعط العرب فكرة إيجابية عمَّا كان لأوروبا بمكنتها حمله إلى العالم العربي ويمكننا - نقد الموقف العربي، لأنه لم يأخذ بالحداثة بسبب سلبيات الغرب ولكن يمكن أن ننقد أنفسنا لأننا لم ننجح في تحقيق

نجاح مثل هذا الموعد للعالم العربي مع الحداثة- ونحن لم نصل إلى الموعد حاملين أغصان الزيتون، وهو أقل ما ننقد أنفسنا، فنحن نحمل جزءاً (لا بأس به) من مسؤولية هذا الفشل.

* الاكسبريس: تتكلمون عن الإمبراطورية الأمريكية في كتابكم، فهل ستقف هذه الإمبراطورية عائقاً أمام تقدم العالم العربي نحو نهضة جديدة ؟

** لا يمكننا القول بأن الأمريكيين قد حملوا الكثير من أفكار الحداثة، إلى العالم العربي أو بالأحرى لم يعملوا الكثير لتحديثه، بل بالعكس، ربما لعبوا دوراً في تراجعه وهو ما صنعوه مع "الوهابية" ثم مع الأصوليين الإسلاميين، وتعاونهم مع هؤلاء وقد شجعوا أيضاً من ناحية ثانية أبالسة إسرائيل.

ولا أريد أن أوحي هنا بنزعة اللا أمريكانية، ولكن أشير فقط إلى الناحية السلبية في الصراع الفرنسي- البريطاني، ومن المناسب أيضاً أن أذكر أنه إبّان محاولة العرب في التحرك نحو التقدم والحداثة، فقد قام الأمريكيون هنا بدور سلبي، تراجعي. حقيقة، توجد أسباب أخرى لهذا الفشل العربي في تحقيق الحداثة مثلاً كون هؤلاء العرب قد رأوا دخول عالم الحداثة دون تحضير "المعدات" أي دون أن يكونوا مستعدين أو مهيئين ، هذا بغض النظر عن استعدادات بعض النخب العربية في لبنان، وسوريا، ومصر، والعراق، حيث تأثر الكثيرون من هذه النخب الحداثة واستطاعوا اللحاق، ودرء النقص إلاّ أن المرحلة التي حاول العرب اللحاق بالحداثة، وامتلاكها، كانت اللحظة الناصرية وذلك "في محاولة" "عبدالناصر" بعث الأمة العربية، وإيقاظها من سباتها، ولكن "عبدالناصر" قد ذهب بعيداً، ولم يلعب الورقة الروسية بتأن وروّية في مواجهة الأمريكيين.

* الاكسبريس هل تتوقع ناصراً جديداً ينبعث من قلب العالم العربي الراهن؟

** من الممكـــن أن يكــون " نــاصرا" جديــدا، خلفــا لعرفــات، فالفلسطينيون، وهم يعيشون في قلب المأساة يمكن أن يّولودوا "ناصر" الغد، فلقد انتهت المهمة التاريخية لعرفات. ولقـــد غطـــى عرفــات مهمتين أولاهما: وجوده الفلسطيني أو شخصيته الفلسطينية، والشروع بالمفاوضات مع إسرائيل، ومهما تكن الأخطاء التي وقع فيـــها، فقـد أدى المهتمين وسيأتي بعده جيل، قد يظهر ربما بعد عشر أو عشرين عاماً من هذا الجيل من يعمل على خلق عالم عربي جديد .

- الاكسبريس : هل يفسر فشل القوميـــة ، والعروبـــة صعـــود الأصولية ؟

** عملت الأصولية على تأكيد وجودها، وناهضت الجميع، ووقفـت ضد العالم أجمع في أحداث "سبتمر ٢٠٠١ وبشكل هَوَسّي" ولقد كـان الهوس هذا شكلاً من أشكال تأكيد الوجود، وقد أعطت أحداث سـتبمر ٢٠٠١ ردود أفعال واعية ضد مرتكبي هذه الأحداث، داخل العـــالم العربي، وظهرت بعض الكتب الجيدة بالفرنسية ككتاب "عبدالوهـــاب مؤدب" بعنوان :

(مرضى الإسلام) "لتصحيح الأحكام المسبقة الصادرة إزاء العــــرب والمسلمين" .

على العموم، لقد فسح "الإرهاب" المجال لصدور ردود أفعال أدت إلى الانطلاق نحو تصحيح كثير من الأفكار، الخاطئة والانطلاق أيضــــاً نحو حداثة من نوع آخر، أي حداثة عربية إسلامية .

على كل حال، آمل أن ينبعث من قلب هذا "الشرّ" الخير المأمول .

* الاكسبريس : هل أصبحنا ننفر من البحث عن أسباب، أو تفسيرات لما حصل في ١١ سبتمر ٢٠٠١؟

** لا عذر، ولا قبول لأية تبريرات يقدمها مرتكبو هذه الأحـــداث، وهناك تفسيرات، وأسباب تدعونا للبحث عنها، لمرحلة ما قبـــل ١١ سبتمبر ٢٠٠٣.

* الاكسبريس : ما التأثيرات الناتجة والمتوقعة في العالم العربـــي إذا غزت أمريكا العراق ؟

** أعتقد أن التأثيرات ستكون مرعبة، وخطيرة، وأنا عـــاجز عـــن تصوّرها أعتقد أن هدف الأمريكيين تقطيع أوصال العـــالم العربـــي، وإعادة ترتيب الأوراق في الشرق الأوسط، من خلال التغلغـــل فـــي العراق، وتدمير السلطة في بغداد سيذهب الأمريكيون نحـــو إعـــادة ترتيب الأوراق، وبشكل أكثر جرأة مما حدث بعـــد ١٩١٧- ١٩١٩. ولنضع جانباً إيران وتركيا ومصر، والتي تشكل ثالوثاً مستقراً بعض الشيء وهي ستشكل أعمدة المعبد، وبالنسبة لإسرائيل ســـتكون فـــي مركز الصدارة في هذه "الإستراتيجية" وهو مايعني، وكما أتصـــور، أن بعض الخرائط للمنطقة سترسم من جديد وستختلف تمامـــاً عمـــا درسناه منذ بضعة أعوام.

وهذه الخرائط تسرح الآن في أروقة سكرتارية الدولة، ووزارة الدفاع في أمريكا وستفاجئنا عند صدورها، والواقع لم يحدث فـــي التـــاريخ الأمريكي أن ركّزت مجموعة من السياسيين، كالتي يتزعمها جـــورج دبليو بوش الرئيس الأمريكي الحالي ، على تغيير الأمور في الشـــرق الأوسط.

* الاكسبريس: بالرغم من المخاوف التي تبديها ، ألا تأمل في نهايـــة المطاف بوجود حل سلمي للمشكلة الفلسطينية الإسرائيلية؟

** لا لا أعتقد بوجود حلّ سلمي الآن ، ومع ذلك لا توجد أسباب بلا نتائج، كما لا توجد مشكلة بلا حل، ولكن الوقت الذي ستتحقق فيـــه مثل هذه الحلول، لا نعلمه الآن، أنا أعيش هذه المشكلة الفلسطينية منذ عام ١٩٤٧، وكنت قد سمعت رئيسية وزراء إسرائيل غولد غمـــائير "تقول يوماً" : هل للفلسطنيين وجود؟ فأجابت كلا ولكـــن منـــذ ذلـــك الوقت أمور كثيرة تغيرت في الواقع الفلسطيني، وبغضّ النظر عـــن مواقف اليمين الإسرائيلي المتطرّف، و(الليكود) فقد أصبـــح الاعـــتراف

بالوجود الفلسطيني أساس كل حديث عن السلم، أو الحرب، وقد تجد هـــذا الموقف عبر المفاوضات منذ سنوات.
أعتقد أن زمن "إسحاق رابين" ســـيعود، والخلاصـــة، إن المشـــكلة الفلسطينية الإسرائيلية لها حل، وبالرغم من تقدمي في السن (عمـــر المؤلف ٨٥ عاماً) وقد لا أعاصر هذا الحل، ولكن هذا لا يمنعني من الاعتقاد، جازماً بأنه ســـيأتي يـــوم (يتعـــايش) فيـــه الفلســـطينيون والإسرائيليون جنباً إلى جنب، (لأنهم جميعاً هم) ســـكان فلســـطين التاريخية.[١]
تُرجم عن الفرنسية

عن الإكسبريس ١٠/١٠/٢٠٠٢

---

[١] – سيكون تنبؤ الكاتب الفرنسي سوياً إذا كان " يهود " فلسطين الحاليين هم يهود العهد القديم ، وليسوا بشتات مجتمعات من دول العالم ، تجمعهم مصلحة مشتركة ، وتجمعهم مؤسسات لها صفة " العصابات " ، ويشكلون قاعدة استعمارية – استيطانية –

الحرب وتحديث العقل

قرع "نابليون بونابرت" في القرن التاسع عشر طبول الحرب متوجهاً بأساطيله الحربية، مصطحباً لعلمائه إلى الشرق، وهو يحمل مشروعه الإمبراطوري بدوافعه الاقتصادية والسياسية، والتوسعية لمجال فرنسا الحيوي، وتحت غطاء من الحاجة العلمية للكشوف الحضارية لكنوز الشرق وكذلك يحمل مشروعه الحضاري لنشر مبادئ الثورة الفرنسية، وثقافة "الحرية، والإخاء، والعدالة" ثم ما لبث أن قفل راجعاً إلى فرنسا يجرّ أذيال الخيبة، واليأس، ولكنه تاركاً بعض الآثار التحديثية على مستوى النخب السياسية والثقافية.

والمحطة التاريخية الثانية هي وصول الاستعمار الأوروبي في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ليستعمر قارتي آسيا، وأفريقيا، حاملا رسالة "الرجل الأبيض" لتحضير وتمدين شعوب القارتين الرازحة تحت نير التأخر، والتوحش والراسخة منذ الأزل في بطون التخلف الحضاري.

ثم ما لبثت أن قامت حركات التحرر الوطني، والقومي لدى شعوب المنطقة حاملة شعار الاستقلال، وأنه لا شيء يعلو على صوت معركة التحرر من التبعية ومطلب الاستقلال الوطني، وحرية الإرادة، وتقرير المصير، ورفض الهيمنة الأوروبية ورفض قيم الغرب الاستعماري، ورفض ما حمله من حداثة، ملغومة، وقيم حضارية كقنابل موقوتة تتفجر تحت أقدام الراسخين في الحضارة عبر مراحل التاريخ القديم.

نتج عن هاتين الواقعتين التاريخيتين كما يعرف المؤرخون احتكاك مباشر، وغير مباشر لشعوب العالمين العربي والإسلامي

بالحضارة الحديثة وأصاب هذا الاحتكاك بالحضارة الحديثة وخاصة بتجلياتها الفكرية والثقافية بعض النخب المتعلمة، والمثقفة، بينما ظلت شرائح الناس في الشوارع بعيدة عن الاحتكاك الفكري، رغم اغتنامها فرص التواصل الحضاري المادي، والاستفادة من المكتسبات المادية للحضارة الحديثة، وظلت متماسكة في جوانب كثيرة من هويتها، وتراثها، وتاريخها، وما يحمله من قيم.

ومجمل القوى في هذه المسألة أن الحداثة قد عاشتها النخب الثقافية والمتعلمة وشعوب المنطقة على صعيد هش، وسطحي، وركيك كما ألمحنا سابقا، ولم تحفر هذه الحداثة الحضارية بمبادئها القائمة على "تحديث العقل" وتحييد "ثقافات النص" في قاع الفكر جحرا فيه من العمق، والرسوخ ما يجعل العالمين العربي والإسلامي يناطحان "الآخر" بمبادئه الحضارية.

ثم نقفز إلى المحطة التاريخية الثالثة، وهي حرب الخليج الثانية (١٩٩٠) ، ووصول الحملة الغربية التحالفية بزعامة أمريكية إلى المنطقة، ويرافق الأمريكيون بعض الباحثين، والأكاديميين في مجالات علم الاجتماع، والأنثرويولوجيا والسياسة والآثار- رغبة من هؤلاء في الكشف عن المنطقة، وخاصة (الجزيرة العربية) وللتعوف على نمط حياة، وتفكير أهل المنطقة، كذلك رغبت الحملة الأمريكية بث القيم الأمريكية "لتحديث المنطقة على الطريقة الأمريكية".

إن القاسم المشترك بين الأحداث التاريخية المذكورة هو أن الحداثة جاءت ترافقها القوة، وإرادة الهيمنة.
وهذا هو " لغم الحضارة " على حد تعبير "أودونيس" .
قاومت شعوب المنطقة هذه الحداثة المفروضة، وازداد تمسكها بقيمها، ومبادئها، وتراثها، رغم أنه كان من الممكن لأهل المنطقة

استخدام أدوات الفكر الحضاري في تشريح القيم، والمبادئ، التقليدية القديمة وطي صفحات التاريخ، والانطلاق نحو الحداثة بثورات عقلية وفكرية، ولكن ذلك لم يحصل ولأسباب جد معقدة قابعة في قعر تفكيرنا، صدتنا عن الغرب وحداثته، ورغم انبهارنا، وإعجابنا الخفي بكل ما أنتجه من تقدم مادي وفكري، فلم يحصل الانقلاب الفكري في مجتمعاتنا ودليل ذلك هو حالة العجز الكامل والإعاقة الكاملة التي تعيشها المنطقة من جراء تراكمات تاريخية جعلتها، لا تملك القدرة على مقاومة أو مواجهة أية إرادة تريد الهيمنة الاستعمارية ملتحفة بغطاء التقدم والحداثة.

استمر منطق القوة يعلو، ونصل إلى نهايات القرن العشرين، ونهاية الحرب الباردة وسقوط جدار برلين (١٩٨٩) ونستمر في القفز لنصل أخيرا إلى بدايات القرن الحادي والعشرين، وعالم ما بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

لقد ظهر جليا لليمين الأمريكي أنه لابد من توجه جديد في الشرق الأوسط بعد أحداث سبتمبر، وذلك لتغيير هندسة مجتمعاته، وإعادة ترتيب المنطقة حسب استراتيجيات جديدة.

وأصبح واضحا كذلك أن ما وراء الهدف المعلن للحرب ضد الإرهاب، وحصره بالعرب والمسلمين هو الهجوم الأمريكي على العالم من بوابة العالمين العربي والإسلامي مع النظر إلى الهدف البعيد وهو الالتفاف حول : الاتحاد الأوروبي، والصين، واليابان، وروسيا.

ودليل ذلك هو تحفظ هذه القوى الأخيرة على الحرب الأمريكية ضد الإرهاب، لا شك أن لهذه الحرب الأمريكية العالمية "ضد

الإرهاب" دوافعها الاقتصادية ولها مردودها الاقتصادي حيث أن بعض التوقعات تشير إلى وصول برميل النفط إلى مائة دولار، أثناء الحرب، وبعد أن تضع أوزارها. إن ما يهمنا في هذا الموضوع هو الحديث عن الغطاء الحداثوي للحرب، وهو غطاء (الديمقراطية، والليبرالية، والعلمانية).

لقد سبق لمحاولة الحديث عن الثالوث الحداثوي المذكور أن عملت الإدارة الأمريكية على تحريك المنطقة عن طريق زيارات متكررة لوفود رسمية متكررة، وخاصة إلى السعودية والخليج تطلب من هذه الدول إعادة النظر في نظمها التعليمية التي تعمل على تصدير الإرهاب وحيث أن نواتجها التعليمية تحقق نسبا عالية من التعصب والعنف والإرهاب، ووجدت الإدارة أن هذه الأنظمة التعليمية تفرخ أجيالا من الأصوليين الدينيين الذين يحاربون، وسيحاربون الحداثة والحضارة (انظر مواد خبرية في الصحف المحلية حول هذه النقطة منذ تاريخ ٢٤/١١/ ٢٠٠١) , لقد عمل الاختراق الأمريكي منذ أحداث سبتمبر على إعادة بناء العقلية العربية السائدة وكان موقف الدول التي دعيت إلى إعادة نظر في بنيتها التعليمية هو "الرفض" على المستوى الإعلامي والظاهر على الأقل، واعتبرته تدخلا ومساسا في سلطتها وتخريبا لحساباتها الداخلية.

جاء الاختراق الأمريكي حقا أريد به باطل ومعنى ذلك أن أنظمتنا التعليمية التقليدية، وهي متهرئة، ولا تقوم على أسس من تحديث العقل ولا إكساب الأجيال مهارات التفكير العلمي وآلياته، أو الناقد، ولا تدفع بالأجيال نحو تبني الروح العلمية، ولا تكسبها مهارات التفكير الإبداعي الخ، ولكن الأسلوب الذي ظهر فيه الاختراق الأمريكي كان أسلوبا "فجا" فلقد أشهر السيف قبل القلم ولم يحمل البدائل، والمشاريع العقلانية التي تسير جنبا إلى جنب مع

الحوار، والتفاهم، والإقناع، هذا بالإضافة إلى كونه قراءة سيئة للعقلية العربية، تلك العقلية التي لا تتغير بسبب تراكماتها ورواسبها العتيقة، بالشكل التي ترغب فيه الإدارة الأمريكية، وبالإيقاع السريع الذي يميز العقلية الأمريكية، والتي تريد فرضه على بنيات تقليدية تعجز النظريات السيكولوجية أمام معرفة، أو التنبؤ باستجاباتها، وردود أفعالها، وتحريكها بنفس الديناميكية التي يتصف بها العقل الغربي.

يبدو أن العقلية الأمريكية الحاملة لهذه الحداثة لفرضها بالقوة هي السائدة حتى هذه اللحظة ولقد جاء الإعلان عن تنفيذ استراتيجية جديدة للمنطقة متزامنا مع نشر سيناريوهات لخطط عسكرية لحرب محتملة ضد العراق، تعبيرا عن الإرادة الأمريكية التي تود أن تفرض نفسها، أو تفرض حداثتها بوسائل عسكرية. فماذا تريد هذه الاستراتيجية الجديدة، وهل نتصور لها النجاح في التحقيق؟.

تقول الاستراتيجية التي نشرت تفاصيلها في الأسبوع الأخير من شهر اكتوبر الماضي في كبريات الصحف الأمريكية، في واشنطن وعلق عليها ناقلا بعض فقرات منها أحد مراسلي إحدى الصحف المحلية في دبي، أن الإدارة الأمريكية عازمة على "إنشاء ممالك عربية عوضا عن الأنظمة الجمهورية الحالية في البلدان العربية ذات النظام الجمهوري، وتريد أيضا" دمقرطة " الحياة السياسة في العالم العربي، وقد سجلت الاستراتيجية المذكورة الخطوات التنفيذية والإجرائية لتحقيق هذا الهدف، وقد صدرت لمحات من هذا التفكير الأمريكي نحو التغيير السياسي قبل نشر الإعلان عن هذه الإستراتيجية، إذ أعلنت هذه الإدارة مرارا، وتكرارا قبل الانتخابات الرئاسة في أمريكا أنها تريد تغيير الأنظمة السياسية، وجاءت أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، لتدفع بالإدارة الأمريكية نحو التفكير الجاد، والفعلي، لتحقيق هذه الاستراتيجية.

وقد صرّح "مارتن أنديك" في وقت مبكر قائلاً إن إدخال الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والثقافية في أنظمة الدول العربية بات بعد ٢٠٠١/٩/١١ هدفاً من أهداف الأمن القومي الأمريكي" (١٣ مايو ٢٠٠٢).

الديمقراطية هي أولاً، مشروع عقلاني لا يكتسبه الناس في فكرهم، ولا يمارسونه إلا بعد تجربة طويلة، وهي لا تُفرض فرضاً من قبل أنظمة سياسية داخلية أو خارجية، ولا يُقحم من الخارج بالقوة العسكرية، والديمقراطية القائمة أساساً على الحرية على مستوى حياة الفرد، والمجتمع والمؤسسات، لها جانبها المعرفي حيث يُربّى عليه الفرد منذ صغره، ولها جانبها المهاري حيث يمارس الفرد في كل جوانب حياته الخاصة والعامة، إنها بكلمة مختصرة، موقف عقلي، وسلوكي، فردي ومجتمعي.

وسؤالنا هل تنجح الحرب والقوة العسكرية في إكساب هذا الموقف العقلي الجديد للشعوب العربية؟ وهل يصبح الناس ديمقراطيين بالإرهاب، وبأسلحة الدمار؟

صحيح أن الشوارع العربية عموماً، ونعتذر عن إصدار مثل هذا التعميم لأن لكل قاعدة استثناء، هي شوارع مظلمة (تسودها العقلية الظلامية) رغم مشاعرها وأحاسيسها الوطنية والقومية، إلا أنها على مستوى التقدّم العقلي، والفكري، لم يسر فيها التنوير جنباً إلى جنب مع مسيرة حياتها اليومية الغارقة في استخدام المنتجات المادية للحضارة، إن عقليتنا ما تزال تعشعش فيها الخرافة، والأسطورة، والعقلية القبلية، وتقديس النصوص، والتقاليد، والأعراف، ومن ناحية أخرى لن تكون هذه الشعوب مستعدّة لاستبدال عقليتها بحال

استعمارية حتى لو زينّت هذه الأخيرة نفسها بأنها حاملة الخلاص السياسي بتطبيق الديمقراطية وشعارات حكم القانون والمؤسسات.

ثم إن "الحديث عن إصلاح نظم الحكم في بعض الدول العربية هو أيضاً حق، يُراد به باطل- كما كتب الدكتور "مصطفى الفقي"- لأن هذا التغيير الذي تريده الإدارة الأمريكية قد يأتي على حساب الديمقراطية ذاتها، خصوصاً أن الانتخابات الحرّة سوف تأتي بعناصر قد لا تكون مواتية لتصورات الإدارة" (الخليج ٣٠/٦/٢٠٠١).

والنقطة الثانية والمهمة في الثالوث الاستراتيجي الأمريكي، هي: الليبرالية، ودمج الدول العربية دمجاً حقيقياً في اقتصاد السوق، وإلحاقها "عنوة" بالاقتصاد العالمي الرأسمالي خصوصاً، وتغض الإدارة الأمريكية الطرف عن واقع الدول العربية الغير متقدمة صناعياً، والمستوردة بالكامل للتكنولوجيا الحديثة، والمعتمدة أساساً على ما يسمى بالاقتصاد الريعي، حيث أن النفط ما يزال يشكل ٧٠% من صادراتها، وأن صناعاتها الحالية المتواضعة لا تقوى بضعف جودتها، ومواصفاتها الرديئة، على منافسة الإنتاج الصناعي للدول المتقدمة.

والنقطة الثالثة، والأخيرة من ثالوث التغيير في العالم العربي، هي المسألة العلمانية أو الثقافية، ولعلها أخطر النقاط إثارة، على المديين المتوسط، والطويل، ذلك أن الأمر يعني تغيير نمط تفكير الناس، واكتسابه آلية عقلية جديدة، ومطالبته بتحييد "ثقافة النص"، وإبعاد الإسلام السياسي من الساحة، الواقع يمكن اكتساب الكثير والكثير من الجوانب الإيجابية في نمط التفكير الأمريكي وتطوّره، وتقدمه في مختلف المجالات، ولكن يجب أن يتم ذلك في أجواء من التعايش والحوار، حيث يمكن الإعداد والتخطيط له ووضع

الاستراتيجيات المختلفة المستويات المعرفية، والمهارية، في الفكر، والحياة، أمّا أن يتم التغيير الفكري- من خلال قعقعة السلاح- وإلقاء القنابل .فذلك أمر مستحيل.

لقد سبق للاختراق الغربي الاستعماري أن حاول الكثير في عالمنا عن طريق "فرض" نظم مختلفة في التفكير في المدرسة، والمؤسسات، وعلى مستوى النخب الثقافية لنتأمل حالة "الجزائر" مثلاً، وحاصل الأمر كان صفراً تقريباً. فلقد كان الهدف هو تغيير "الهويّة" للشعوب أكثر من كونه رسالة حضارية تحمل في طياتها إكساب المستعمَرين (بفتح الميم) نمط فكري متقدم، أو زرع الروح العلمية، أو إكساب مهارات فكرية تسير بالشعوب المستعمرة نحو التقدم العقلي، ومسايرة ركب الدور المتقدمة في الفكر والحياة.

إن التغيير، أو التحديث يأتي عن طريق "الأنموذج" والشعوب المتأخرة تنقاد بطبيعتها إلى من يعطيها المثل الأعلى، في الفكر،والحياة، في التقدم والحضارة ويعرف الأمريكيون تماماً أن أول خطوة لتحقيق النجاح، هو الاقتداء بالناجحين، أو على حد "تعبير" "ابن خلدون" إن المغلوب يميل إلى تقليد الغالب، والتقليد يكون بالقدوة وليس بالإكراه.

إن الحروب، والثورات تغير الخرائط، وتزيل البُنى السياسية وتطيح بالأنظمة وتحاكم الطغاة، ولكنها لا تغير العقول، لأن ما يغير العقل هو العقل نفسه.

يقول "توفيكو" إن تواتر الحروب يبرهن على أنها لا تغير شيئاً، ولقد درس أحد منظري الحروب ثمانية آلاف حالة حرب، ووجد أن كل حالة حرب قادت إلى أخرى .

والخلاصة إن الحروب لا تلد إلا الحروب، ولا تورث سوى البغضاء والكراهية في أنفس الأجيال، ولا تترك إلا الأشلاء الممزقة وسط وعلى قارعة الشوارع المقفرة، ولا تترك وراءها إلا الدمار، والبؤس، والتشوهات لمعالم الحياة، إنها تفرز نزيف الدم، والمناظر الجسدية الأليمة، والنفوس الممزقة، والعقول الصدئة الخالية من كل عقلانية، ورشاد، الحرب هي لا معقول، واللامعقول لا يمكن أن يقود العقل. إن الحرب الظالمة، والمفروضة، والتي يرض وتخطط لها الأدمغة الشريرة، رغم كل ما تحققه من مصالح آنية لأرباب صناعة الأسلحة، والشركات الكبرى العسكرية والمدنية، تظل أبشع ما توصل إليه العقل البشري من ابتكار، وأسوأ ابتكار شرير صنعه الإنسان، وأعمق مأساة تعيشها البشرية.

إذا كان تاريخ بعض الأمم سلسلة من الحروب، فأية حضارة تصدر عن سلاسل الحروب، وبما تخلقه من دمار وخراب، في العقل، والجسد، والروح.

فيا حكماء العالم، ومحبّي السلم والتعايش اتحدوا ضد صقور الحرب والقتل.

مقال لم ينشر

الملاحق (٢) مقتطفات مختارة

نصوص حول الموضوع

١- ما المقصود بعبارة (الإسلام المستنير) ؟ د.يحيى هاشم فرغل (أستاذ في جامعتي القاهرة والإمارات)

٢- قرن تغريب الأمة ..فهمي هويدي، صحفي (الإهرام)

٣- لم نعد نعلم في أي مرحلة من مراحل التاريخ نحن نعيش ... د.حسن حنفي، مفكر إسلامي مصري وأستاذ جامعي .

- هل نحن جيل الإحياء ؟
- هل نحن جيل الإصلاح ؟
- هل نحن جيل النهضة ؟
- هل نحن جيل التنوير ؟
- هل نحن جيل العقلانية ؟

٣- الحداثة المادية والتغيّر الاجتماعي .... د. محمد جابر الأنصاري، أستاذ جامعي ومفكر بحريني

٥- الحداثة المادية، والمجتمع الأبوّي .... د.هشام شرابي، أستاذ جامعي ومفكر فلسطيني مقيم في أمريكا.

ما المقصود بعبارة (الإسلام المستنير) ؟

في جواب على سؤال موجه إلى أحد علماء الديـــن الإســـلامي حول مفهوم الإسلام المستنير، جاء ما يلي :

-١-

"الإسلام المستنير مصطلح شائع منذ عقدين من الزمان، يشير إلـــى تيار فكري يجمع بين الإسلام والعصر، الماضي، والحـــاضر، كمـــا عرف باسم: الأصالة، والمعاصرة أو التراث والتجديد، ويقال عـــادة أنه لا يوجد إسلام مستنير، وإسلام غير مســـتنير فالإســـلام واحـد، والواقع أن الإسلام المستنير تيار ثقافي يوجد في كل عصـــر عـبر تاريخ الإسلام الطويل ويشير إلى تفسير معين للنصوص، واختيـــار اجتماعي معين فهو يشير إلى تيار اجتماعي في مقابل تيارات أخـرى كما هو الحال في الفرق الكلاسيكية من معتزلة، وأشاعرة، والمذاهب الفقهية مالكية، وحنفية وشافعية وحنبلية، واتجاهات فلسفية عقليـــة أو إشراقية، ومذاهب صوفية معتدلة وغالية، وكلها تنتسب إلى الإســـلام، فالإسلام المستنير يمثل إحدى فرق العصر، من كلاميـــة، ومذاهـــب فقهية، وتيارات فلسفية.

والإسلام المستنير ليس غريباً على الإسلام فقد وُجد منذ نشـــأته الأولى، كان فهماً مستنيراً لليهودية والمسيحية بعيـــداً عـــن عبـــادة الأحبار والرهبان وتعظيمهم واعتزازاً بدور العقل في رفضه مظـاهر الشرك، والتعدد.

- ٢ -

الإسلام المستنير ثقافة الناس، النخبة والجماهير والطبقات المتوســطة تستعمله النخبة لإعطائها شـــرعية التـــاريخ، وتســـتعمله الطبقـــات المتوسطة دفاعاً عن القانون والنظام، وهو حي في الثقافـــة الشـــعبية

التي تمدّ الناس بتصوراتهم وقيمهم ومعايرهم، وهو أساس مشـــترك للجميع، يسهل الانتساب إليه، والولاء له بعيـــداً عـــن الاختبـــارات الإيديولوجية المتنافرة، والتنظيمات الحزبية وأجهزة الإعلام دون مـــا حاجة إلى منبر مستقل، وجهاز إعلامي جديد، وهو الرابطـــة بيـــن الحاكم والمحكوم بين الحكومة والمعارضة يمكن الاحتكام إليه حتـــى لو تباينت التفسيرات لا يرفض الحاكم أن يكون الأمر بينـــه، وبيـــن المحكوم شورى، وأن يحكم بالعدل، وأن يحقق العدالـــة الاجتماعيـــة والمساواة، وأن يستمع إلى النصح، وأن يدافع عن الثغور، وأن يعلـــم الناس، وأن ينمي موارد البلاد، ولا يرفض المحكوم أن يتم تحقيـــق مصالحه باسم ثقافته حتى يتوحد ماضيه في حاضره، وحاضره فـــي ماضيه فلا يثور على الحاضر باسم الماضي ولا يثور على المـــاضي باسم الحاضر.

- ٣ -

الإسلام المستنير إذن، تيار ثقافي واختيار فكري، وممارسة عمليـــة لبناء الأوطان وتغيير المجتمعات لما هو أفضل في إطار من الثقافـــة المشتركة، والعمل الوطني الموحد بعيداً عن التنازع والتنافر والقتـــال بين الأخوة الأعداء ففي أوقات التحديات الكبرى تتوحد الجهود".

عن صحيفة (الخليج) ٢١- مايو/أيار ١٩٩٩ .

قرن تغريب الأمّة

بمناسبة احتفال الأمة بحلول العام (٢٠٠٠) الميلادي، و(القـــرن الخامس عشر الهجري) يناقش المفكر الإسلامي "فهمي هويدي" مفتي السعودية حول تحريمه الاحتفال بالمناسبتين لعدم وجـود سـند فـي الكتاب والسنة، ويميل الأستاذ "هويدي" إلى عدم التحريم مـــع عـدم التحيّز الكامل لأولهما، ويقول بصدد محور كتابنا ما يلي:
"بوسعنا أن نقول بغير مبالغة أن القرن العشرين هو قـــرن تغريـب العالم العربي وأن ما كرسّه الزحف الاستعماري الذي هيمـــن علـى أفكاره في القرن التاسع عشر جنى حصاداً وفيراً لـــه فـي القـرن العشرين، ولم يقف الأمر عند حدّ التغريب فحسب، وإنما اسـتصحب ذلك نوعاً من التفكيك التدريجي لأواصر الأمة، ومـــن يدقـق فـي خريطة الأوامر يلاحظ بقوة أن فكـرة الجامعـة الإسـلامية كـانت مسيطرة على العقل العام في بداية القرن وهي الفكرة التي دعا إليـها السيد "جمال الدين الأفغاني"، وتبّناها السلطان "عبد الحميـــد " كلـها تراجعت على نحو تدريجي، ومنيت بضربة قاصمة حين "ألغى كمال أتاتورك" الخلافة الإسلامية في عام (١٩٢٤) وفي منتصـف القـرن ولدت الجامعة العربية التي تم التوقيع على ميثاقـــها عـام (١٩٤٥) ورغم أن الفكرة بريطانية الأصل إلا أنها لبّت حاجة أفرزها الفـــراغ الموجود بالمنطقة، وفي الربع الأخير من القـــرن تراجعـت فكـرة الجامعة العربية بدورها، وبرزت الاتحادات الإقليميـــة (الخليجـي، والمغاربي، والتعاون العربي) لكن القرن انتهى ببروز مشهود لفكـرة "القطرية".

لسنا في مقام تحري الأسباب التي أدت إلى ذلك، ومدى إســهام القوى الخارجية في إحداث التفكيك، وإجهاض الحُلمَيـــنْ الإسـلامي والعربي على التوالي، لكن أكثر ما يهمنا في الســياق الــذي نحــن

بصدده إدراك حقيقة إننا كلما اقتربنا من الغـــرب تمثـــلاً والتحامـــاً، افترقنا عن دوائرنا الحضارية الإسلامية والعربية، حتى إذا بلغ ذلـــك الاقتراب مدى بعيداً ترجم إلى اختراق أعاد "القطرية" إلى الواجهة.

التغريب كانت له مداخل عدة، وكان التشريع أحـــد أهـــم تلـــك المداخل في القرن التاسع عشر باعتبار أن القوانيـــن تنظـــم قطـــاع المعاملات العريضة، وإعادة صياغة تلك القوانين وفق فلسفة ونظـــرة معينة تؤدي في نهاية المطـــاف إلـــى إعـــادة صياغـــة العلاقـــات الاجتماعية، بل وإعادة تشكيل المجتمع من جديد، وللمستشار "طـــارق البشري" النائب السابق لرئيس مجلس الدولة دراسة مهمة غطت هـــذا الجانب صدرت عن دار الشروق بعنوان "الوضع القانوني المعـــاصر بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي" وفيها رصد الكيفية التـــي تمكنت بواسطتها الدول الغربية من اختراق النظام التشريعي للدولـــة العثمانية مما أدى إلى تراجع الشريعة الإسلامية لصـــالح القوانيـــن المستجلبة من الغرب، وهو ما حدث في مصر.

نقل "البشري" عن مؤلف كتاب (أســـس التقـــدم عنـــد مفكـــري الإسلام) الأردني الدكتور "فهمي جدعان" قوله: إن استبدال القـــانون الوضعي بالشريعة باسم التوحيد بينهما أدى عملياً إلى استبعاد الإسلام من حقل التدبر السياسي والاجتماعي للدولة والمجتمع وهو الاســـتبعاد الذي كانت له أصداؤه البعيدة ليس فقط في نظم المعاملات وإنما أيضاً في الثقافة السائدة والأفكار، بل وفي علاقة القـــانون الـــذي أصبـــح وضعياً ومعتمداً على شريعة واحدة من الخـــارج بالنســـق، والقيـــم الأخلاقية ذات المرجعية الدينية، ومن ثم أصبح المجتمع يحتكم فـــي معاملاته إلى غير ما يحتكم إليه في سلوكياته خلال القرن العشـــرين خصوصاً بعد ثورة الاتصالات، والبث الفضائي تحقق للغرب وللنخبة التي التحقت به مرادهما، واقتلعت رياح التغريب الكثير من الأعمـدة،

والوشائج، حتى أصبح الانتماء إلى الأمة العربية فضلاً عن الإسلامية إذا أتى أحد على ذكره، يقابل بالاستغراب، والاستهجان، الأمر الـذي يغدو في الاحتفال بالقرن الميلادي، والتهوين من شأن الهجري نتاجـاً طبيعياً لا غرابة فيه".

فهمي هويدي- في مقاله الأسبوعي بعنوان (قـرن تغريـب الأمـة) عن/صحيفة الخليج ٢٠٠٠/١/٤ م

لم نعد نعلم في أية مرحلة من مراحل التاريخ نحن نعيش ؟

يقول الدكتور حسن حنفي :

-١-

هل نحن جيل الإحياء ؟

هل نحن جيل الإحياء نعيش عصر الإحياء، ونقوم بدور الإحياء، وفي حقيقة الأمر لقد مررنا بعصر الإحياء، وهو معروف في أدبنا الحديث بهذا الاسم ممثلاً في "البارودي" أولاً ثم في "شوقي" في (نهج البردة) وكان القصد منه إحياء الآداب القديمة، والنسج على منوال القصيدة العربية، وإحياء المعارك العربية القديمة.

وما زلنا نقوم بذلك حتى الآن، نطبع المعلقات السبع ونشرحها ونتناقش في صحتها وانتحالها، ونعيد النظر في المناقضات بين "جرير والفرزدق" ونهاجم الأدباء الشبان الذين خرجوا على القصيدة العمودية، وندعو إلى أدب القدماء حتى انتصر القدماء على المحدثين، واستولوا على أعنّه الأدب فهاجر المحدثون إلى الخارج أو إلى الداخل ريثما يوافي القدماء الأجل، وبالتالي لم ينشأ الاتجاه نحو المستقبل في حاضرنا نظرة لسيطرة القدماء على المحدثين، وامتداد الماضي على الحاضر والمستقبل.

لقد استطاع الإحياء، ولا شك بعث الماضي، وبث العزة القومية في لحظات الضعف والهوان أمام الاستعمار، والاحتلال تجاوزاً لمظاهر التخلف، والانهيار الحضاري وباعثاً للنهضة الحديثة، كما

استطاع ربط الحاضر بالماضي عن طريق الأدب خاصة في الشعر، وتحقيق التواصل الحضاري، وتثبيت الهوية القومية في اللغة والأدب وتحقيق التجانس في الزمان عبر التاريخ، كما استطاع شعراء الإحياء تأسيس إبداع الحاضر على إبداع الماضي والتعبير عن تجارب العصر في قوالب الماضي كما هو الحال في شعراء "البارودي" و"شوقي" و "حافظ" على اختلاف النسبة بينهم بين الماضي والحاضر، إذ أنه أقرب إلى الماضي عند "شوقي" وأقرب إلى "الحاضر" عند "حافظ" ووسط بين الاثنين عند "البارودي".

وأخيراً استطاع شعراء الإحياء المساهمة في الحركة الوطنية سواء في الثورة العرابية كما هو الحال عند "البارودي" أو في الثورة الوطنية كما هو الحال عند "حافظ". ومن ثم أصبح الشعر منبراً للروح الوطنية ومعبراً لها.

ومع ذلك فقد اقتصر الإحياء على الأدب عامة، والشعر خاصة دون باقي مظاهر الإبداع الحضاري في الفلسفة والعلم، فسبق الشعر، وتأخرت الفلسفة ولم يحدث حتى الآن إبداع ذو شأن في العلم.

كما استمرت فترة الإحياء مدة أطول مما ينبغي، بل إنها لم تنته حتى الآن، فما زلنا ندعو إلى إحياء التراث نشراً، وتحقيقاً، وبعثاً، وقراءة، ونجد فيه أنفسنا، يدل على ذلك، رواج كتب التراث دون غيرها، كما أن الإحياء في حد ذاته أقرب إلى القديم منه إلى الجديد...

(المصدر: د. حسن حنفي– دراسات فلسفية في الفلسفة الغربية الحديثة والمعاصرة– فصل/ المستقبليات– دار التنوير – ط٢ ١٩٩٥ ص٢٨٦–٢٨٨).

هل نحن جيل الإصلاح؟

-أ-

"هل نحن جيل الإصلاح، نعيش في عصر الإصـــلاح، ونقــوم بدور الإصلاح؟ وهي المرحلة التي اشتهرت في حياتنـــا المعـــاصرة باسم الإصلاح الديني والتي نتحدث عنها دائماً والتي نربط أنفسنا بها باستمرار، إذا ما أعيتنا الحيل، وتخبّطت السُـــبل وأرادت الأنظمـــة السياسية أن تجد لها شرعية تاريخية من المـــاضي أو تحديثـــه مـــن الحاضر خاصة أن البعض منها كوَّن رصيداً في جيلنا من مناهضـــة الاستعمار والاحتلال وتحقيق الاستقلال الوطني للبلاد.

لكن الإصلاح ما زال حركة نسبية على مستوى العقائد، علـــى مستوى الممارسة في سلوك الأفـــراد، وفـــي النظـــم الاجتماعيـــة، والسياسية تجاوزها واقعنا بمراحل، وهو الذي في حاجة إلى إحكـــام نظري، وإلى عمل ثوري جذري؟ فالإصلاح يدعو إلى ملكية مقيدة أو مليكة دستورية أو نظام المستبد العادل في إطار النظم القائمة، وإلـــى العدالة الاجتماعية في إطار توزيع الدخل القائم على أساس أخلاقـــي ديني. كما سادته بعض الجوانب التقليدية المحافظة في العقائد مثـــل الهجوم على النزعة المادية في "الرد على الدهريين" فـــي حيـــن أن المنطق الإسلامي كما بدا في علم أصول الفقه منطق مادي يبحث عن العلل المادية الفاعلة والمؤثرة في السلوك الفردي والاجتماعي ويقـــوم على الدفاع عن مصالح الأمة.

لم يحدث تفسير ثوري للعقائد يتفق مع متطلبات العصـــر ممـــا جعل المصلحين يبدأون ثواراً وينتهون مرتدين كما هو الحـــال مـــع "محمد عبده" و"الثورة العرابية" لم تتحول الشريعة إلـــى إيديولوجيـــة سياسية شاملة، وغلبت العبادات على المعاملات والواجبـــات علـــى الحقوق .

-ب-

لم يستقل العقل كلية بل كان عمله محدوداً في نطاق العقليات، ولكنـــه في الشرعيات ما زال في حاجة إلى وصيّ وهو النبي مما جعلنا مـــا زلنا ندعو للعقلانية، واستقلال العقل .

ونظراً لحدود حركة الإصلاح، وتجاوز واقعنا لها، فإن مكتسبات الإصلاح ذاتها التي بدت للجيل الماضي قد ضاعت في هذا الجيـــل، وتسربت منجزاته من بين أيدينا، وإنهارت تحت أقدامنـــا، واختفـــت نداءاته من وعينا فعدنا إلى مرحلة ما قبل الإصلاح وعياً وواقعاً.

انتهت العقلانية المحدودة التي كانت في العـــدل دون التوحيـــد، وتحولت إلى صوفية إلهامية، وساد التصوف على الأشعرية بعـــد أن ازدوجا في وعينا القومي منذ ألف عام منذ هجوم "الغزالـــي" علـــى العلوم العقلية في القرن الخامس الهجري، وانتهى التجديد النسبي إلـــى محافظة وتقليدية، وسادت روح المحافظة كتيار أساسي وجذري فـــي التاريخ على روح المعاصرة التي تعبّر عن متطلبات جيـــل واحـــد، وخمدت الروح الثورية لمناهضة الاستعمار والتسلط، وتحولت إلـــى نقيضها عن موالاة للاستعمار وقبول لمظاهر الطغيان..

فنحن إذن جيل الإصلاح الذي لم يتم، نشاهد نهاية الإصـــلاح، وانقلابه إلى الضد مما يجعلنا في حاجة إلى إصلاح أكـــثر جذريـــة وشمولاً وعمقاً وتأثيراً يبقى ويدوم ويتأصل في نفـــوس الجمـــاهير،

وتحميه بسواعدها- يُرضي جماهير المثقفين ويشبع فيهم الطموح النظري، ويكون قادراً على تحدّي الإيديولوجيات المعاصرة بإحكامه النظري وتأصيله التاريخي وقدرته على تلبية مطالب العصر والاستجابة إلى حاجة والتأثير في الناس وتجنيدهم له- لقد تجاوزنا جيل الإصلاح قبل أن ينتهي."

[د. حسن حنفي- المصدر السابق ص ٢٨٨ - ٢٩٠].

هل نحن جيل النهضة، نعيش عصر النهضة، ونقوم بدور النهضة؟

لقد ظهر هذا المفهوم في حياتنا منذ "رفاعة الطهطاوي" وتأسيسه لحركة النهضة الحديثة، وبناء الدولة العصرية كما وضح ذلك في "مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية" وقد استطاعت النهضة ولا شك إرساء قواعد الإصلاح الشامل في السياسة والاقتصاد والاجتماع والقانون، كما استطاعت أن تبني الدولة الحديثة صناعة وزراعة وتجارة..

ومع ذلك ظلت هذه الحركة نسبية في حياتنا دون أن تحدث أثراً فعالاً مستمراً ظلت في نطاق المثقفين، ولم تتحول إلى حركة جماهيرية عامة، وظلت قاصرة على إيديولوجية الصفوة، ظلت في إطار الدولة القائمة التي استفادت منها، ولكنها سرعان ما انقلبت عليها دفاعاً عن الحاكم الذي استبد، ظلت أشعرية في تصورها للعالم، ولم تستطع تأصيل نهضتها من خلال التنوير القديم الذي مثّله (الاعتزال) وكانت في كثير من الأحياء وعلى ما يبدو أثراً من آثار الغرب بوجه عام والثورة الفرنسية بوجه خاص لذلك سرعان ما انتهت من حياتنا، وخبت من وجداننا القومي، حتى أن إيجابياتها، ومكتسباتها وإنجازاتها قد تحولت إلى نقائضها.

وحدث انفصام بين التحديث والنهضة، وكلما زاد التحديث الخارجي قويت المحافظة الداخلية نظراً للجذور التقليدية التي تكمن وراء النهضة ..

د. حسن حنفي [المصدر السابق ص٢٩٠]

هل نحن جيل التنوير، نعيش عصر التنوير، ونقوم بدور التنوير؟

"التنوير هو العمل الشامل للعقل، امتداده في شتى نواحي الحياة، وأثر من آثار العقل، وأحد نتائجه، وتطبيق لمبادئه، وتوسيع لدائـــرة نشاطه، وتحقيق لمنجزاته، وقد كانت الدعوة إلـــى التنويـــر مواكبـــة للدعوة إلى العقل وأحد مظاهرها وقد اشتدت بعد الـــهزائم العربيـــة الأخيرة، وكثر الداعون لها، بل ونشأت حركة تنوير فعليه عامة تضم كافة الاتجاهات الفكرية والوطنية في تاريخنا الحديث، وبالرغم مـــن أهمية الدعوة وجدواها والخروج بالعقل من المنهجية العلميـــة إلـــى الحياة العامة إلا أنها محدودة الأثر، مغلقة الحدود تتمثلها مجموعة من الأفراد وليست تياراً حضارياً عاماً يعبر عن روح العصر أو حركـــة جماهيرية شعبية تحدد مسار التاريخ، هي ردة فعـــل علـــى هزائـــم العصر أكثر منها فعلاً إرادياً فردياً وجماعياً خاصـــة بعـــد هزيمـــة إيديولوجيات التقدم: الماركسية، والناصرية، والقومية التـــي ســـادت جيلنا وإحساسها بنقصها في عدم العقل، والحرية..

وقد تجاوز جيلنا التنوير كحركة ثقافية إلـــى التنويـــر كحركـــة اجتماعية نقدية تمهّد للثورة وترسي قواعدها، وتهيئ ظروفها، وتضع شروطها، فالتنوير في هذه الحالة يكـــون وعيـــاً اجتماعيـــاً لحركـــة التاريخ..

حسن حنفي [المصدر المذكور ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣].

هل نحن جيل العقلانية، نعيش عصر العقلانية، وتقوم بدور العقلانية؟

"تتمثل الدعوة العقلانية في كل التيارات الفكرية الحديثة في حياتنا المعاصرة، فهي القاسم المشترك بين الإصلاح الديني، والفكر العلماني، والتيار الليبرالي أحياناً يكون العقل مرتبطاً بالدين، وتكون العقلانية فهماً مستنيراً للدين وتكون فيه الأولوية للعقل إلى النقل، وقد يُضم العقل إلى الوجدان فيكون مثالية وجدانية مثل "الجوانية" تطويعاً للإيمان الديني، وقد يرتبط العقل بالحس، والمشاهدة والاستدلال، والاستنباط والاستقراء والبحث عن العلل فهو أساس التفكير العلمي، وقد يتوجه نحو التجربة الإنسانية فيكون دعوة إلى التأمل، والتفكير، وتحليل التجارب البشرية لعرفة ما هياتها والواقع من خلالها.

ما زالت الدعوة قائمة فينا حتى اليوم لإقامة مجتمع عقلاني، وتأسس حياتنا العامة على العقلانية، وبالرغم من صحة الدعوة، وصدقها على مستوى النظر إلا أنها أصبحت شماعة سهلة لتعليق كل أخطاء العصر على غيابها، ومفتاحاً سحرياً يحل كل أزمات العصر حتى تحولت إلى مجرد كلمة تتناقلها الألسن، وتتراشق بها الأضواء، وخلت في أجهزة الإعلام، وتحولت إلى شعارات فلسفية واجتماعية ومقالات صحفية حتى فقدت أي أثر لها، وتحولت إلى تجارة ودعاية مثل كل الدعوات الحديثة، كما أنها اقتصرت على التوجيه العلم دون أن تتحول إلى برامج تفصيلية، وتخطيط لمظاهر الحياة العامة على أساس عقلاني.

فماذا يعني الاقتصاد العقلاني؟ والسياسة العقلانية؟ والاجتماع العقلاني ؟ والقانون العقلاني؟ والفن العقلاني؟ ولم تخل الدعوة من بعض تقليد للغرب دون أن تكون تأصيلاً لعقلانية التراث، وتطويراً لها ..

الدكتور حسن حنفي [المصدر المذكور سابقاً ص٢٩١]

الحداثة المادية أو البنية التحتية والتغير الاجتماعي

"إن نَقل ، أو استنساخ نسق معين من الإنتاج في مجتمع معين، وتطبيقه في مجتمع آخر لا ينشأ عنه" تغيير سريع في التكوين الاجتماعي والثقافي للمجتمع الآخر، وهذا هو السبب في أن البنية الفوقية في المجتمع العربي بما فيه الثقافة العامة. والقيم وأنماط السلوك لا زالت متأثرة بأنماط، وعلاقات الإنتاج التي كانت سائدة في عصور غابرة.

[عن / د محمد جابر الأنصاري (العرب والسياسة، أين الخلل دار الساقي- لندن ١٩٩٨ ، وعن تقرير الأمم المتحدة للتنمية الإنسانية ٢٠٠٣ ، ص١٣٢].

الحداثة المادية، والمجتمع الأبوي

"إن المجتمع العربي اليوم حتى لو بدا حديثاً في مظاهره المادية ليس مجتمعاً حديثاً بالفعل، إنه مجتمع أبوي تقليدي تحكمه علاقات ما قبل الحداثة، وعلى رأسها علاقات الهيمنة الأبوية، والعلاقات المنبثقة عنها، العصبية العشائرية والولاء الطائفي، والعائلي، وقمع الفرد، وتحقير المرأة.

لا يمكن لهذا المجتمع أن يدوم وأن يبقى على حالة، وإن لم يحقق في المرحلة المقبلة التغيير الاجتماعي الذي تتطلبه منه القومي، وبقاؤه الاجتماعي، هذا التغيير لمن يأتي من خارجه والحداثة الحقيقية لا يمكن تحقيقها إلا ذاتياً .."

عن محاضرة في صيدا، للدكتور هشام شرابي
تغطية صحيفة الخليج ٢٠/١٠/ ١٩٩٩

الهوامش

أ – (متن الكتاب)

مجلة الوحدة – المغرب العربي – العدد ٨١ *٢٩٩١
د. مراد وهبة (مدخل إلى التنوير) منشــورات دار العــالم الثــالث– والمنهج الجديد– مصر الكويت/ ١٩٩٤.
د. محمد حمدي زمزوق (التنوير بين الدين والفلسفة والأدب) سلســلة اقرأ– دار المعارف– مصر– رقم ٦١٠.
د. منى أبو سنه (التنوير في الأدب) منشورات دار العــالم الثــالث– النهج الجديد– مصر– الكويت، ١٩٩٥
الإسلام والحداثة (ندوة) ط. دار الساقي– لندن – ١٩٩٠ .

- Paul Faur , La Renaissance , call – que , sais , je No. 354. 1949
- Yvon Belaval , le Siecle des lumieres in Histoire de la philosaphie, II . Coll . Pleiade.

- برترااندراسل (حكمة الغرب) ترجمة د. فؤاد زكريا سلسلة عــالم المعرفة رقم ٧٢ – الكويت ١٩٨٣ – الجزء الثاني .
- محمد أركون (الفكر العربي، laPensee Arabe ترجمة الدكتــور عادل العوا، سلسلة زدني علماً، منشورات – عويدات– بــيروت ١٩٨٢ .

- J. Burlot , la civilisation islamique, Hachette- Paris 1982 .
- Alair Touraine , Critique de la Modernite Coll. Livre de Poche – Fayard – Paris – 1992 .

جاك غودي– الرأســمالية والحداثــة Capitalism and Modernity عرض وتقديم صحيفة البيان (دبي) ٢٠٠٤/٥/٣١.

الدكتور محمود السمرة (غربيون في بلادنـــا) منشـــورات المكتـــب التجاري للطباعة والنشر- بيروت- ١٩٦٩ .
داريوش شاغان (النفس المبتورة) دار الساقي- لندن ١٩٩١ .
Arwar Abdel – Malek , Anthologie de la litterature arabe contem Poraine (les Essais) ed. Seul Paris- 1965 .
تقرير التنمية الإنسانية العربية العام ٢٠٠٣ الصــــادر عـــن الأمـــم المتحدة.(النص العربي).
محمد المبارك (الأمة العربية في معركة تحقيـــق الـــذات) مؤسســـة المطبوعات العربية – دمشق /١٩٥٩ .
د. سعيد إسماعيل (فلسفات تربوية معاصرة) سلسلة عالم المعرفـــة- الكويت رقم ١٩٨ / ١٩٩٥ .
صحيفة الخليج (الإمارات العربية المتحدة) ١٢/١٧ ٢٠٠١/١٢/٢١ خيري منصور .

ب- مراجع الملاحق :

د. حليم بركات (إشكالية علاقة العرب بالحداثة، اهتزاز في الرؤية) مجلة (الوحدة) العدد ١٠١ -١٠٢

محمد سعيد طالب (الحداثة العربية – مواقف وأفكار) دار الأهالي – سورية – دمشق ٢٠٠٣ .

leonar Bendar
Islamic liberalism uni of chicago V.S.A 1988

Dominique Orvoye , les Penseurs libres dans islam Classique 1996 Paris

Jean Lacouture l` Express
Les Arabes Un Siecle Pour rien (2002)

- د. يحيى هاشم فرغل (صحيفة الخليج).
- فهمي هويدي (صحيفة الخليج).
- د.حسن حنفي (دراسات في الفلسفة الغربية دارالتنوير /١٩٩٥).
- د. محمد جابر الأنصاري (عن التقرير السنوي للتنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٣ ، وكتاب (العرب والسياسة – أين الخلل).
- د. هشام شرابي محاضرة، تغطية صحيفة الخليج.

القسم الثالث

مجتمع الإمارات في مواجهة حداثة العقل الاجتماعي

دراســــــة تــأمـلــيـــــــة

تقديـــــــم عـــــــــام

المدخل وقصة المكان :

يتحدث الأكاديميون الجغرافيون عن أهمية الموقـــع مـــن النـــاحيتين الاستراتيجية، والبشرية، ويقول هؤلاء أن مفهوم الموقع يرتبط بتعين مكان ما بالنسبة للظاهرة الإنسانية، والاجتماعية، حيث يعد الموقع من أكثر العناصر تأثيراً في شخصية المجتمع، وما يترتب عن ذلك مـــن مظاهر سلوكية، وأنماط تفكير، وتأتي التأثيرات الخارجية المحيطـــة بهذا الموقع لتدلي دلوها في التأثير في سلوك الناس، وحياتهم اليومية، وطرائق تفكيرهم إلخ .....

يقول الباحثون في شؤون الموقع والمكان أن الموقع هذا يمكن أن ينظر إليه من خلال أبعاد ثلاثة :

١-الموقع الفلكي ٢- الموقع الطبيعي ٣ - الموقع الاستراتيجي

ويتلخص القول في هذه المواقع في أن :

١- **الموقع الفلكي** (المكاني البحت) ما يحدّه من خطـــوط الطـــول، ودوائر العرض، وتتمثل أهميته في تأثير في الأوضاع المناخية، فمجتمع الإمارات يعيش في مساحة تقع على الجانب الغربي مـن قارة آسيا، وتمتد بين دائرتي عرض ٢٢ ، ٢٦ شمالاً.

ويخترقها مدار السرطان إلى الجنوب من مدينة (العيـــن) بنحـــو ٨٠ كيلوا متر، كما أن دور مدار السرطان النصف الجنوبي من البـــــلاد

يعني أن الشمس تتعامد على جزء كبير من البلاد حيث تظل الحرارة مرتفعة فترة طويلة من السنة وينتج عن ذلك:

١- نقص موارد المياه ٢- جفاف التربة Arid Soil
وكذلك بعض الآثار السلبية الأخرى: نقص الأراضي الزراعية، قلة السكان...(٢)

٢- **أما الموقع الطبيعي**، فهو الموقع بالنسبة لليابسة، والماء.والهدف من الحديث عن هذا الموقع، هو علاقة الناس بالمسطحات البحرية المحيطة بأرضهم. وتحتل الدولة الركن الشرقي والجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية، وتنحصر بين بحرين يطوقانها من جميع الجهات. ويتحدث المتخصصون الجغرافيون بالتفصيل عن الموقع وتوجهه البحري ونسبة الحدود ونوعية السواحل، وطبيعة البحار والأنهار.. إلخ، وينتقل هؤلاء أيضاً إلى الحديث عن الموقع والمساحات البرية، ويخلص هؤلاء الدارسون لبيئة الإمارات الطبيعية إلى نقطتين مهمتين:

- ضعف البيئة الاقتصادية، والاجتماعية في هذه المنطقة.
- أثر البحر والحياة البحرية في سكان الإمارات. وارتباط النشاط الاقتصادي خاصة بالحياة المائية (البحر والخليج).

٣ - **وأما الموقع الإستراتيجي**، فقد أكد الباحثون في إستراتيجيات المواقع أن "الحرب الإيرانية العراقية، وحرب الخليج الثانية فيما بعد ١٩٨٠ - ١٩٩١ ، أظهرتا أهمية موقع الإمارات عموماً، وجهتها الشرقية خصوصاً.(٣)

توصل الاستراتيجيون في رؤيتهم إلى "الموقع الجغرافي" أن دولة الإمارات من الدول التي تطل على البحار بجهتين، إحداهما شـــرقية، والأخرى شمالية، ولما كان المضيق الذي يصل بين هاتين الجـــهتين واقعاً تحت سيطرة دولتين مجاورتين هما إيران، وسلطنة عُمان فإنــه لا بد من التمييز بينهما بالدراسة من الناحيـــة الجيوبوليتيكيـــة، هــذا بالإضافة إلى أهمية الجبهة الشرقية الساحلية كما ذكرنا (٤).

لقد نتج عن الموقع البري، وجود نظام اجتماعي قبلي، حيث أن موقع هذه المنطقة على الأطراف الشرقية للجزيرة العربية جعلها تدخل فـي نطاق امتداد الكيان القبلي السائد في مختلف أنحاء الظـــهير الـــبري، المتمثل في شبه الجزيرة العربية، حيث يشكل النظام القبلي جوهـــــر قوامها الاجتماعي والسياسي، وهذا ما سنفصله فيما بعد مــــن هــذه السطور.

اجتمعت مستوطنات بشرية على أرض هذه المنطقة منـــذ النصـــف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، وقد تم الكشف في الأثريات عـــن مواقع هذه المستوطنات في (المليحة، حفيت، الهيلي) وغيرها.

وقد تطورت معالم الحياة فـــي الفـــترة الهيلنســـتية، وحصلـــت تطورات على صعيد الحياة السياسية في المنطقة كلها، حســـب مـــا يروي المؤرخون (٦) ويـــرى البـــاحث، D.T.POTTS أن تاريخ المنطقة يعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، حيث تم العثـــور على معالم حياة بشرية وأدوات مستعملة من قبل السكان منـــذ ذلـــك التاريخ (٧). وقد انتهت هذه المرحلة في (٢٤٠ – ٦٣٥ AD).

لقد دخلت المنطقة مرحلة جديدة تمام الجدة في العصر الإسلامي ودخول أبناء المنطقة أو اعتناقـــهم الإســـلام، كمـــا يـــرى هـــؤلاء المؤرخون(٨).

لقد وردت أسماء مناطق الخليج عموماً والإمارات في المصـــادر الإسلامية الجغرافيةوالتاريخية، منذ بداية العصر الإسلامي، مـــروراً بالعصر العباسي وحتى تاريخ الدولة العثمانية والعصور الحديثة.

وقد ذكرت المناطق هذه في أعمال مثل (ابن خرداذبة، المقدس، أبو الفرج قدامة، الأدريس، ياقوت) ألخ.

وجدير بالذكر أن الاهتمام بأثريات العصر الإسلامي، والبحـــوث التنقيبية المتعلقة، والمعلومات التاريخية حديثة العهد في الكشف عنـــها

رغم أنها غنية وثرية ومهمة، وقد دلت هذه الكشوف على تبني أهل منطقة الخليج عموماً، والإمارات خصوصاً الإسلام ديناً وشريعة، فكراً وسلوكاً، وثقافة واستمر التأثير العميق للإسلام في المنطقة إلى يومنا هذا.

والخلاصة إن تاريخ الإمارات جزء لا يتجزأ من تاريخ العرب الإسلامي، والترابط والتواصل بين عرب الخليج والشعوب العربية والإسلامية القريبة والبعيدة لم ينقطع، وكان هذا التواصل هو السمة الغالبة على العلاقات بين أبناء الجزيرة العربية، والتي تعتبر منطقة الخليج جزءاً منها، والعالم الخارجي.

فالقبائل العربية التي استوطنت الخليج منذ القديم، والخارجة من مواقع مختلفة والمهاجرة من جزيرة العرب، وجنوبها خاصة استوطنت قبيل انتشار الإسلام في الخليج، ثم اعتنقت الإسلام بعد الفتوح(٩).

سنناقش هذه الفكرة حيث أن العقيدة الإسلامية تشكل العنصر الأول والحاسم في تكوين العقل الاجتماعي.

ويمكننا أن نقفز زمنياً، في تاريخ الإمارات وقصة الزمان إلى عصر التنافس الأوربي في المنطقة منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، البرتغالي، والبريطاني خاصة، ولعل الأخير أي النفوذ البريطاني، استمر في تنامي سيطرته حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، ثم انتهى بخروج بريطانيا من المنطقة وحصول الإمارات على الاستقلال والسيادة، وقيام الدولة الاتحادية في ديسمبر(١٩٧١).

الفصل الأول

تكوّن المجتمع الإماراتي "التجمّع القبلي والعائلي"

إن الأصول الاجتماعية للسكان في الإمارات مستمدة من الحيـــاة القبلية التي بدورها انحدرت كما قلنا سابقاً من القبائل المهاجرة مـــن مختلف مناطق الجزيرة العربية، ولا يعني ذلك أن القبائل هذه عاشت منعزلة عن بعضها بعضاً، بل لقد تجاوزت العزلة والانفراد لتؤلـــف تحالفات كبيرة، سياسية واقتصادية واجتماعية فيما بينها.

لاشك أن القبيلة تشكل اللبنة الأساسية التي يبنى عليها المجتمع في الجزيرة العربية عموماً والخليج خاصة، وكذلك تعتبر القبيلة منطلـق التلاحم السياسي، للحفاظ على كيانـــها والحفـــاظ علـــى وجودهـــا، واستمرارية حياتها وعيشها، وكذلك تعاونها فيما بينها على تحصيـــل وسائل العيش، أو بعبارة أخرى، التعاون الاقتصادي بلغة العصـــــر، خاصة أن موارد العيش في المنطقة كانت في ذلك الزمن محـــدودة، وتتطلب الجهود الجماعية لتأمينها، وسط البيئة الرملية الصحراويـــة الجافة وحياة الكثبان، والكبار، وشظف العيش HARD- TIME.

والخلاصة إن مجتمع الإمارات يعني: مجموع الســكان الذيـــن يعيشون على أرض الإمارات بحدودها الإقليمية المعترف بها، يعيش في إطار مجموعة من النظـــم والقيـــم والعـــادات والإرث الثقـــافي والاجتماعي القبلي المشترك، والتأثير الحاسم للعقيدة الإسلامية فـــي العقل الاجتماعي بالإضافة إلى العلاقات (القبلية-الأسرية) التقليديـــة

التي تربط بين الأفراد، وكذلك ظهور بعض مؤسسات المجتمع المدني في الإمارات، وهو ما سنناقشه فيما بعد.

من مجتمع القبيلة إلى الدولة

تكونّت الدولة الاتحادية في ديسمبر ١٩٧١ ، بعد مضي ما يقارب من خمس وثلاثين سنة، استطاعت الدولة أن تغير من البنية القبلية، والتناثر الاجتماعي والتفرد الأسري، والعشائري، والقبلي إلى (مجتمع- دولة) حيث، انتقل التجّمع القبلي (من القبيلة إلى الدولة) حسب ما يرى مؤلف حديث العهد بدور حول هذا المحور، وقيام العلاقة بين الأفراد كمواطنين القبيلة وجعلهم مواطنين في دولة بدل الروابط القبيلة، كذلك ربطهم بالقانون بدلاً من ربطهم بالعرف والتقاليد، إن مقومات المجتمع كما يذكر علماء الاجتماع، عادة هي : المقومات الجغرافية والاقتصادية، والتاريخية، والاجتماعية – الإنسانية والحضارية كوحدة اللغة والدين والأصول القبلية وما ذكرناه في الصفحات السابقة، ويهمنا هنا الوقوف عند المقومات الاجتماعية أو ما يشكل بنية هذه المقومات أو نمط التفكير الاجتماعي المشترك.

تطور هائل في البنى التحتية
INFRASTRUCTURE

المرحلة الأولى: منذ بداية السبعينيات وحتى التسعينيات من القرن الماضي.

المجتمع الإنساني : مجموعة، أو مجموعات من الناس هنا وهناك في مختلف أرجاء المعمورة، تعيش كل مجموعة، صغيرة كانت أم كبيرة، تجمعها بعض المقومات الأساسية الصالحة لبقاء وجودها، واستمرار حياتها، وهذه المقومات هي المادية، والبشرية، الاجتماعية، والثقافية والتاريخية، وهي مكونات أساسية لأي مجتمع يريد أن يتعايش أبناؤه ويعيشون جنباً إلى جنب، ولقد توفرت هذه المقومات لمجتمع الإمارات إضافة إلى كل ذلك وجود التجانس السياسي، حيث يكون مجتمع الإمارات من إمارات سبع متجاورة مكانياً، كانت في سابق عهدها تشكل كل واحدة منها كياناً سياسياً مستقلاً، وبعد أن وجدت هذه الإمارات أن سبل تعايشها، ووجوها وإرادة بقائها، ونظرتها إلى المستقبل مرتبطة بوجود كيان مشترك واحد ووجدت هذه الإمارات أن توحدها، وترابطها ضمن اتحاد واحد يجمعها، هو أفضل سبيل لوجودها الحاضر والمستقبل. فكان ذلك.

ولقد تكونت المؤسسات الدستورية، من مجلس أعلى للاتحاد، ومجلس الوزراء، والمجلس الوطني والسلطات القضائية، والتنفيذية، وتكونت سياسة داخلية، وخارجية(١٠) ما يسمى بمؤسسات المجتمع المدني كالاتحادات والجمعيات، والمنتديات والدوائر، والأقسام...إلخ.

في الطريق نحو التنمية الاقتصادية

تميز النشاط الاقتصادي التقليدي في الإمارات قبل تكوين الاتحاد بمظهرين أساسيين : الزراعة والرعي وتجارة التمور واستخراج اللؤلؤ وتجارته، ولكن انهارت صناعة اللؤلؤ ولم تعد تجارة التمور، والزراعة في محيط من الجفاف والقحط تلبي الحاجات اليومية لسكان الإمارات، وحيث برزت صناعة اللؤلؤ الجديدة آنذاك.

وقد برزت عوامل أخرى ساعدت على النمو، والحركة الاقتصادية وهي:

١. **اكتشاف النفط** ، وبداية تصديره ، وارتفاع أسعاره في الأعوام ١٩٧٣ – ١٩٧٤ – ١٩٧٩ – ١٩٨٠ ..
٢. ارتفاع الناتج المحلي للنفط الذي كان قبل قيام الدولة عام(١٩٧٠) قرابة ٤٤٨٩ مليون درهم (١٠٩٨٣٣) مليون درهم (١٩٨٠) أي قرابة خمس وعشرين مرة خلال عشر سنوات (١١).

وقد بدأت أسعار النفط تتأرجح بين الارتفاع والانخفاض، وأدرك المسؤولون في الاتحاد أنه من أجل التنمية الاقتصادية وبناء الدولة من الناحية الاقتصادية لا يكفي الاعتماد على مصدر واحد، وهو النفط، وخاصة أن هذه المادة قابلة للنضوب؛ لذلك لجأت الدولة إلى ما يسمى : **تنوع مصادر الدخل (دخل الدولة).**

فاتجهت إلى القطاعات الأخرى كالصناعة والتجارة، وغيرها من مجالات الاستثمار، واستمرت مسيرة التنمية الاقتصادية، وبناء الدولة الحديثة، بكل مرافقها الحيوية.

فلقد نشطت البلديات، ومشاريع تخطيط المدن من تشييد وبنـــاء، تميز هذا القطاع بالحركة العالية والسريعة في مجال تحقيق المشاريع البنائية وبالتالي الاستثمار فيها، وما ارتبط بهذا القطاع من الأنشـطة الإنتاجية الأخرى: كـــالنقل والمواصـــلات وصناعـــات الأســـمنت والطابوق، والبلاط، والزجاج والخشب، وبعض الأنشـــطة الخدميـــة التابعة(١٢)، وكذلك نشوء قوى عاملة أجنبية للعمل في هذا القطاع.

كذلك لحق بهذا المجال التشييدي بالدولة التوسع الكبير في إنشـــاء الطرق والجسور والمطارات،و المعابر ومن ثـــم صناعـــة الســـفن، والحاويات لتسهيل الحركة التجارية من وإلى الدولة.

الحراك الاجتماعي والسكاني وظاهرة التحضر:

المرحلة الأولى: ما بين (١٩٠٤ – ١٩٦٥)

تميزت هذه المرحلة بالنمو البطيء؛ إذ كان مجتمـــع الإمـــارات يعاني من التخلف الاقتصادي، والاجتماعي، وكثرة الوفيـــات وقلـــة الولادات، وما نتج من كوارث طبيعية، من مواسم الجفاف والقحـــط، ومن ثم ما تأثر به سكان الإمارات من مضاعفات الحربين العالميتين (١٩٤١ –١٩١٨)، (١٩٣٩ –١٩٤٥). هذا بالإضافـــة لانتشـــار الأوبئة، والأمراض ..إلخ.

وبالتالي اعتماد المجتمع على اقتصاد تقليدي Traditional ؛وكل ذلك أدى إلى تقلص عدد السكان لا زيادته.

المرحلة الثانية: بداية السبعينيات وما بعدها:

تميزت هذه المرحلة بالتزايد السكاني الشديد حيث ارتفـــع معـــها معدل الولادات، ولكن ظـــهرت بعــض الســلبيات لــهذا الحـــراك الاجتماعي، مثل وجود عامل الهجرة الخارجية من وإلى الإمـــارات مما أظهر:

- خللاً في التركيبة السكانية.
- ارتفاعاً في عدد الذكور.
- الضغط المتزايد للوافدين.
- تخصيص الدولة نسبة كبـــيرة مـــن دخلـــها لقطاعـــات الخدمات(١٣).

أما ظاهرة التحضّر أو الانتقال إلى الحياة الحضرية فهي إحـــدى الظواهر الديمقراطية والاجتماعية، وقد شاعت هـــذه الظـــاهرة فـــي مجتمع الإمارات حيث جرى توطين سكان الصحراء في المدن، ممـــا ساعد على ازدهار اقتصاد النفط أولاً، ثم التجارة والصناعة والتوســع فيها في السبعينيات من القرن الماضي، وكذلك توفر فرص التوظيـف والعمل في أجهزة الدولة المختلفة، وتنشيط قطاع التعليم.

التنميـــــــــــة الاجتماعيـــــــــــة:

إن مفهوم النظم الاجتماعية يقوم علـــى التنميـــة فـــي مجـــالات الأجهزة، والوسائل الرئيسية، ومهارات التواصل الاجتماعي، وطبيعة العلاقات بين أفراد المجتمع، وجماعاته، ومن أهم مظـــاهر الحيـــاة الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الاتحاد والتي لم تتطـــور تطـــوراً يواكب مظاهر التنمية الأخرى هي:

١. النظام الأسري، والقبلي، ونظم العلاقات الأســرية،والقرابـــة والسلطة الأسرية، ونظم الزواج.
٢. حياة المجالس.
٣. الحياة الدينية.
٤. التقاليد والقيم الاجتماعية.

إن مسيرة التنمية الاجتماعية حصلــت فيـــها بعـــض التغــيرات الإيجابية، ولكن نتج عنها تغيرات سلبية يقول أصحاب مؤلف "مجتمع الإمارات": ((لقد مرّ مجتمع الإمارات بتغيرات اجتماعيـــة واضحـــة المعالم، ومن العوامل التي أسهمت في إحداث هذه التغيرات، تســخير عائدات النفط المالية لمشروعات التنمية والعمل على تحويل المجتمـع نحو الرفاهية من خلال تقديم خدمات متعددة فـــي مجـــال التعليـــم، والصحة، والمواصلات، والكهرباء، والماء،والطرق ... وغيرها، مع توفر فرص عمل للمواطنين، وتـــأكيد رعايـــة الأســـرة، والطفولـــة والشيخوخة. إنها باختصار التنمية الشاملة التي تبنتها الدولة الاتحادية منذ قيامها)) –سنناقش هذه النقطة فيما بعد في هذه الدراسة–فربطـت مفهوم التنمية الاجتماعية بمصطلح الرعاية الاجتماعية الهادفة...

وهناك العديد من المؤشرات الإيجابية لمظاهر التغير الاجتماعي، والاقتصادي في مجتمع الإمارات تؤكد حصول نقلة نوعية في حياة الأفراد، فمتوسط دخل الفرد على سبيل المثال (١٧٠٠٠) سبعة عشر ألف دولار في السنة، وهو دخل كبير جداً يقارن بدخل الدول المتقدمة(١٤).

"أما الجوانب السلبية فيشار إليها بالمشكلات الاجتماعية، كالمشكلات الأسرية، والتنشئة الاجتماعية، والطلاق، والمربيات الأجنبيات والمخدرات والانحراف، والجريمة"(١٥).

"لقد شكل التحول الاقتصادي والسياسي، تحدياً للقيم التقليدية ومن جراء الاحتكاك بالعالم الخارجي، والتواصل مع الأخر وانتشار التعليم وتطوره الكمي، وما حدث من تطور الوعي، وما سيراه المجتمع، وما سيعيشه من ثورات متعاقبة في التكنولوجيا والاتصالات وظهور ظاهرة : المجتمع المعلوماتي، مما سنتحدث عنه بعد قليل، وكل ذلك وضع المجتمع أمام ثنائية حتى يومنا هذا، وما فيها من تناقض حاد.

البُنى التحتية الثقافية:Cultural infrastructure

شملت البنى التحتية الثقافية مراكز الحياة الثقافية المختلفة، حيث عملت الدولة على تشيد هذه المراكز،وغيرها من دور التثقيف والمنتديات، وشجعت كافة الندوات والمؤتمرات الثقافية ورعتها وساهمت في منح مختلف أنواع الجوائز العلمية والثقافية المحلية والعربية. بالإضافة إلى الورش الثقافية في الأدب ونقده خاصة.

من مظاهر الحياة الثقافية والتنمية الثقافية التي عملـــت أجـــهزة الدولة على تطويرها :

١. المؤسسات الثقافية الإسلامية والتوعية والتثقيف الإسلامي .
٢. بناء المساجد.
٣. مشروع الشيخ زايد لتحفيظ القرآن، وجائزة دبـــي لتحفيــظ القرآن.
٤. الصحافة وما كرسته من صفحات للشأن الثقافي.
٥. وسائل الأعلام المسموعة والمرئية.
٦. مختلف الأنشطة الثقافية الحكومية والأهلية.
٧. الجوائز التشجيعية.
٨. المسارح.
٩. المراكز الثقافية(١٧).

هذه المؤشرات العامة للتنمية الثقافية خلقت الأرضية الثقافية الصالحة للمساهمة الفعالة في نشر الوعي وتنمية الفكر لدى النخب،ولدى الناس عموماً، أو بعبارة ثانية المساهمة التي كانت الدولة لا تزال ترجوهـــا هي: تنمية "العقل الاجتماعي" لجعله يواكب نمط التفكير والســـلوك، مجرى الحياة الحديثة، والسؤال الذي ستجيب عنه الدراسة هو: هـــل نما هذا العقل الاجتماعي كما يجب له أن ينمو في هـــذه الأرضيـــة الثقافية ؟

قسم أصحاب مؤلف "مجتمع الإمارات" المؤسسات التـــي تخـــدم الحياة الثقافية أو التي تعمل على تنميتها –إن صح التعبـــير– إلـــى قسمين:

١-**المؤسسات الحكومية**: وزارة الأعلام والثقافة، وزارة التربية والتعليم والشباب، وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، المجمع الثقافي، دوائر الإعلام في الإمارات، جامعة الإمارات وجامعة زايد والمراكز الثقافية.

٢-**المؤسسات الأهلية.**

الفصل الثاني

المرحلة الثانيــــة

أولاً : المتغيرات العالميـــة وأثرهـــا علـــى مجتمـــع الإمارات منذ تسعينيات القرن الماضي

المقدمة :

مناخ العصر – العولمة : Globalization والثورة المعلوماتية والإعلامية في منتصف سبعينيات القرن الماضي شـــرعت إحـــدى الصحف الرسمية الواسعة الانتشار في باريس في الحديث عن نظـــام عالمي جديد وفي بداية التسعينيات تحديداً، انطلق الحديث ثانية عـــن بناء نظام عالمي جديد، في خطاب للرئيس الأمريكي السابق "جـــورج بوش" ومنذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا ما انفكت الآلة الإعلامية بكل أجهزتها وتقنياتها التقليدية، والحديثة، في الحديث عن مصطلح بـــات على ألسنة الغالبية المطلقة من النـــاس اليـــوم، أعنـــي العولمـــة، أو الكوكبة، وهو مصطلح يختلف عن:العالمية، ولا مجال للدخول فـــي تفصيل هذه التفرقة بين المصطلحين.

١. لقد أصبح مصطلح العولمة شيئاً فشيئاً بما يتضمنه من خلفيـــة: اقتصادية وسياسية، واجتماعية وثقافية، لغة اليوم، أو لغة العصر، أو بعبارة أشمل، مناخ العصر، ومن العسير حصر الأدبيات التي تحدثت، ولا تزال في لغتنا العربية، وغيرهـــا حـــول العولمـــة،

مؤيدوها، ومعارضوها، المتحمسون لها والناقدون، الرافضـــون لها، والمصفقون، والمتحفظون إزاءها غير المكترثين.

ومهما يكن من أمر، فلا بد من إعطاء جولة تعريفات إن صـــح التعبير لظاهرة العولمة وخاصة لدى المفكريـــن العـــرب، وبالتـــالي الانتقال إلى التأثير المباشر، والغير مباشـــر لـــهذه الظـــاهرة علـــى مجتمعتنا العربية عموماً، وعلـــى المجتمعـــات العربيـــة الخليجيـــة والإماراتية خصوصاً: وما ظـــهر منـــها، ومـــا بطـــن مـــن آثـــار سلبية،ومشكلات دخلت بيوتنا وتغلغلت في زوايا ديارنـــــا، وتركـــت بصماتها على بنيات أسرنا، وأولادنا.

وطرق عيشنا، وعلاقتنا الاجتماعية، ومن حيث أنها بدأت تجردنا من نمط تفكيرنا المعهود والتقليدي، لنعيش حالة فكرية State of mind جديدة ؟

ما مضمون أو ماهية العولمة بالنسبة للمفكرين العرب؟

لا يوجد مضمون أو ماهية واحدة للعولمة، بل يمكن الحديث عـــن عدة مضامين، أو ماهيـــات للعولمـــة تختلـــف بـــاختلاف الدوافـــع الإيديولوجية، والمشارب الفكرية للكتاب العرب.

ولكن يمكن ملاحظة خاصية عامة تربط جميع مضامين العولمـــة في الفكر العربي المعاصر، هذه السمة هي وجود عنصـــر الهيمنـــة بشكل أو بآخر في كل تعريف لماهية العولمة، فإذا كانت"العالمية" هي نتيجة لهيمنة الغرب، فإن العولمة وصف لكيفية حدوث تلك الهيمنة.

وحين يحمل عنصر الهيمنة دلالة اقتصادية، فإنه ليس كذلك فقط، بل إنه يحمل آثاره: الاجتماعية والثقافية.

إن العولمة تعني في بعض وجوهها الإقتداء، أو الأخذ عن طريق مختلف الوسائل، بالنمط الغربي Way Of Life ، والحضارة الغربية، أو عولمة نمط معين من الحياة، وإن حضور عنصر الهيمنة الغربية في مفهوم المفكرين العرب للعولمة أيقظ كما هو متوقع مفهوماً قديماً في الخطاب العربي، هو مفهوم الاستعمار، فالعولمة أصبحت تعبر عن الصورة الجديدة للإخطبوط الاستعماري، و أنها في خاتمة المطاف "هيمنة الرأسمالية الجشعة".

جلي أن الرأسمالية احتلت المركز الرئيسي في بنية مفهوم المفكرين العرب لماهية ظاهرة العولمة، وطبيعتها. و إن محورية النظام الرأسمالي في مفهوم جوهر العولمة قد يعود إلى حقيقة مفادها أن مظاهر الرأسمالية أكثر ظهوراً وبروزاً من مظاهر العولمة الثقافية والسياسية.

والواقع إن العولمة لا يقتصر بروزها على مسرح الحياة الاقتصادية، بل إنها تنعكس وبنفس الدرجة والقوة في السياسة والثقافة والاجتماع، ولو أن الاقتصاد العولمي، وما حمله من مظاهر سلبية انعكست على مختلف مجتمعات العالم، هو المحرك الأساسي لها، إلا أن المؤثرات الأخرى لا تقل شأناً في تأثيرها على بنية مجتمعاتنا، وفي سياق الحديث عن جوهر العولمة أو ماهيتها، نجد أن الغالبية العظمى من مفكرينا و كتابنا، ومحللينا، وباحثينا العرب يعطون هذه الظاهرة بعداً ثقافياً، أو حضارياً.

وهكذا نلاحظ أن العولمة تأخذ شكلاً ثقافياً معيناً، يعبر عن تطلعات ونظرات الطرف الأقوى في معادلة العولمة، وهو: الغرب في هذه الحالة. وبهذا تصبح العولمة تعني صهر الثقافات المحلية في ثقافة العولمة، وربطها بثقافات الدول الغربية، وبذلك يتم تنميط البشر في جميع البلاد، وفقاً لمعايير الغرب، وتعني في بعض ثناياها: السيطرة على الرؤية، والإدراك وتسطيح الوعي، وتكريس نمط معين من الحياة الاستهلاكية، والمعرفية، والسلعية و البضائع، والمتع الترفيهية..الخ.

مضاعفات العولمة

المشكلات السياسية والاقتصادية: الغنى والفقر.

لقد رأى بعض المتفائلين بإيجابيات العولمة أن الأغنياء، والفقراء ازدادوا غنى، وطبقاً لأحد الآراء الشائعة إن الرفاهية شملت الأمم الغنية، وغالباً ما يكون ذلك على حساب الأمم الفقيرة وقد كتب "النقابي جاي مازور" أن العولمة قد زادت من التفاوت داخل الأمم، وفيما بينها، وبين بعضها، وهو ما يصدق عليه "لوري والاش" وهو معارض للعولمة ذائع الصيت، وقد كتبت "لورا داندريا تايسون" المستشارة الاقتصادية القومية السابقة للرئيس الأمريكي "بيل كلنتون" ((في الوقت الذي زادت فيه كثافة العولمة، ازدادت الهوة بين دخل الفرد في الدول الغنية، والفقيرة اتساعاً)).

ويقول الباحث المذكور إن هذه الملاحظات مضللة، وذلك أن الأمم الفقيرة على الإطلاق صارت أقل فقراً، وحتى إذا عانت بعضها من الركود المخيف، فإن المردود الاقتصادي للدولة الفقيرة المتوسط قد ازداد في العقود القليلة الماضية.. وصحيح أن الفجوة بين أغنى

الدول وأفقرها قد اتسعت، إلا أنه من الصعب القول أن العولمة هي المشكلة.. لأن الأمم النامية ذات الاقتصاد الأكثر انفتاحاً، وهي الأمم التي دخلت نظام الاقتصاد الكوني دخولاً تاماً، تنمو بأسرع مما يمكن، أما الأمم الفقيرة الأكثر عناداً فيبدو أن سبب ما هي عليه من فقر هو تخلفها عن العولمة.

وخلاصة القول أننا حين نضع التقدم في مقابل الفقر بطريقة أقل تجرداً إلى حد ما طبقاً لتقرير أصدره في شهر يونيو فريق من وكالات متعددة الأطراف، مثل الأمم المتحدة و البنك الدولي ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية وصندوق النقد الدولي نجد أن عدد من يعيشون على ما يقل عن دولار واحد في اليوم قد هبط بمقدار (١٠٠) مليون ما بين (١٩٩٠-١٩٩٨)، ويظل الرقم مرتفعاً بصورة تدعو للدهشة، وهو (٢٠و١) مليار، ولكن لنتذكر أن الانخفاض جاء نتيجة ازدياد عدد سكان الدول الفقيرة بمئات الملايين.

والسؤال المنهجي الذي وضعه الباحث المذكور، وهو عنوان لكتابه المهم، هل العولمة تصنع السعادة للناس ؟ أو بعبارة أخرى هل المردود الاقتصادي يطغى على المتغيرات الأخرى التي هي مصدر للسعادة أم لا ؟ هل العولمة حملت لنا مفاتيح السعادة ؟

استهلاك. استهلاك. استهلاك:

إن لعبة الاستهلاك قد أودت بالناس -الفقراء والأغنياء- إلى التفكير بالثروة، وعقد الصلة بينها وبين السعادة، أو راحة النفس والبال، و إيجاد الصلة المقدسة بين زيادة الدخل على حساب الجهد المبذول، لزيادة الاستهلاك والاقتناء، وتحصيل نشوة الرفاهية، وهذا الوضع من العناء والجهد ليس للإبداع والارتقاء الفكري والروحي،

بل لغاية تحصيل متع العيش الآني والرفاهية السطحية، وهو ما سيفرخ مشكلات على صعيد حياة الأفراد والجماعات، وسنرى بعد قليل أنماط من هذه المشكلات والأمراض الاجتماعية.

أما بالنسبة للمشكلات السياسية:

فقد شهد العالم أيضا بروز مجموعة من الاتجاهات السياسية التي تتركز حول المجال السياسي الجديد، الذي يتركز حول العالم السياسي المنفتح على بعضه بعضاً، وليس حول الدول المنغلقة على بعضها البعض، فالقرارات التي تتخذ في عاصمة من العواصم السياسية الكبرى سرعان ما ينتشر تأثيرها إلى كل العواصم، والتشريعات التي تخص دولة تستحوذ من اهتمام الدول الأخرى، وبعبارة أخرى أن عواصم القرارات السياسية الكبرى في الغرب تترك تأثيرها المباشر على بقية دول العالم، وتنعكس آثارها بمختلف الوسائل لتجعل قرارات الدول الأخرى النامية خاضعة بشكل أو بآخر إلى التطابق مع هذه القرارات.

فالوطن العربي -بأقاليمه المتعددة- والذي هو جزء مهم من العالم النامي، هو محط الأنظار القوية من قبل دوائر القرار الغربية صاحبة العولمة، فهو يتلقى القرارات والاستراتيجيات المختلفة لينفذها كراهية أو طواعية.

ظاهرة العولمة وأزمة هوية الشعوب

تتفق جميع التيارات الدينية المحافظة والمتشددة على اعتبار العولمة -كظاهرة غربية- مفروضة تعمل على "تدمير هوية

الشعوب" و تدعو هذه العولمة في نظرهم إلى القطيعة مع المـــوروث الديني والحضاري للشعوب.

الواقع أن دعوة العولمة إلى الانفتـــاح علـــى ثقافـــات الشـــعوب والتواصل معها، لا يعني تجريدنا من الروح، وإنما يعني التعايش مع الآخر، وقبول "اختلافه" ثقافياً وحضارياً، و عدم فرض أية مركزيـــة حضارية عليه أو علينا.

وفي مجال الثقافة والاجتماع يبدو أن الحديث عن آثار العولمـــة يأخذ لدى المفكرين العرب شكلاً أكثر درامية، بحيث أصبحت هـــذه العولمة جريمة أو مؤامرة تقضي علـــى الخصوصيـــة التـــي تمـــيز الشعوب، وهي إعدام لمعنى الانتماء للأمة والجماعة، وهـــــي بـــهذا تهدف إلى القضاء على الإسلام و طمس الهوية الإسلامية، والدعـــوة إلى الإباحية والانحلال، ما دامت ثقافة العولمة هي ثقافة الاســتهلاك، فإنها سوف تركز على أهمية الجسد وحاجاته، وما ســـيفيض عـــن حاجته من الإشباع، غير أنها ستقتل الـــروح، و تذهـــب بالمســـتوى الأخلاقي والإنساني لسلوك الناس... فالعولمة ستؤدي إلى افـــتراس هويات الدول النامية، والقضاء على الخصوصية والمنافسة والتنـــوع والاختلاف وتعميم البطالة والفقر، فالعولمة الكاملة في رأي هـــؤلاء تساوي الفساد الكامل.

الواقع إن أثر العولمة على مظاهر وجوهر الحياة فـــي العصـــر الجديد يجد طريقه من خلال إعادة هيكلة العملية الفكرية لدى شـــعوب الدول النامية خاصة، بحيث أننا نتحدث في حياتنا اليومية والإعـــلام عن الكوكلة (الكوكاكولة) والهلودة (هوليود) واللبرلـــة (الليبراليـــة) والرسملة (الرأسمالية) والأمركة... الخ. مـــن مصطلحـــات الحيـــاة الاستهلاكية اليومية التي تستحوذ على لساننا بالإضافة إلـــى بعـــض

الكلمات الإنجليزية على لسان من يتقن اللغة أو يجهلها، وكذلك إعادة ترتيب العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع الواحد، وبين فئات اجتماعية مختلفة في بلاد متباعدة ومتقاربة، وتطوير الأنماط الثقافية وما ينبثق عنها ويرتبط بها من نظم وقيم ومسلكيات ومواقف قيمة.

الثورة في وسائل الإعلام والاتصال، وأثرها في تشكيل القيم والمعايير الاجتماعية:

إلى ما يقارب من خمس وعشرين سنة خلت -على أكثر تقدير- كان جهاز مثل التلفاز يعد من السلع "النخبوية" في معظم أقطار العالم، أي من السلع التي لا يمكن لأي أحد أن يمتلكها، وفي ذات الوقت كانت البرامج التلفزيونية محدودة من حيث النوع والكم معاً.

أما اليوم فتشير الإحصائيات إلى أن في العالم ما لا يقل عن بليون ومائتي مليون جهاز تلفزيوني، و هي في تزايد مستمر، وأصبحت السماء تعج بالأقمار الصناعية التي تبث مباشرة إلى كل مكان في العالم. بحيث أصبح العالم منفتحاً على بعضه البعض من هذه الناحية، ولم تعد الحدود السياسية أو أساليب الحماية والرقابة قادرة على منع هذا الاختراق الإعلامي المباشر، ولمثل هذا التطور التقني في وسائل الإعلام أثره السياسي والثقافي والاجتماعي بطبيعة الحال يضاف إلى كل هذه الثورة في التقنيات الالكترونية..

مثل هذه التطورات الإعلامية التقنية أدت إلى تغير في نمط الحياة الاجتماعية على مستوى العالم كله...

والخلاصة أنه رغم أننا لا نرفض العولمة، وإنما علينا أن نتكيف معها ونجيد التعامل معها بروح عقلانية أو عقل مفتوح، ورغم

أن لها الآثار السلبية التي قد تكون خطيرة على العالم النامي، ولكنــها ستكون مخاطرها أكبر إذا وجهت بالانعزال وعدم الاكتراث.

ثانيا–التكنولوجيا والثورتان:المعلوماتية والإعلامية

مما دفع بعجلة التغير بوتيرة سريعة فــــي مجتمــع الإمـــارات، وأصاب كل مناحي الحياة، بروز ظاهرة العولمة العالميـــة، واتجـــاه أقطاب هذه الظاهرة ومن ضمن استراتيجيتهم العالمية نحـــو منطقـــة الخليج، بكل قوّة هادفين إلى التغيير في بنية مجتمعاتـــه الاقتصاديـــة والسياسية والاجتماعية والثقافية، ومســـتخدمين الوســـائل السياســـية والعسكرية (حروب الخليج) والاقتصادية والتجارة الحرة، والدعـــوة إليها والاستثمار المفتوح، والخصخصة، وزرع الشـــركات الكـــبرى المتعددة الجنسيات، عابرة القارات...الخ. مستخدمين أهـــم عنـــاصر التأثير أعني: الإعلام و الثقافة، وبمختلف التقنيات، ونقل التكنولوجيا.

لقد انتقل مجتمع الإمارات بسرعة مذهلة، وفائقة في العقد الأخير من القرن الماضي أي منذ بداية التسعينيات، من بنية القبيلة إلى بنيـــة الدولة الكلاسيكية، التي تبينت بأجهزتها المختلفة منذ بدايـــة الاتحـــاد وقفزا في هذه المرحلة إلى الدولة أو الحكومة الإلكترونية، لقد جـــاء في الكتاب السنوي للإمارات الصادر من وزارة الإعلام :

– التنمية الاقتصادية بوتيرة سريعة:

"فخلال التسعينيات، وطوال العامين (٢٠٠٣-٢٠٠٤) اســـتمرت التنمية الاقتصادية في النمو السريع، وذلك بفضل عـــاملين أثنيـــن:

ارتفاع أسعار النفط، ونجاح العمل في القطاعات الأخـــرى (الغـــير بترولية) (١٨).

وإذا توقفنا باهتمام أمام لغة الأرقام الواردة فـــي إصـــدار وزارة الإعلام حول التنمية الاقتصادية في السنوات الأخيرة، فيمكننا أن نفهم دلالة هذه الأرقام، والتي تعني التطور، والنمو السريعين للقطـــاعين النفطي، والغير نفطي والقطاعين العام والخاص بالإضافة إلى تطـور عدد سكان الدولة، وبالتالي القوى العاملة المحليـــة والأجنبيـــة فـــي الدولة، والناتج المحلي الإجمالي للقطاع الاقتصادي.

لقد اتسع نطاق تخطيط المـــدن والتشـــييد الـــهائل، والمشـــاريع العمرانية الاستثمارية في مختلف أرجـــاء إمـــارات الدولـــة ســـيما في(أبوظبي) و(دبي)، و بداية النمو الملحـــوظ الشـــكل فـــي (رأس الخيمة) و(عجمان) في السنتين الأخيرتين.

هذا بالإضافة إلى نمو قطاع الاتصالات، وفي مجال الانترنيت:
((في مجال اســـتخدام الحاســـبات الشـــخصية الكمبيوتـــر، تشـــير إحصاءات الاتحاد الدولي للاتصالات السلكية واللاسلكية إلى أن دولة الإمارات العربية المتحدة تأتي في مقدمة الدول العربية، إذ أن هنـــاك (٦٥،٥) جهاز حاسوب لكل (١٠٠٠) شخص من السكان، أي بمعدل جهاز واحد لكل (١٥،٢) من الأشخاص.

و في مجال الانترنيت تشير الإحصائيات إلى أن الإمارات تحتـل المرتبة الأولى بين الدول العربية من حيث نســـبة المشـــتركين فـــي الانترنيت إذ أن هناك (٦،٦٦) من كل (١٠،٠٠٠) شخص يشتركون في شبكة الانترنيت)). (١٩)

وقد أخذت في السنوات الأربع الماضية المشروعات الإعلامية والمعتمدة على التقنيات الحديثة في النمو السريع كذلك.

وخلاصة هذه النقطة أن "البنية التحتية للاتصالات تتسم بدرجات عالية من التقانة والحداثة والتطور، والذي يمهد الطريق إلى تحقيق معدلات إنجاز تنموي أفضل، ويرى الباحث حمادة ((أن المحصلة النهائية للتكنولوجيا ترتبط بالإبداع الإنساني في توطين وتطوير التكنولوجيا لخدمة الأهداف الوطنية)). (٢٠)

أما فيما يتعلق بالتنمية الاجتماعية Social Development

فيميل معظم الباحثين في التنمية الشاملة إلى التركيز في موضوع التنمية السكنية على جانب البنى المادية للتنمية أي التطور الثقافي، والشؤون الاجتماعية، ورفع مستوى معيشة المواطن، والتأمينات الاجتماعية، ومسائل الهوية الوطنية أو الشخصية، ومساعدة المواطنين على تحصيل السكن المناسب، وتشجيع الجمعيات الأهلية والاجتماعية، والتربية والتعليم والتوسع الإقليمي في هذا المجال، والاهتمام الملحوظ بحقوق المرأة، وكبار السن، و الطفولة والصحة.

وكل هذا لا غبار عليه، ولكن الباحثين الذين يركزون على التنمية الاجتماعية لا ينظرون إلى الجانب الآخر من التنمية الاجتماعية وهو الجانب اللامادي، إن صح التعبير أي: تنمية "العقل الاجتماعي" وهو ما نريد التركيز عليه في هذه الصفحات بالموازنة مع التطور المادي، والكمي، والتنمية الاجتماعية، لأننا سنرى أن تطوير هذا العقل هو الذي يؤدي إلى الإبداع الفردي أو الجماعي في مختلف قطاعات العمل في الدولة.

وفي بقية مجالات التنمية الشاملة في الدولة، في الثقافة والإعلام، وسياسة الدولة في الاهتمام والتشجيع المحلي والعالمي للحفاظ على البيئة ,Environment والرياضة والترفيه والسياحة، فكل هذه المجالات قد أشارت إليها الأرقام ذات الدلالة التطورية السريعة كذلك، وقد تحدثت عنها لغة الأرقام والموجودة في كتب الدولة الرسمية التي تصدر سنويا عن المؤسسات الإعلامية الرسمية.

الكتاب السنوي في إصداره الأخير في اللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، بالإضافة إلى الأبحاث الأكاديمية والميدانية حول التطور والتنمية العربية والأجنبية مثال:

Evolution and performance of the UAE economy –
Economy Development
Environmental Development and Proceeding in the UAE
Culture Development (Poetry in the UAE) (21)

و في العربية الأبحاث المحكمة في المجلات العلمية المعنية بالدراسات الاجتماعية والاقتصادية.

الفصل الثالث

أدبيات الدراسة

كثيرة كثرة مطلقة الدراسات السابقة التي تناولت جغرافية وتاريخ الجزيرة العربية، ومنطقة الخليج العربي عموماً والإمارات خصوصاً، بما يتعلق بالسكان والأرض، والمراحل التاريخية وتراث المنطقة، وكذلك بناء الاتحاد والدولة والتطور في البنى التحتية.

ولنعط مثالاً رقمياً حول الدراسات والمرجعيات والأبحاث النظرية والميدانية حول الإمارات موضوع هذه الدراسة:

(٣٣) دراسة وبحث ومرجع في جغرافية الإمارات / الأرض
(٢٥) دراسة و بحث ومرجع في الحفريات والتنقيب في تاريخ الإمارات القديم مرحلة ما قبل الميلاد، قبل تكوين الإمارات في شكلها الحالي وصولاً إلى مرحلة ما قبل الإسلام.
(٢٦٢) بحث ودراسة ومرجع حول مرحلة ما قبل تشكيل الإمارات.
(٩٥) مرحلة دخول المنطقة واعتناقها الإسلام.
(٣٥) عن الحياة القبلية والمجتمع القبلي التقليدي للمنطقة والإمارات.
(١٤) عن مرحلة دخول المنطقة تحت السيطرة الأوربية منذ القرن السادس عشر وحتى بداية القرن العشرين، ومروراً بالحرب العالمية الأولى و وصولاً إلى الستينات في القرن الماضي.
(٧) عن الخلفية التاريخية للأسس الدستورية للاتحاد.
(٤٠) عن تشكل الاتحاد ومؤسساته.
(٩) عن السياسة الخارجية للاتحاد.
(٨٧) عن التطور والأداء الاقتصاديين.

(٣٨) عن التطور الصناعي في الإمارات.
(٥٤) عن البيئة وحمايتها وسياسة الدولة حول البيئة.

هذه المراجع والدراسات والأبحاث أحصيناها من مرجع واحد فقط (٢٢)، يتناول الإمارات العربية المتحدة، من خلال ما ذكرت في نهاية أبحاث هذا المؤلف، وهي عينة تشير إلى ثراء وغنى الأبحاث والدراسات والمراجع العلمية حول موضوع الإمارات.

ومما يجدر ذكره أن هذه المرجعيات العلمية على وقارها وجديتها وبمختلف أنواعها تناولت الإمارات من جانب التطور "المادي"، وتعاني من نقطة ضعف مشتركة، وهي عدم دراسة "التطور البطيء جداً في نمو العقل الاجتماعي بالمقارنة مع هذا التطور المادي الحاصل، إذا أنها ذكرت في معرض عرض بناء الدولة وتطورها الحديث مع عرض الجانب التاريخي القديم كمقدمة لا بد منها لدراسة الحاضر.

ماذا نقصد بالعقل الاجتماعي الذي تقدم ذكره أكثر من مرة في الصفحات السابقة؟

المقصود بالعقل الاجتماعي: هو الإيديولوجية السائدة التي تتحكم في مواقف أفراد المجتمع، أي المواقف الأخلاقية والفكرية والثقافية والفنية وتوافقها من حيث التطور والتقدم للبنى الفوقية، أو موازاتها مع الحداثة في البنى الفوقية، وبعبارة أخرى إن العقل الاجتماعي: هو جملة الأفكار والرؤى والأحكام السائدة والمهيمنة على عقول أفراد المجتمع إلى حد كبير أو ضئيل، وكونها متقدمة أم متأخرة في الحداثة عن "التغيير" الذي يحصل في ميادين الحياة

المادية. و بكلمة أخيرة جد مختصرة إن العقل الاجتماعي هو "السياق العام" الفكري السائد في المجتمع، وهل هو تقليدي أم حديث متقدم؟.

أما العناصر المهمة للعقل الاجتماعي فتتجلـــى فـــي عنصريـــن أساسين هما:

١- الموقف النظري (الفكري).
٢- السلوك اليومي الذي يعبر شـــعورياً أو لا شـــعورياً عـــن الموقف النظري.

الفصل الرابع

مناقشة الفرضيات، والنتائج، والرؤية المستقبلية

قدمت هذه الأوراق مجموعة من الفرضيات، حول حركية العقل الاجتماعي وسيرورته وفقاً أو موازاة مع التقدم في بنى الحياة الأخرى "الفوقية" Superstructure أو المادية إذا شئنا التعبير، ويقتضي منا أن نناقش هذه الفرضيات، ونرى أياً منها هي الراجحة لتؤكد رؤيتنا النظرية التي انطلقت منها الأوراق، والقائلة بوجود "هوة" بين تقدم العقل الاجتماعي والتقدم المادي.

ونرى أخيراً الخطاب الثقافي السائد، والذي هو قمة هرم التقدم في العقل الاجتماعي (عقل أفراد المجتمع الحالي للإمارات).

١-يبدو جليا ومن خلال مؤشرات رسمية تصدر بالأدلة والأرقام ومن جهات رسمية تدعمها دراسات اقتصادية (تجارية – صناعية – وفي مجال المال والأعمال – وحركة الاستثمار في التشييد والبناء ...) أن الدولة حققت إنجازات عظيمة جداً، وتقدماً في مختلف أوجه الحياة العامة، وذلك بالقياس إلى المدة الزمنية التي مضت على تشكيل الاتحاد ودولته، ومؤسساته أي ما يقرب من خمس وثلاثين سنة، وهي مدة في عين التاريخ قصيرة جداً (٢٣).

لقد انتقل مجتمع الإمارات بسرعة مذهلة من بنية القبيلة إلى بنية الدولة الكلاسيكية والأجهزة التقليدية التابعة لها، وهو ينتقل حالياً من هذه البنية التقليدية الدولة أو الحكومة الالكترونية، ولم يمر هذا التغير

السريع دون أن يترك آثاره الإيجابية والسلبية فأما الإيجابية فأهمـها : الانفتاح على نمط من الحياة Life style المختلف جذرياً عن نمط الحياة القبلية Tribal Society ومن الحياة القبلية التقليدية إلـــى الحياة الحديثة Modern life العصرية بكل مقوماتها من إقبـــال على الاستهلاك، والسعي نحو رغد العيش، وخلق مجتمع الوفرة فـــي الحاجات اليومية التي تلبي على حد تعبير"ابراهام ماسلو" الحاجـــات البيولوجيـــة، Biological Needs I.Maslow والرفاهية، وحتى الاستهلاك الاستفزازي، والتبذير، والإسراف .....

وسوف لن نقف عند الإفرازات السلبية، بل سنعرّج على مشـكلة أعمق بكثير من هذه الإفرازات، أي أن التغـــيرات الســـريعة التـــي ذكرناها في الأسطر السابقة لم تصب سوى " شكل الوعي" و لم تغير ما كان يجب تغيره في نمط التفكير العام أو "الجماهيري" إذا أبيح لنـــا استخدام هذه الكلمة.

لقد كتبت الباحثة " فروك هيرد بـــاي " Frauke Heard Bey حول هذه النقطة ما يلـــي: ((فـــي بدايـــة القـــرن الحـــادي والعشرين،و بعد أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، وتواجـــد الأعـــداد الغفيرة من الوافدين للدولة، لقد أصبح مجتمع الإمارات لا يخلو مـــن التجانس ولكن بالنسبة للمواطنين إن البنية القبلية الأساسية لتركيبـــة المجتمع ما تزال على ما هي عليه intact .

ولقد حصلت تغيرات كثيرة على صعيد الحياة الاقتصادية لكثـــير من العائلات المواطنة، وقد غـــيرت هـــذه التغـــيرات الاقتصاديـــة دراماتيكياً من بعض مظاهر الحياة لدى هذه العائلات، بينما بالنســـبة للأخرى فقد تغيرت بعض من عاداتها في السكن والأمور الصحيـــة، والتربوية والتعليمية إلا أن الحياة الداخلية لم تتغير بعد مـــن حيـــث

موقف الأفراد ومن الانتماء القبلي واحترامهم لكيـــان القبيلـــة، وإن العلاقات والتأثيرات العائلية في سلوك أفرادها ما تزال لها الأهميـــة الكبرى، أي أنها على مسالك الأفراد)).

وتتابع الباحثة : تقول ((إنه ليس مدهشاً أن العادات التقليدية مـــا تزال تحتل حيزاً من الحياة اليومية للمواطنين مـــن هـــذه العـــادات استمرار التحية عن طريق تلامس الأنوف، واللباس الوطني التقليدي، (وتكرار عبارات التحية التقليدية مرات ومرات)، وما يـــزال موقـــع المرأة في المجتمع تقليدياً، أي أن نظرة وموقف الرجال إزاء المـــرأة مازال تقليدياً، وإضافة لذلك ما زال (المجلس) له دوره التقليدي فـــي لقاءات أبناء المجتمع، وتخصيص مكان خاص فـــي بنـــاء البيـــوت والمنازل له، هذا بالإضافة إلى الاهتمام الذي لم يختف نحـــو ســـباق الهجن .... واستخدام الأيدي والأصابع في تناول الطعام)) (٢٤).

لقد قلنا في الأسطر السابقة بانتقال مجتمع الإمارات إلى نمط مـــن الحياة المختلفة جذرياً عن نمط الحياة القبلية، فهل حصل هذا الانتقـــال جذرياً، أو حصل تغير له معنى ؟ يبدو أن الكاتبة البريطانية المذكورة لا تميل إلى ذلك.

لقد لامست الكاتبة أشكالاً ســـلوكية ومواقـــف معينـــة (قبليـــة واجتماعية)، وهي تشكل جانباً من العقل الاجتماعي والتي ما تـــزال سائدة. ولكن الكاتبة لم تذهب إلى الأبعاد الفكرية، أي أنها لم تلاحـــظ المواقف الفكرية القائمة في العقل الاجتماعي أو تكرس مواقفه، أعني ثوابت و يقينيات التفكير الغيبي الســـائد فـــي المجتمعـــات العربيـــة الإسلامية عموماً، ومجتمع الخليج والإمارات خصوصـــاً، المعتـــدل والأصولي، وهو يعين أو يملي على الأفراد مواقفـــهم مـــن الحيـــاة والكون والعالم الآخر ....

وإذا كان الموقف العام للدولة ومواقف الأفراد الفكرية تميل في الغالب إلى الاعتدال، ولكن يظل "موقفاً تفكيرياً دينياً". وهو أيضاً لم يطرأ عليه تغير جذري، وهو موقف يميل إلى التوازن بين العقل والنقل. وتغليب الطرف الثاني في المعادلة، إنه ذات الموقف الذي ورثناه من تراثنا الفكري العربي الإسلامي التقليدي في عصوره الماضية (العباسي الأول والثاني)، والذي ينبع أساساً من النص القرآني الكريم.

٢-انتقال مجتمع الإمارات إلى المجتمع المعلوماتي والمعرفي بشكل عام.

تشهد المجتمعات المعاصرة تحولاً من المجتمع الصناعي إلى مجتمع ما بعد الصناعة، أي مجتمع المعلومات، كما يرى Daniel Bell فإن المبدأ الأساسي في هذا التحول هو أن المعلومات أخذت تحتل موقع المركز في هذا التغير الاجتماعي، والمجتمع المعلوماتي وفق رؤية البعض مجتمع قائم على الانفتاح والحرية الوفرة المعلوماتية والتجانس .." (٢٥).

ومن السابق لأوانه الحديث عن التغير الاجتماعي (أو التغير في العقل الاجتماعي) حسب تغيرنا الناتج عن الانتقال إلى المجتمع المعلوماتي، أو مجتمع الشبكة The Net Work Society . والاعتقاد السائد لدى الباحثين أن هناك فجوة كبيرة بين مجتمع الشبكة وتغير نمط تفكير المجتمعات، رغم الانفتاحات الجارية.

صحيح أن المعرفة هي التنمية إلا أن المعرفة ليست المعنى المطلق المجرد من أدوات المعرفة الناقدة أو التي يجب أن يصاحبها

(تفكير ناقد) Critical Thinking وهـــذه الأدوات أو الآليـــة تحتاجها جميع المجتمعات التي تتوجه نحو بناء مجتمعات المعرفة.

يقول الدكتور بسيوني ((لقد أحدثت ثورة تكنولوجيـــة الاتصـــال والمعلومات في السنوات الخمس الماضية بعض التغيرات (النوعيـــة) التي مهدت الطريق إلى الانتقال من المجتمع الصناعي إلى مجتمـــع المعلومات، ويبدو أن هذه الثورة سوف تترك آثارهـــا الاقتصاديـــة، والاجتماعية والثقافية على المجتمع المعاصر بشكل غير مسبوق كمـاً و(نوعاً)، ويقع في القلب من هذا التحول الإرادة السياســـية لـــدول العالم المختلفة، بما في ذلك العالم النامي، إذ تشهد الألفيـــة الجديـــدة اهتماماً متزايداً بتبني سياسات فوقية للبنية التحتية للمعلومات بما فـــي ذلك صياغة الأطر القانونية المشجعة لاستيعاب التكنولوجية، خاصـــة في مجال التعليم والصحة والتجارة الالكترونية والإدارة.

وفي ظل هذا التوجه يصبح من المهم أن نفحص العلاقـــة بيـــن التغيرات السريعة الحاصلة في مجتمع الإمارات، والمجتمع -العقـــل الاجتماعي بتعبيرنا- فيه)) (٢٦).

تعليقنا على النص المذكور هو أن الكاتب يستخدم متسرعاً فـــي السطر الثاني منه عبارة التغيرات النوعية، إذ أننا نميل إلـــى القـــول بالتغيرات الشكلية، لا بالتغيرات الجوهرية أو النوعية في تطور العقل الاجتماعي، كلمة(النوع) في النص حيث قال بشكل غير مسبوق كمـاً و"نوعاً".

إن الفقرة الأخيرة في النص، والقائلة بفحص العلاقة بين التغيرات السريعة في مجال التحول نحو المجتمع المعلوماتي، واستكمال البنـــى التحتية لتكنولوجية المعلومات والاتصالات، تملي علينا القـــول بـــأن

التغيرات ليست سريعة في مجال الاستجابة العقلية والفكرية لـــروح العصر القائمة على : التفكير العقلاني والعلمي ذلك "زرع" المنتـــوج التكنولوجي أو البنى التحتية في أرضية تعاني من الازدواجية بيـــن التقليد والحداثة، وعدم حسم هذه الثنائية يعني أن المجتمع قــد أخــذ بزمام التكنولوجية دون قاعدتها العلمية بأشكالها المادية، وبرامجـــها الورقية دون أن يساور العقل خطى التفكير العلمي وآلياته المختلفـــة في شؤون الحياة اليومية، كما دخلت التقنيات فـــي شـــؤون حياتنـــا اليومية.

لا شك أن دولة الإمارات تتقدم سريعاً في مجـــال الاســـتخدامات والتطبيقات التكنولوجية في مختلف مناحي الحياة، في التعليم والصحة والعمل والعمال و الداخلية، وتتقدم في هذه الاستخدامات في الإعـــلام والتجارة، وقد قطعت أشواطا كبيرة في استخدام تقنيـــات الاتصـــال المتقدمة، وهذه الاستخدامات تفسح مجالات واســـعة أمـــام دخـــول الإمارات القرن الواحد والعشرين، وتصبح من أولى الدول ليس على صعيد الخليج بل على الصعيد العربي، ومن الـــدول الأوائـــل علـــى الصعيد العالمي في هذه الاستخدامات.

وإذا كانت الحياة وردية على هذا الشكل ففي ثنايا الـــورود هـــذه لابد أن تظهر بعض التناقضات الاجتماعيـــة، وتســـتمر التناقضـــات التقليدية القديمة يعاني منها أفراد المجتمع. وهذا يملي علينا الســـؤال الجوهري وهو : هل التطبيقات التكنولوجية واســـتخدامات مختلـــف تقنيات العصر في الاتصال والإعلام والمعلوماتية يحل التناقضـــات الاجتماعية ؟.

لا يكفي الهدف في رأينا أن ((تتحول الإمارات إلى بيئة مبدعـــة ومنتجة في مجال تكنولوجيـــا المعلومـــات والتجـــارة الالكترونيـــة والبرمجيات والابتكارات أو أن تكـــون جامعـــاً للإبداعـــات لتدفـــق

المعلومات وإطلاقها إلى العالم بعد تحويلها إلـــى مشـــاريع ناجحـــة وقادرة ماليا)) (٢٧)، بل لا بد من أن تكون الإمارات نموذجاً في حل التناقضات الاجتماعية التي تعشعش في بنية "العقل الاجتماعي" وهـذا ما يجبرنا إلى القول بتأكيد إحدى الفرضيات التي تقدمت فـــي هـــذه الدراسة، والتي تقول بعدم وجود تغير في العمق فـــي بنيـــة العقـــل الاجتماعي وعدم مسايرته أو تباعده عن التقدم الأول الحاصل عــــن التطبيقات التكنولوجية وتكنولوجيا الاتصال.

((إن الانتقال إلى عالم الاقتصاد المبني على المعرفة يغير صيغـة العناصر التقليدية للإنتاج : فقوة العمل وأدوات الإنتاج ورأس المـــال، لأن الموارد الرمزية ستحل محل الموارد الملموسة، والجهد العقلـــي سيحل محل الجهد البدني، و يبدأ رأس المال المعرفي في تحدي كـــل الأشكال الأخرى من رأس المال.

في عصر يعتمد فيه الاقتصاد على العقل والمعرفة فإننا ســــوف نشهد مجتمعاً جديداً يعتمد على منتجات المعرفة، وقد بـــدأت الثـــورة تحدث في هذا المجتمع "المجتمع المعرفي" والتي نشهدها فـــي بـــدء إنتاج الملابس الذكية والهواتف الذكية ووسائل الإعلام الذكية))(٢٨).

نصّ معاصر وهو يعبر عن طموحات مجتمع الإمـــارات، ومـــا حققته الإمارات في مجال عالم الاقتصاد والأعمال والمال وهو تقـــدم كبير جداً، ويسابق الزمن ولكن عبارة الجهد العقلي الواردة في بدايـــة النص، لم يعرج بها الكاتب ليصبّها في خانة الطموحات فـــي تغيـــير العقل الاجتماعي والطلب منه بالموازاة مع التغيير في العالم المـــادي (الاقتصادي) وأمور الحياة "العاجلة" إلى جعل هـــذا الجـــهد العقلـــي والمعرفي لإعادة النظر في : العادات الفكرية، وتقاليدنا الاجتماعيـــة وسلوكنا اليومي، وطرائق تفكيرنا ومفاهيمنا للحياة والإنسان والكون،

ودور العـامل الثقـافي وتقدمـه، والتـأكيد علـى أن الثقافـة Intellectual- life Culture هي رأس المال الـذي يـجب تغيير بنائه وقاعدته وإنتاجه.

الرؤيــة المستقبلية

وصفنا في بداية الدراسة مجموعة من الفرضيات حول العلاقـة في التقدم بين البنى التحتية وبنية "العقل الاجتماعي" التي تمثل طرفـاً مهماً في البنى الفوقية، وقد ظهر ميلنا إلى جانب الباحثين الذين ذكرنا بعض أفكارهم حول ترجيح فرضية "الهوة" التي تفصل بين التغير في البنيتين، وكون المسافة بينهما بعيدة، ولا نظن أن الخلل في العلاقـة بين البنيتين سيحل في المستقبل القريب، مع قناعتنا أن التطور فـي العقل الاجتماعي يحتاج إلى فترة طويلة، بالقياس إلى التطـور فـي البنية الفوقية. ولكن رغم هذه القناعة بطول الفـترة الزمنيـة لابـد لمجتمع الإمارات من "الخطو السريع" نحو فهم وردم هذه الهوة.

هذا بالإضافة إلى وجود بعض التحديات أمام مجتمع الإمـارات، أشار إليها الباحثون نذكر أهمها: ((تواجه دولة الإمارات مـع بدايـة القرن الحادي والعشرين الكثير من التحديات التي ينبغـي دراسـتها وفهمها، وتحديد سبل مواجهتها من خلال منهجية علميـة. إن أبـرز التحديات الخارجية والداخلية التي تؤثر بصورة مباشرة في صياغـة مستقبل مجتمع الإمارات تتمثل في:

١. العولمة وتداعياتها، والمتغـيرات الدوليـة الكـبرى والإقليمية التي تؤثر بصورة مباشرة في الهوية الوطنيـة،

وسيادة الدولة، وحقوق الإنسان، ودور المرأة، وتأسيس مؤسسات المجتمع المدني.

٢. التحدي الداخلي ناجم عن متطلبات التنمية وتحقيق النمو الاقتصادي، وتنمية الموارد البشرية والقوى العاملة الوافدة))(٢٩).

وبكلمة أخرى إن استراتيجية الغرب للشرق الأوسط الجديد ستجعل منطقة الخليج متمتعة بالأولوية المطلقة في التقدم والتطور، وخاصة في مجرى الحداثة (الفوقية) مع عدم إهمال تحديث الرؤى والأفكار في العقل الاجتماعي، ليس بفرض ردم الهوّة الفاصلة بين البنيتين، والتي هي رغبة النخب الثقافية والفكرية وبعض قطاعات المجتمع، بقدر ماستخدم مصلحة الغرب نفسه.

Evolution of the Emirates Land , an introduction by : K.W. Glennie in : United Arab Emirates , a new perspective Edited by Abraham Al Abed , Peter Hellyer .- Book craft .UK 2001 p 23 .ودراسة في مجتمع الإمـــارات ، وضــع مجموعة من أساتذة جامعة الإمارات .(المقدمة) ١٩٩٣ ، و انظر كذلك مذكرات جامعية لطلبة كليـــة التربيـــة بجامعـــة عجمان (الإمارات) (٢٠٠٢-٢٠٠٣) م .

٢- لمصدر السابق ص ٢

المصدر السابق ص (ر)

المصدر السابق ص (ز)

المصدر السابق ص (ز)

المصدر السابق ص (ش)

Ibid p 28 .

Ibid p 59 .

دراسة في مجتمع الإمارات . مصدر مذكور . ص (ض) .

١٠ – انظر المقال المهم بالإنجليزية للدكتورة فاطمة الصـــايغ فـــي مجلة شؤون اجتماعية تحت عنوان :

the Formation International Relations and of the U.A.E Fatma AL- Sayegh , Journal of Social Affairs vol. 21 . No-84 2004 . P 43 .

١١- محاضرات في مجتمع الإمـــارات ، و دراســـة فـــي مجتمـــع الإمارات ، مصدران مذكوران سابقا ص ١١ .

١٢- م – س – ص ١٣ .
١٣ – م. س . ص ٣٣ .
١٤ – مجتمع الإمارات . م . م _ ص ٥٠ .
١٥ – أنظر الأوراق المقدمة لكاتب هذه السطور في الدورة التي عقدتها وزارة العمل و الشؤون الاجتماعية في دولة الإمارات العربية وبرعاية الجامعة العربية و ذلك في دبي في ١٨ / ٥ / ٢٠٠٥ تحت عنوان الإطار النظري والتحليلي للمشكلات الأسرية في مجتمع الإمارات، و قد ألمح الكاتب إلى عديد من المراجع حول الموضوع، كذلك يمكن الاستئناس بما نشرته جمعية الاجتماعيين في الشارقة حول موضوع المشكلات الاجتماعية، وبقلم الدارسين والمختصين في العلوم الإنسانية، وكذلك ما نشرته جمعية أم المؤمنين النسائية في إمارة عجمان لبعض الدراسات الاجتماعية الرائدة عام ١٩٩٨ .
١٦ – مجتمع الإمارات ص ٥٠ .
١٧ – مجتمع الإمارات مصدر مذكور ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .
18- United Arab Emirates , year book 2005 .
١٩- د. بسيوني حمادة ، مصدر مذكور ص ١٦٥ .
٢٠ – م . س . ص ١١٧ .
21 - United Arab Emirates ,
a new perspective .
Edited by : Abraham Al Abed
Peter Hellyer
٢٢- المصدر المذكور أعلاه . (أنظر مرجعياته، وهوامشه، والبيوجرافيا المذكورة عقب كل دراسة في الكتاب المذكور بالإنكليزية.

٢٣ – أنظر المؤشرات في وثائق الدوائر الاقتصاديـــة والمؤسســـات التي تعنى بالمعلومات والإحصاء في مختلف وزارات الدولـــة، هـــذا بالإضافة إلى الكتاب السنوي الذي تصدره وزارة الإعلام والثقافة :

United Arab Emirates , year book 2001- 2002 – 2003- 2004 - 2005 .

24- The Tribal Society ofthr U.A.E. and its traditional Ecorory by : Frank Heard – Bey in United Arab Emirates , a new perspective .Ibid . p 48 ...

٢٥– د. بسيوني حمادة، اتجاهات عالمية، مصدر مذكـــور ص٦٦، تعتبر الإمارات الأولى عربياً في اســتخدام الانــترنيت، بواقـــع ٨و ٣٦٧٣ مستخدم من بين كل عشرة آلاف نسمة (انظر جريدة الخليـــج ٢٩ مايو ٢٠٠٥)

٢٦– م . س . ص ١٤١

٢٧– م . س . ص ١٧٦

٢٨– د . جمال سند السويدي (مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة – نظرة مستقبلية) منشورات مركز الإمارات للدراســات والبحــوث الاستراتيجية بسلسلة محاضرات الإمارات رقم ٧١ ص ٢٨ –٢٩ .

٢٩– د . جمال سند السويدي، مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة – نظرة مستقبلية – مصدر مذكور.

وانظر تعليق مجلة شـــؤون اجتماعيـــة العـــدد ٨٣ خريـــف ٢٠٠٤ (عروض الكتب).

فهرس

صدر للمؤلف

١- التناقض الوجداني في الشخصية العربية الإسلامية المعـــاصرة ١٩٩٠ دار الحوار- اللاذقية .
٢- التفكير الشعري وازدواجيـــة التعبـير ١٩٩٠ دار الحـوار - اللاذقية
٣- التفكير العربي المعاصر ومقولة سقوط الغرب ١٩٩١ مركـــز الكتاب العربي- بيروت
٤- جدلية الوحدانية والإشراك في التفكير العربـــي ١٩٩٢ مركــز الكتاب العربي- بيروت
٥- دراسات في التفكير العربي - القاع الشـــعري ١٩٩٣ مركــز الكتاب العربي- بيروت
٦- إشكالية التاريخ وفهم العـــالم المعـــاصر ١٩٩٤ دار عمـــون- الأردن- عمان
٧- التفكير الإستراتيجي وحدود الإبداع في الثقافة العربيـــة ١٩٩٤ دار عمون- الأردن- عمان
٨- العقل العربي- معالم في طريـــق التحريـــر ١٩٩٤ الشـــارقة ،الإمارات)
٩- كلنا مبدعون ٢٠٠٢ الشارقة (دائرة الثقافة - الإمارات) .
١٠- مهارات التفكير ومواجهـــة الحيـــاة ٢٠٠٢ مكتبـــة الكتـــاب الجامعي - العين - الإمارات

بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المقالات والترجمات في الصحافـــة المحلية في الإمارات العربية المتحدة (١٩٨٩- ٢٠٠٣).

من السيرة الذاتية للمؤلف:

أولا: معلومات شخصية :

الاسم الكامل : عبد المعطي محمود سويد
مكان وتاريخ الولادة : حمص (سوريا) ١٩٤٣/٧/٢٢م
الجنسية : سوري

ثانيا: المؤهلات العلمية :

- دكتوراه في الدراسات الإسلامية (فلسفة) جامعة (السوربون) باريس ١٩٧٩م
- ميتريز في الفلسفة المقارنة جامعة نانسي فرنسا ١٩٧٣م
- ليسانس في الدراسات الاجتماعية والفلسفة جامعة دمشق ١٩٦٨م

ثالثا: من الخبرات العملية:

-التدريس في جامعة بنغازي(ليبيا):أديان مقارنة، علم جمال، تاريخ فن، وتدريس مادة الحضارة العربية الإسلامية باللغة الفرنسية.
-عمل رئيسا لشعبة الفلسفة (علم نفس وعلم اجتماع) في مركز تطوير المناهج والمواد التعليمية بوزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة.
-المشاركة في إعداد كتب علم النفس ومهارات التفكير (للمرحلة الثانوية).
-أستاذ محاضر في كلية الإمارات للإدارة وتكنولوجيا المعلومات في مساقي: التفكير الفلسفي، ودراسات إسلامية (باللغة الإنجليزية).
-يعمل الآن محاضرا في جامعات عجمان ودبي.